

مَلْحَمَةُ حَفْرِ قَنَاةِ السُّوَيْسِ

الذِّئَابُ وَ الفَرِيْسَةُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَهْمِيٌّ

هذه الرواية كتبت خلال إجازة تفرغ في أوائل الستينيات كواحدة من خمس روايات عن قناة السويس .. وقصة قناة السويس هي قصة مصر في العصر الحديث .. وقارئ تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين يجد فكرة "الطريق الأقصر إلى الهند" وراء كل حدث هام من أحداث هذا التاريخ :-

1. الحملة الفرنسية
2. حملة فريـــــزر
3. مساعدة فرنسا لمحمد علي بالخبراء للنهضة بمصر عســكرياً وثقافياً واقتصادياً
4. إصرار بالمرستون على تحطيم قـــــــوة مصـــــــــر العســـــــــكرية
5. إصرار عباس الأول على تدمير كل ما ظهر في عصر جـــده العظيم من نهضة
6. إنشاء السكة الحديد في مصر "ثالث دولة في العالم تتخذها وسيلة مواصلات"
7. التدخل الأجنبي والارتباك المالي في عهدي سعيد وإسماعيل

8 الاحتلال الإنجلـــــيزي وإخمـــاد الثـــــورة العرابية

9 تشبث الإنجليز باحتلال مصر وما نشأ عنه من حركات وطنية وثورات دامية بدءاً من مصطفى كامل حتى ثورة 52

10 التأميم و العدوان الثلاثي

ومن هنا خطرت لي هذه الفكرة الطموحة لكتابة خمس روايات عن مصر الحديثة تدور كلها حول قناة السويس .. وقد كتبت الرواية الأولى – وهي هذه التي بين يديك – ثم كتبت فصولاً في الرواية الثانية ؛ حولتها إلى مسلسل إذاعي قدم من صوت العرب باسم دماء على الصحراء ؛ أما بقية المشروع الطموح فلم اكتب فيه سطراً حتى الآن ..

الرواية والرؤية السياسية :

تاريخ كتابة الرواية (حوالي 1963) يحدد الجو السياسي والطابع النفسي الذين كتبت خلالهما ؛ وهما مختلفان عما هما اليوم ؛ ففي مطالع الستينيات كنت أعيش – شأني شأن المصريين جميعاً – جواً من الكراهية المحمومة لحمد علي و أسرته ؛ متأثراً بما عايشت في صدر شبابي من مباذل فاروق و طغيانه ؛ فانعكست هذه الكراهية على تقييمي لدور محمد علي ؛ فجاء قاسياً بدرجة لا أقرها الآن ؛ بعد أن خفت الكراهية بمرور ثلث قرن ؛ وبعد أن عايشت ألواناً أخرى من المباذل والطغيان تتوارى أمامها خجلاً مباذل فاروق وطغيانه ؛ فبدا لي محمد علي – في ضوء هذه النظرة الجديدة – في صورة أكثر اعتدالاً من الصورة التي قدمتها له في هذه الرواية ؛ فلم يعد هو هذه الدمية الغافلة التي صنعتها فرنسا لتنافس بها إنجلترا في سباق السيطرة على مصر ؛ ولكنه السياسي الداهية والحاكم ذو النظرة الصائبة والإرادة الصلبة الذي حول مصر من ولاية تابعة للدولة العثمانية إلى دولةٍ قويةٍ اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً تلعب دورها الرئيسي في الشرق الأوسط إلى اليوم .. حتى فكرة الوحدة العربية هو واضع بذرتها الأولى ؛ التي عبر عنها ابنه إبراهيم باشا تعبيراً ذكياً موجزاً ؛ حين سأله مراسل صحفي فرنسي عن المدى الذي ينوي أن يتوقف عنده في زحفه بالجيش المصري على تركيا ؛ فأجابه في بساطة عميقة : "حتى أقابل آخر رجل يتحدث باللغة العربية" ..

وليس معنى هذا أن محمد علي كان خيراً كله وعدلاً كله ونجاحاً كله ؛ ولكن معناه أننا ينبغي أن ننظر إليه على أنه جزء من تاريخنا ؛ له سيئاته وأخطاؤه ؛ ولكن له أيضاً حسناته وأمجاده ؛ فالنظرة إليه ينبغي أن تكون كنظرتنا اليوم إلى عبد الناصر والسادات ؛ فعبد الناصر ليس مجرد طاغية سفاح أذل الشعب وقتل فيه طموحه وفضائله ؛ والسادات ليس مجرد رجل فتح الباب على مصراعيه للفساد والرشوة والعمولات والسرقات ؛ ولكن الأول – قبل كل شئ – هو الذي حرر مصر من الاحتلال الإنجليزي ؛ وغير من التركيب الطبقي للمجتمع ؛ وأعطى فكرة القومية العربية دفعة قوية لا ينكرها عليه أحد .. كما أن الثاني – قبل كل شئ أيضاً – هو الذي غسل عار الهزيمة أمام إسرائيل وانتصر عليها لأول مرة منذ سنة 47 ؛ وهو أيضاً الذي قاد مصر خطوات في طريق الديموقراطية والتخلص من الديكتاتورية والشعارات البراقة الخادعة ..

أقول هذا لأنبه الشباب من القارئين إلى ألا يضلوا عند قراءة هذه الرواية عن تاريخهم أو يكفروا بأبطالهم ؛ فلكل منهم – بدءاً من محمد علي وانتهاءً بأنور السادات – دوره الهام في تاريخ مصر ؛ وخدماته لشعبها التي لا ينبغي ألا يحجبها ما ارتكب من أخطاء أو ما أصابه من فشل في بعض سياساته ؛ وكان من الممكن أن أعود اليوم إلى هذه الرواية بما يعدل من هذه النظرة المضادة لمحمد علي وأبنائه ؛ لولا أن هذا ليس من الأمانة الفنية في شئ ؛ فالرواية بصورتها الحالية كتبت لتعبر عن فترة من عمر الكاتب لها خصائصها التي انعكست فيها ؛ وأي تعديل فيها ؛ على ضوء فترة أخرى لها خصائصها المختلفة ؛ يعد تزييفاً فنياً يظهر الكاتب للقارئ كأنما ولد ناضجاً معتدل المزاج صائب النظرة ..

الرواية التاريخية والتاريخ :

الرواية التاريخية في رأيي رواية وليست كتابة تاريخ ؛ وعلاقتها بالتاريخ لا تختلف عن علاقة الرواية السيكلوجية بعلم النفس والرواية الاجتماعية بعلم الاجتماع ؛ بمعنى أن هذه العلوم خامات تنسج منها الرواية لا غايات تحققها ؛ وردنا قيمة الرواية إلى ما فيها من تاريخ أو اجتماع أو علم نفس يهبط بالرواية وبحكمنا بالتالي هبوطاً شديداً .. وأي ظلم نوجهه إلى نجيب محفوظ إذا رددنا أهمية "الثلاثية" إلى تصويرها لمجتمع أوائل القرن العشرين ؛ أو رددنا أهمية "العائش في الحقيقة" إلى ما فيها من معلومات تاريخية ..

من هنا كان رفضي لفكرة أن الرواية التاريخية "تصور أمجاد الماضي وتجلو صفحاته المشرقة وتلقن النشء حب الوطن .. .." إلى آخر هذه العبارات الخطابية ؛ فإذا كان الهدف هو بعث أمجاد الماضي وجلاء الصفحات الوضاءة أو تلقين النشء فإن موجزاً مدرسياً في التاريخ أوفى بالغرض وأوضح وأسهل .. ..

وحشد المعلومات التاريخية يجعل الرواية مدرساً ممسكاً بعصاً في فصل لا صديقاً يحكي في ود وحب .. وإذا كان التلميذ يساق إلى المدرس سوقاً ؛ فإن القارئ ينبغي أن يسعى من نفسه إلى الرواية ؛ ومن هنا كانت الروايات التاريخية التي تحشد المعلومات فاشلة فنياً (1) ..

(1) مثل روايات تاريخ الإسلام لجورجي زيدان

على أن هذه لا يعني أن المادة التاريخية تقل في أهميتها بالنسبة للروائي عنها بالنسبة للمؤرخ ؛ فهي لازمة للأول لزومها للثاني ؛ إن لم تكن ألزم .. والحق أن الروائي عند تعرضه لفترة تاريخية يحتاج إلى نفس الجهد الذي يحتاج إليه المؤرخ ؛ فعليه أن يقرأ كل ما كتب عن العصر ؛ وأكثر ما كتب في العصر ؛ وعليه أن يراجع الوثائق والسجلات الرسمية والمذكرات الشخصية ؛ وعليه أن يراجع الآثار والنقوش والمخلفات المعمارية والفنية .. هو إذن يرجع إلى كل ما يرجع إليه الباحث التاريخي ؛ ويبذل من الجهد مثلما يبذل .. ولكن الفرق بينهما هو أنه لا يكتب للقارئ كل ما يقرأ ؛ بل قد لا يكتب منه إلا قدراً ضئيلاً ؛ بينما باحث التاريخ ملزم بتقديم كل ما وصل إليه في بحثه .. ويمكن أن نعتبر الرواية مرحلة لا يصل إليها الروائي إلا بعد أن ينتهي من مرحلة التأريخ .. وهذا ضروري لجمع مادته التاريخية التي سينسج منها أحداث روايته وينتخب منها شخصياته ؛ ويستعين بها على تصوير بيئاتهم ومساكنهم وأزيائهم وطعامهم وشرابهم وكل ما لا بد أن يعرض له

وهو يقص أحداث روايته .. ونقص المادة التاريخية عند الروائي وقصورها يجرد أحداث روايته من الأرض التي تدور عليها ؛ ويجرد شخصياته من سماتها المميزة ؛ ويحرم الرواية كلها من الطعم واللون والرائحة ..

ينبغي إذن أن يستوفي الروائي دراسة العصر الذي يكتب عنه ؛ ولكن إقحامه نتائج هذه الدراسة في أحداث روايته (كما يفعل كتابنا) لا لشئ إلا لتقديمها للقارئ ينتهي به إلى كتابة شئ ثقيل الظل ؛ بطئ الحركة ؛ ينضح بالإملال والسأم ؛ وقد يصل الأمر إلى تفكك الأحداث وتهافت البناء .. والأسلوب الصحيح فيما أرى أن تكون المادة التاريخية بعد استيفائها مهاداً يتحرك في خيال الروائي ؛ فيبني روايته ويخلق شخصياته ويصور بيئاتهم على ضوئه ؛ دون أن يجعل من أحداث التاريخ قيداً يعوقه .. فإذا كانت أحداث التاريخ وشخصياته طيعة للحدث الروائي نسج منها روايته رأساً .. ولكن هذا لا يكاد يحدث إلا في الروايات التي تتناول عصوراً تقادم بها الزمان حتى بهتت ملامحها وأصبحت أقرب في كتب التاريخ إلى التجريد منها إلى التجسيد (كثورة إخناتون الدينية مثلاً) ؛ أما إذا كانت أحداث التاريخ وشخصياته محددة الملامح غنية بالتفصيلات لقرب زمن وقوعها أو ملازمتها الأذهان لأسباب خاصة بها (كالدين مثلاً) فإن تطويعها للحدث يكون أصعب ؛ بل أقرب إلى الاستحالة .. وهنا يحسن بالروائي أن يبتعد بالأحداث الأساسية في روايته عن أحداث الذروة ؛ وأن يتجنب في شخصياته الرئيسية شخصيات الصف الأول ..

ولقد اخترت السبيل الأخير في هذه الرواية ؛ فعندما أردت أن أصور المؤامرات التي دبرت للحصول على امتياز حفر القناة تجنبت في شخصياتي الرئيسية شخصيات الصف الأول في التاريخ (سعيد وديليسبس وروزينيير وبرافاي) التي حددتها الكتب بملامح وسمات وأفعال تقيد من الحدث الروائي .. ولما كان هدفي تصوير المؤامرات لا المتآمرين فقد نقلت الحدث إلى شخصيات أخرى أقل تحدداً وأطوع للتخيل ؛ وجئت بإبراهيم إلهامي باشا ؛ واستغللت نية أبيه عباس باشا لنقل ولاية العهد إليه بدلاً من سعيد باشا ؛ ثم أحطته بشبكة من المتآمرين المتخيلين ؛ نسبتهم إلى نفس الجماعة التي انتسب إليها ديلسبس في مطلع اهتمامه بأمر القناة ؛ وأعني بها جمعية أبحاث قناة السويس ؛ وجعلتهم يتبعون في إغراء إلهامي نفس الأساليب التي اتبعها ديلسبس وروزينيير وبرافاي مع سعيد .. ولكنني بنقل الأحداث من سعيد إلى إلهامي قد أفسحت المجال أمام التخيل الروائي بصورة أوسع مما كان يتيحها لي أبطال التاريخ الحقيقيون الذين حددتهم الكتب والمؤرخون تحديداً تمنعني الأمانة عن الخروج عليه ..

وبعد .. ..

فهذه هي الرواية بين يديك ؛ واحدة من مشروع طوحي أغرتني به عزيمة الشباب وحماسته ؛ وأقعدتني عن إتمامه مشاغل الحياة ومشكلاتها ؛ حتى انتهت – بعد ثلاثين عاماً – قدرة الشباب ؛ وإن بقيت هموم الحياة ؛ فآثرت أن أدفع بما تم إنجازه من المشروع إلى النشر ؛ بعد أن ضعف الأمل في إنجاز ما تبقى منها ؛ وإن كنت آمل أن أقدم إليك الرواية الثانية "دماء على الصحراء" في وقت قريب بعد أن أكمل ما بقي من فصولها .. والله الموفق والمستعان .. والفعال لما يريد ..

عَبْدُ الرَحْمَنِ فَهْمِيَّ

القاهرة 1409 هجرية – 1989 ميلادية

(1)

ابتسم لطيف بك في ثقة ؛ ثم انحنى في أدبٍ هو إلى النفاق أقرب ؛ وقال :

– "تستطيعين يا سمو البرنسيسة أن تطمئني .. لاشك في أنك سمعت عني ."

كان يتحدث إلى الأميرة نازلي هانم ابنة محمد علي باشا والي مصر الأسبق وعمة عباس باشا واليها الحالي .. وكانت – فيما سُمع – لاجئةً إلى الآستانة فِراراً من بطش ابن أخيها ؛ ولكنها – فيما سُمع أيضاً – كانت دائبةً على تدبير المؤامرات ضده .. ولقد توقع لطيف بك عندما أرسلت الأميرة تستدعيه في الخفاء أن الأمر يتصل بإحدى مؤامراتها .. وكان يأمل في أن تستعين بمواهبه ؛ فهو جاسوس له مكانته في الآستانة ؛ وله ماضيه الذي أورثه سمعة مشرفة في هذا الميدان .

وقد استقبلته في غرفتها الخاصة بعيداً عن الأعين المتلصصة والآذان المتنصتة .. وانقضت الدقائق الأولى من المقابلة في صمت ؛ فقد انصرفت الأميرة إلى تفحصه وقد أثار اهتمامها به قامته القصيرة وجسده النحيل ؛ فهي تؤمن بالمثل الشائع الذي يربط بين قصر القامة وبين المكر .. وبدا لها أن لطيف بك يتمتع بقدر من المكر والدهاء يفوق ما سمعته عنه ؛ تنم عن ذلك عيناه الضيقتان وأنفه المقوس وشفتاه المضمومتان في تشبث ؛ ووجهه الضامر الذي يعلوه رأس ضخم له بروز إلى الخلف يوحي بكبر المخ ؛ كما يذكر الحكيم داوود الأنطاكي في تذكرته ..

وبينما كانت الأميرة نازلي تتفحص لطيف بك كان هو منصرفاً إلى تفحص الحجرة الفاخرة التي تضمها جدرانها .. كان أثاثها ينم عن ثراء واسع وإن كان تكديسه في كل الأركان لا ينم عن أي ذوق رفيع .. على أن أهم ما أثار انتباهه هو تلك الستائر المزركشة الكثيفة التي تغطي كل منافذ الحجرة .. كانت في كثافتها وتزاحم نقوشها وقتامة ألوانها توحي بأن صاحبتها لا تستريح إلا إلى الظلام والعزلة .. والحق أن منظر الأستار التي تحيط به كان يبعث إحساساً بالظلمة إلى النفس ؛ رغم تلك الثريات الكبيرة المدلاة من السقف والمثبتة في الجدران والأركان ؛ والتي تضيئها عشرات من الشموع الكبيرة تبعث النور الباهر إلى كل بقعة في الحجرة ؛ ولكنها في نفس الوقت تنشر كثيراً من الظلال الممتدة .. على أن الإحساس بالظلام والعزلة لم يكن يتعارض مع طبيعة لطيف بك الخفاشية ؛ بل كان أبعث إلى ارتياحه واطمئنانه ..

وبعد أن انتهت الأميرة من تفحصه قالت :

– لقد حدثوني عنك كثيراً ؛ قالوا إنك جاسوس ماهر

فزادت بسمة لطيف بك اتساعاً وثقة وهو يقول :

– لم يبالغوا كثيراً يا سمو البرنسيسة

فعادت تنظر إليه مرة أخرى متفحصةً ؛ ثم قالت وقد اكتسب صوتها برودةً وجفاءً :

– ولكنهم حدثوني عنك حديثاً آخر لا يسرك أن تسمعه !

فاختفت الابتسامة من وجه لطيف بك ورفع أصابعه إلى شاربيه يفتل شعراتها إلى أعلى ثم سألها :

– أي حديث تقصدين يا سمو البرنسيسة ؟

– قالوا إنك على استعداد لأن تبيع جثة أبيك بملء قبضة من الريالات !

فعادت الابتسامة تداعب شفتي لطيف بك وإن اكتسب خبثاً وسخريةً ؛ ثم قال :

– هذا كذب .. كذب يا سمو البرنسيسة .. لقد خدعوك ؛ إنني .. ..

ولكن الأميرة قاطعته في صوت بارد :

– لا يحمل ظهر الأرض مخلوقاً يستطيع أن يخدعني

فتلعثم لطيف بك لحظة أمام جفوة صوتها ؛ ثم قال محاولاً تملقها :

– هذا كلام طيب يا سمو البرنسيسة ؛ فلماذا تخافين أن أخدعك ؟! أنا .. ..

– ومن زعم لك أنني أخاف أن تخدعني ؟

وساد الصمت بينهما لحظة قبل أن تشير الأميرة إلى صندوق كبير مطعم بالذهب قائلةً :

– افتح هذا الصندوق

وتقدم لطيف بك في شئ من الدهشة نحو الصندوق ورفع غطاءه ؛ فزاغ بصره أمام بريق الذهب المتلألئ في نور ثريا كبيرة مثبتة بجوار الصندوق ؛ وجف لعابه واشتد وجيب قلبه ؛ فقد كانت رؤية الذهب تصيبه دائماً بما يشبه الدوار .. ووجد يده تمتد إلى الدنانير بأصابع متشنجة تملأ كفه منها ؛ ولكنه أسرع يسيطر على نفسه ؛ وترك الدنانير الذهبية تتساقط من بين أصابعه في بطء ؛ فالصفقة لم تتم بعد ؛ وليس من الدهاء أن يكشف لعيني الأميرة التي لا يشك في أنها تراقبانه لهفته وضعفه أمام الذهب ؛ فبقدر ما يتظاهر بالثراء يرفع أجره ويجزل عطاؤه ..

فلترتد يده عن الذهب ولتتخل أصابعه باكيةً عن تلك الدنانير التي تتساقط من بينها ! .. ..

على أن الأميرة فيما يبدو لم تشأ أن تطيل عذابه وقد أدركت لهفته ؛ فقد قالت في صوت هادئ :

– لماذا لا تملأ قبضتك من ذهبي ؟ فهي لك ..

ولم يستطع دهاء لطيف بك عندئذ أن يسيطر على جشعه ولهفته ؛ فقبل أن تنتهي من آخر كلمة في أمرها ذاك ؛ كانت يده مرتجفة تغوص في الدنانير وتقبض منها قبضة تزيد كثيراً على ما يتسع له كفه ؛ فيسيل ما تعجز أصابعه عن الاحتفاظ به متساقطاً في الصندوق ؛ وخلفه كانت تسيل نفسه حسرة ؛ وعادت الأميرة تقول :

– إن كفك فيما يبدو لي صغيرة لا تتسع للكثير

وصمتت لحظة :

– حسن ؛ ستجد في هذا الصندوق ..

وأشارت إلى صندوق آخر صغير بجوار الأول :

– "كيسين ؛ فخذ واحداً منها " ..

وأسرع لطيف بك يفتح الصندوق الذي أشارت إليه ؛ فرأى فيه كيسين كبيرين أحدهما أصفر والآخر أسود ؛ ولم تتركه الأميرة يتردد طويلاً أمام أي الكيسين يختار ؛ فقد قالت :

– خذ الكيس الأصفر ؛ فهو أكثر امتلاءً من الأسود ..

فرفع الكيس الأصفر وتحسسه بأصابعه ليطمئن إلى أنه مفعم بالدنانير الجيدية ؛ ثم دسه في عبه ؛ ولكنه لم يغلق الصندوق ؛ فقد أحس برغبة جامحة في الاستيلاء على الكيس الثاني وليكن أقل امتلاء من الأول ولكنهما يكونان معاً إذا احتازهما ثروة طيبة ؛ ورفع نحو الأميرة عينين ضارعتين تشيان برغبته ؛ ولكنهما ارتدتا أمام ملامحها المتحجرة ؛ فمد يده ليغلق الصندوق في بطء ينم عن خيبة أمله ؛ ولكن الأميرة قالت فجأةً :

– إذا شئت أن تحصل على الكيس الثاني فلن أمنعك

ولم ينتبه لطيف بك في لهفته إلى النبرة الهازئة التي امترجت بصوتها ؛ فأسرعت يده تختطف الكيس الأسود كأنما تخشى أن تكون الأميرة غير جادةٍ في عرضها ؛ ولكنه شعر بعد أن رفع الكيس بشئ غريب ؛ لم يكن ثقل الكيس متناسباً مع ثقل الذهب ؛ ولم تسمع أذنه عندما حرك الكيس رنين الدنانير الذي تشتاق إلي سماعه ؛ فتوقفت يده بالكيس دون عبه ؛ أيكون فيه شئ غير الدنانير ؟ .. وقالت الأميرة :

– افتحه ترَ ما فيه ..

وحل رباط الكيس ثم دس أصابعه فيه فأمسكت بجسم صلب بارد ؛ عرف حقيقته ؛ ولكنه لم يصدق نفسه حتى استخرجته أصابعه من الكيس .. كان خنجراً مرهف النصل .. فأخذ يحدق فيه في دهشة مذعورة .. ماذا تقصد هذه الأميرة الشيطانة بدعابتها تلك الثقيلة ؟

وقالت الأميرة في هدوءٍ :

– الكيس الأول منحة مني ؛ أما الثاني فقد دفعك إليه جشعك ..

وعادت تحدد (تحدق) عينيها في وجهه الهضيم ؛ ثم قالت :

– فإذا حدثتك نفسك بأن تخونني في مقابل قبضة ثانية يدفعها لك عباس باشا فلن يكون جزاؤك إلا هذا الخنجر ؛ ولن يكون عندئذ في يدك ؛ وإنما في صدرك ! ..

فتلعثم لطيف بك قائلاً :

– يا سمو الأميرة ؛ لا أحب أن تسيئي الظن بي .. إنني .. .. ..

ولكنها قاطعته قائلة في حزم :

– لا أحب أنا أن تسئ الظن بي .. أنا البرنسيسة زهرة باشا ابنة محمد علي باشا ذابح المماليك .. سمعت به طبعاً ! ..

ولم تنتظر إجابته وإنما مضت تقول :

– وزوجة محمد بك الدفتردار الذي كانت هوايته أن يمارس الجزارة في أجسام الناس .. هل عرفتني معرفة جيدة الآن يا بك ؟

وأومأ لطيف بك برأسه ؛ فمضت تقول :

– هذا أفضل حتى لا يسئ أحدنا فهم الآخر مادمنا سنتعاون معاً .. والآن يمكن أن نتحدث في العمل .. أريد أن ابعث برسالة معك إلى أخي محمد سعيد باشا في مصر ؛ فإن عدت إلَّي بردٍ منه وأنا أعرف خطه منحتك كيسين آخرين من هذا الصنف الذي دسسته في عبك ؛ أما إذا لم تصل الرسالة إلى يده فإن عندي عشرات يستطيعون إغماد هذا الخنجر في قلبك ..

لم يكن هذا التهديد الصريح والأسلوب الذي تم به مما يتفق مع ما كان يتوقعه لطيف بك من هذه الأميرة .. فهو قد جاء لمقابلتها وفي ذهنه أنها إمرأة محدثة النعمة يستطيع أن يعبث بغرورها ما شاء له عبثه ؛ وكان يتصورها أيضاً على شئ من السذاجة ؛ بعدما سمع عن اضطهاد ابن أخيها عباس باشا لها ؛ وعجزها أمام هذا الاضطهاد عجزاً لم تملك إزاءه إلا أن تفر من مصر لتقيم في استانبول ؛ وهي تظن أنها بهذا تبعد عن يد نقمته وعيون جواسيسه ؛ فمضت تدبر لاغتياله مؤامرات كانت تبلغه أنباؤها لسذاجتها .. وعلى أية حال فقد كانت مؤامراتها تتكشف – مؤامرة إثر الأخرى – لسبب آخر غير السذاجة ؛ وهو أن نصف الجواسيس المحترفين في استانبول كانوا يعملون لحساب عباس باشا ؛ ولحساب ستراتفورد كاننج سفير إنجلترا وحليف عباس ..

كانت الصورة التي في ذهنه إذن لا تتفق مع مايراه الآن من قسوتها وبرودها ؛ وقدرتها على استغلال ضعفه أمام الذهب ؛ ضعفه الذي لا يعادله إلا خوفه من الاغتيال .. وبدأ ينظر إلى الأميرة على ضوء جديد ؛ فأخذ يتأملها ؛ ولم يتوقف كثيراً عند قامتها الضخمة ووجهها المستدير ؛ وإنما نفذ بنظرته خلال عينيها الزرقاوين الواسعتين محاولاً أن يستكشف أعماقها ؛ فأدرك أنه أمام نمرة متوحشة لا تعرف معنى الرحمة ؛ بل لعلها لم تسمع عنها قط .. ذكاؤها مفرط ولكنه شرير ؛ إرادتها صلبة ولكنها مدمرة ؛ نشاطها ملتهب ولكنه حذر .. هي إذن إمرأة متآمرة من الطراز الذي يطمئن إلى العمل معه ! ..

فرفع إليها وجهاً تكسوه بسمة إعجابٍ ؛ ثم قال :

– أين الرسالة يا سمو البرنسسة ؟

– اذهب الآن لتهئ نفسك للسفر إلى مصر ؛ فإذا فرغت من ذلك فعد إليَّ أعطك الرسالة

فهز رأسه معترضاً ؛ وقال :

– لا يا صاحبة السمو أعطني الرسالة الآن ؛ فلن نلتقي مره أخرى إلا عندما أعود إليك برد البرنس محمد سعيد باشا ..

ولما رأى في عينيها إصراراً لم يتاثر باعتراضه مضى يقول :

– إنني أطلب منك هذا تأميناً للرسالة ولحياتي ؛ فأنا لا أضمن أن أجد استانبول كلها تتحدث غداً عن لقائنا هذا ؛ بل إنني واثق من أن جواسيس ابن أخيك الكثيرين يعلمون الآن بأمر هذا اللقاء ؛ وسوف يتعقبونني ؛ فإذا ما عدت لمقابلتك فسوف يدركون وخاصة بعد أن تشيع أنباء استعدادي للسفر أنني سأحمل رسالة أو شيئاً من هذا القبيل ؛ وحينئذ لا أستطيع أن أتنبأ بما يمكن أن يحدث لي أو يحدث للرسالة ؛ لا يا سمو البرنسيسه أعطيني الرسالة الآن ؛ وسوف أغادر استانبول بعد يومين قبل أن يتنبأوا بما حدث بيننا ..

و بدا على الأميرة أنها اقتنعت ؛ إلا أنها عادت تعترض قائلةً :

– كلام معقول .. ولكنني لم أكتب رسالتي بعد ..

– ولماذا لا تكتبينها الآن ؟

– الآن

قالتها في دهشة مستنكرة ؛ ولكنه أسرع يقول :

– أجل ؛ وتسلمينها إليَّ الآن ؛ فإنك بذلك تضمنين أن سرك سيخرج من رأسك إلى الورق فوق هذه المنضده ثم ينتقل الورق وفيه سرك من فوق المنضده إلى يدي ؛ ولن يخرج من يدي إلا إلى يديّ أخيك البرنس سعيد باشا ؛ أهناك ضمان لصون السر أكبر من هذا ؟

ففكرت الأميرة لحظة ثم قالت :

– حسناً تستطيع أن تجلس حتى انتهي من كتابه الرسالة ؛ وجذبت حبلاً بجانبها فصلصل ناقوس صغير خارج الحجرة فتح على إثره الباب ؛ ودخلت وصيفتها فقالت الأميرة :

– صافيناز احضري ريشة ومحبرة وبعضاً من الورق وشمع الأختام ..

وعندما عادت الوصيفة بما طلبت أمرتها بإغلاق الباب عليهما ؛ ثم جلست إلى منضدة في وسط القاع وشرعت تكتب :

– سمو أخينا البرنس محَمد سعيد باشا : أيها التيس الغبي ؛ أيتها الزكيبة المحشوة باللحم والمكرونة ؛ إلى متى ستظل منصرفاً إلى لذاتك النهمة تاركاً ابن أخينا عباس باشا يهدد حياة البرنسات وينتهب الثروة التي شقي أبونا محمد علي العظيم ليجمعها لنا ؛ لم يكن أبونا العظيم مبالغاً في تقدير قيمتك عندما كان يزنك على القباني كل أسبوع ؛ فأنت لا تزيد على ثور سمين همه في الدنيا أن يأكل ويشرب ؛ ولا يبالي بأن رقبته في النهاية ستوضع تحت سكين الجزار .. اسمع يا سمو أخينا محمد سعيد باشا : هذه آخر فرصة أمامك إن أضعتها فقد أضعت منك إلى الأبد عرش مصر ؛ الذي هو من حقك بحكم الفرامانات ؛ وإن كنت لا تستحقه أيها الثور السمين الكسول ؛ ولكنني أنا أختك سأحمله إليك على طبق من ذهب ؛ تتناوله وأنت جالس مستريح .. إن المساعي تبذل الآن لدى عظمة السلطان لينقل ولاية العهد منك إلى ذلك الصبي المدلل إبراهيم إلهامي باشا ؛ ابن السفاح الأسود عباس باشا ؛ ودولة إنجلترا كلها وسفيرها هنا سير ستراتفورد (1) وراء هذه المساعي ؛ فإن لم تساعدني على قتل ابن أخينا السفاح عباس باشا قبل أن يتم نقل ولاية العهد إلى ولده ضاع منك العرش إلى الأبد ؛ وكل ما أطلبه منك هو أن تتحرك قليلاً ؛ وتترك التردد والوسوسة التي ستنتهي بك يوماً إلى الهلاك .. ولقد دبرت كل شئ وفي خلال أسابيع قليلة سيقتل عباس باشا ؛ وما عليك إلا أن تعد نفسك منذ اليوم لهذه اللحظة ؛ فلا شك في أن أنصار عباس باشا وأعوانه سيفعلون أي شئ لمنعك من تولي العرش بعد مقتله .. فتحرك يا محَمد سعيد ؛ افعل شيئاً من أجل نفسك ومن أجلنا جميعاً – نحن البرنسيسات .. ابدأ منذ الآن في جمع ضباط الجيش وقواده حولك ؛ وسوف تجد بينهم كثيرين يكرهون عباس باشا ؛ بعد أن حل فرقهم وأحالهم إلى الاستيداع ؛ واتصل بحكام المديريات ومآمير الأقسام ؛ واتفق مع كل من تجد لديه إخلاصاً لنا أو كرهاً لابن أخينا عباس باشا ؛ افعل يا محَمد سعيد ما اطلبه منك بغير تأخير وإلا فقدت عرشك ..

تحشية : بمجرد قراءتك هذه الرسالة احرقها ؛ لا تتكاسل ولا تهمل في التخلص منها ؛ فإن قصرك مليء بجواسيس عباس أيها الغبي ؛ ولو وقعت هذه الرسالة في أيديهم فسوف تزودهم بالدليل على تآمري ؛ وبالحجة التي تقنع عظمة السلطان بعزلك من ولاية العهد .. وبعد إحراق الرسالة اكتب جملة تفيد تسلمك إياها ؛ وادفعها للرسول ؛ ثم أعده إلى الآستانة في الحال حتى لا تترك له فرصة يتصل فيها بسمو ابن أخينا ..

(1) Sir Stratford Canning ; before 1852 .. .. Lord Stratford de Redcliffe after 1852

** ** **

كان لطيف بك ثعلباً مدرباً يملك قدرة خارقة على الملاحظة الدقيقة ؛ فتدرك عينه باللمحة الخاطفة مالا تدركه عيون الآخرين بالنظرة المتأملة .. وكان ذكاؤه حاداً ؛ ولكنَّ تجرُدَ قلبهِ من العواطفِ صيَّرَ هذا الذكاءَ خبثاً أسوداً ؛ وبهذه الصفات شق طريقه سريعاً وسط جيوش المتآمرين في قصور السلطان عبد المجيد ؛ حتى أصبح أخطر جاسوس يعتمد عليه مصطفى باشا عضو المابين الرهيب ؛ إلا أن مصطفى باشا اختفي ذات ليلة إلى الأبد ؛ وشاع بعدها أن السلطان عبد المجيد أمر بخنقه وإلقاء جثته في البسفور ؛ وأحس لطيف بك بأن الرياح بدأت تتجمع للعصف به وأن جواسيس السلطان وفيهم أعداء له كثيرون سوف يلحقونه بمصطفى باشا في قاع البسفور ؛ فهجر القصور إلى أزقه استانبول بعد أن تنكر في ثياب زريه مكنته من أن يعيش شهوراً مستتراً بظلال النسيان حتى انقضت المحنة وكف جواسيس السلطان عن مطاردته ؛ فغادر مكمنه واتصل بمن تشفع له في بلاط

السلطان حتى أمن على حياته فظهر من جديد على أبواب القصور يعرض خدماته ؛ فتلقفه بعض أعوان الأميرة نازلي وعرضوا عليه العمل في خدمتها فيما تدبر من مؤامرات للتخلص من عباس باشا والي مصر .. وكان لاسم مصر أثر السحر في نفسه فهي بلاد بعيدة عن السلطان إذا عنَّ له أن يعاود مطاردته ؛ وهي بلاد غنية يسيل فيها الذهب مع ماء النيل ؛ وهي بلاد يصطرع أمراؤها على السلطة والثروة فيما بينهم اصطراعاً مريراً ؛ ولن يعدم أن يجد بينهم من يحتاج إلى مواهبه ؛ وهكذا رحب بهذه الفرصة التي سوف تتيح له أن يبدأ حياته في مصر خصوصاً أن ابن عم له هو أحمد بك قدري يقيم هناك منذ سنوات موظفاً في الجمرك ؛ فيستطيع أن يبصره بمواطئ خطواته الأولى فيجنبه عثره الغريب .. وبينما كانت الأميرة تكتب أحس لطيف بك بفضول نهم إلى معرفة ما تكتب ؛ إلا أن الاقتراب منها ومحاوله استراق النظر إليها كان أمراً غير مأمون العاقبة ؛ فأخذ يقاوم هذا الفضول بمحاوله الانصراف إلى التطلع حواليه وتركيز اهتمامه في أثاث الغرفة وتحفها ؛ وعادت عيناه تفحصان الستائر الصفيقة المزركشة التي تتدلى فوق جميع منافذ الحجرة وتشيع فيها إحساساً بالظلمة والعزلة ؛ وتوقفت عيناه عند ستار مسدل على باب جانبي لم يكن يختلف في شيء عن بقية الستائر الأخرى إلا في أنه يتحرك ؛ وكانت حركته خفيفة لا تلحظها أية عين ؛ وإذا لحظتها فإنها تردها إلى نسمة تسري في ردهات القصر .. ولكن عين لطيف بك التي تلقت تدريبها في قصور السلطان عبد المجيد أدركت أن وراء هذه الحركة الطفيفة محاولة لاستطلاع ما يدور في الحجرة بين الأميرة وبينه ؛ ولم يكن لطيف بك من البلاهة بحيث تبدر منه حركة أو كلمة تشي بشكه لمن وقف خلف الستار يتجسس ؛ فنقل عينيه عن الستار في حركه طبيعية وانتظر لحظة قبل أن يقوم من مكانه ويتجول في الحجرة متظاهراً بالاهتمام بالتحف الثمينة المكدسة في أكنافها ؛ ثم قام ببضع تحركات لا تثير أية شبهة ؛ ولكنها كانت تقربه من الستار ؛ وعندئذ رأى طرف خف رقيق يبرز من تحتها .. كان خفاً نسائياً مزركشاً بخيوط من الذهب والفضة .. ولمحت عينه أن الخيط الثالث منها متآكل تتدلى ذوائبه ؛ فتظاهر بأنه يفحص منضدة مطعمة بالصدف و العاج بجوار الستائر ؛ حتى أصبح في وضع يسمح له بالانقضاض على هذه الجاسوسة المتطفلة .. ولكنه ما كاد يهم بذلك حتى سمع الأميرة نازلي تقول له :

– ها هي الرسالة مهورة بإمضائي ؛ مغلفة بالشمع الأحمر وعليه خاتمي

وعندئذٍ خطرت له فكرة جعلته يعدل عن محاولة القبض على الجاسوسة ؛ فاسرع عائداً إلى الأميرة وتناول منها الرسالة قائلاً :

– تستطيعين يا سمو البرنسيسة الآن أن تطمئني إلى أن رسالتك لن تفارقني إلا إلى يد البرنس محمد سعيد باشا .. ولكن ..

وخلع طربوشه ..

– هل تسمحين لي بإبرة وخيط ؟

ومد أصابعه داخل الطربوش فانتزع قاعه ؛ ثم قرب الطربوش من عيني الأميرة قائلاً :

– لقد جعلت لطربوشي قاعين حتى اتخذ من الفراغ بينهما مخبأ لما أحب أن أخفيه عن العيون .. ..

وضحك :

– أليس مخبأ أميناً يا مولاتي ؟

كان يتكلم في انفعال ؛ ويضحك في انفعال ؛ ويتحرك في انفعال ؛ ولكن الأميرة كانت تراقبه في فتور ؛ ثم قالت :

– إن الطربوش مخبأ شائع معروف ظاهر لكل عين

فضحك لطيف بك ضحكته المنفعلة قائلاً :

– وهل هناك مخبأً أكثر أمناً من مكانٍ ظاهرٍ للعيون ؟ يا سمو البرنسيسة إن من يريد أن يفتش ثياب لطيف بك ذي الشهرة التي تعرفينها سينفي من ذهنه الأماكن الظاهرة للعيون ؛ وهكذا سيلقي بطربوشي وحذائي بعيداً ليتفرغ إلى البحث عن مخبأ شديد التعقيد ؛ مثل تجويف في هذا الحزام ؛ أو فتق مرتوق في هذا الثوب ؛ أو تجويف في هذه العصا .. أو .. ..

ثم استرق نظرة سريعة إلى الستار ؛ فرأى طرف الخف المزركش بخيوط الذهب والفضة قد اختفى من تحتها ؛ فقطع حديثه المنفعل وقال للأميرة هامساً :

– أسرعي يا سمو البرنسيسة بكتابة رسالة أخرى للبرنس محمد سعيد !

ورفعت الأميرة حاجبيها في دهشة وصاحت :

– هل جننت يا رجل ؟ ما معنى أن أكتب .. ..

ولكن لطيف بك قاطعها في حزم :

– لا ترفعي صوتك يا مولاتي .. وافعلي ما طلبته منك .. افعليه سريعاً وبغير مناقشة ..

وهمت الأميرة بالاعتراض مرة أخرى ؛ غير أن لطيف بك وضع الورق أمامها والريشة في يدها قائلاً :

– اكتبي .. اسأليه عن صحته .. طمئنيه على صحتك .. اذكري شوقك لرؤيته .. اكتبي إليه عن أي شئ تافه لا يهتم أعداؤك بأن يعرفوه .. اكتبي يا مولاتي .. اكتبي ..

وما كادت الأميرة تنتهي من كتابة بضعة سطور قليلة حتى ناولها لطيف بك الشمع الأحمر قائلاً :

– هذا يكفي .. ضعي الآن بعض الشمع الأحمر وأغلقي به الرسالة ثم اختميها كما فعلت بالرسالة الأولى ..

وبينما كانت الأميرة تفعل ما طلبه منها كان هو يدير مقبض عصاه ؛ فينفتح عن تجويف يمتد داخل العصا ؛ دس فيه الرسالة الحقيقية ؛ ثم أعاد المقبض إلى ما كان عليه ؛ وقالت الأميرة وهي تناوله الرسالة الثانية :

– لقد جعلتني أفعل ما أمرتني بأن أفعله .. ولكنني يجب أن أعرف السبب في .. ..

فقاطعها لطيف بك في هدوءٍ :

– السبب يا مولاتي هو أننا كنا مراقبين ..

– مراقَبَيْنَ !

قالتها الأميرة في جزعٍ ممتزجٍ بالغضبِ :

– أجل يا مولاتي ؛ فخلف هذا الستار الذي على يمينك كان يقف جاسوس .. أو بتعبير أدق جاسوسة

– أرأيتها ؟

– رأيت طرف الخف الذي تضعه في قدميها .. كان مزركشاً بخيوط من الذهب والفضة .. والخيط الثالث منها متآكل ذو ذوائب مدلاة ..

فهبت الأميرة واقفة ترتجف غضباً وقالت :

– جواسيس في قصري ؟ وبين جواري وخدمي ؟

غير أن لطيف بك رفع يده معترضاً وقال :

– كلا يا سمو البرنسيسة .. لو كنت مكانك لما أثرت أية ضجة

فقالت الأميرة في إصرار :

– جاسوسة في قصري ولا تريدني أن أعرف شخصيتها و .. ..

فأكمل عبارتها قائلاً :

– وتتخذينها طعماً تضللين به أعداءك

فتطلعت إليه في دهشة ؛ فمضى يقول :

– هذه جاسوسة أطلقت خلفك لتتسقط أخبارك ؛ وقد هيأ لك حظك الحسن على يديَّ كشف أمرها ؛ فلماذا لا تستغلينها لصالحك ؟

– وكيف ؟

– بأن تدسي عليها أخباراً مزيفة تصرف اهتمام أعداءك عن حقيقة ما تدبرين ؛ كما فعلت أنا الآن بتلك الرسالة التافهة التي طلبت منك كتابتها .. إن كلاب عباس باشا ستجري خلف طربوشي وستحصل عليه ؛ فتجد الرسالة وتقرأها وتطمئن ؛ وبذلك يتركونني أفعل ما أشاء بالرسالة الحقيقة في مقبض هذه العصا ..

فأطرقت الأميرة لحظة تفكر ؛ كانت خطته بسيطة ولكنها ماكرة .. ووجدت نفسها مضطرة إلى موافقته ؛ ولكن طبعها الذي يجنح إلى القتل وسفك الدم لم يطاوعها ؛ فهزت رأسها في إصرار قائلة :

– ولكن .. ينبغي ألا تترك دون عقاب على خيانتها أمانتي .. ينبغي أن تقتل ..

فقال لطيف بك باسماً :

– يا سمو البرنسيسة إن قتلها لن يحرمك من فرصة تضللين بها عباس باشا فحسب ؛ بل إنه سيضعك في مأزق حرج ليس من صالحك وصالح مشروعاتك أن تتورطي فيه .. هل نسيت مركزك الدقيق في الآستانة حتى تزيديه حرجاً بقتل جاسوسة ربما كانت من خدمة السلطان نفسه أو في خدمة السفير الإنجليزي ؟ هل تريدين أن تهيئي لهما فرصة يتمنيانها من زمن لطردك من الآستانة

أخذت الأميرة تستعرض موقفها على ضوء هذا التحذير .. إنها فعلاً في مركز دقيق في الآستانة ؛ فهي عدو لدود لعباس باشا ؛ و لكن السلطان عبد المجيد حليف له ؛ ومنذ عام زوج ابنته منيرة هانم من ولده إبراهيم إلهامي باشا .. بل إن هناك محاولة يؤيدها

السلطان وإن كان يتظاهر بأنه محايد إزاءها لنقل ولاية عهد مصر إلى إبراهيم إلهامي ؛ ونزعها عن أخيه محمد سعيد .. ثم إن هناك حليفاً في الآستانة لعباس باشا هو السفير الإنجليزي سير ستراتفورد كاننج ؛ أو لورد سترارتفورد رادكليف بعد أن أنعم عليه أخيراً بهذا اللقب ؛ ذلك الرجل المخيف ذو النفوذ الواسع ؛ والقوة التي تعادل قوة السلطان إن لم تزد عليها .. ألم يطلق عليه أهل الآستانة اسم "عبد الكاننج" ؛ تشبيهاً له وسخريةً في نفس الوقت بسلطانهم عبد المجيد ؟ .. ألم يطلق عليه زملاؤه السفراء سخريةً أيضاً لقب السلطان ستراتفورد ؟ هذا الرجل ستراتفورد يسعى – منذ هربت من مصر إلى الآستانة – لطردها من البلاد ؛ ولولا أن السلطان نفسه في تظاهره بالحياد إزاء الصراع الدائر بين أمراء مصر قاوم هذا المسعى لكانت طردت من زمن .. ومن يدريها كما يقول لطيف بك أن هذه الجاسوسة التي لم تعرف شخصيتها بعد لا تعمل لحساب السلطان أو لحساب ستراتفورد ؟ .. ولو صح هذا وهو محتمل إلى مدى بعيد فإن قتلها سيعرضها لنقمة السلطان أو لنقمة سير ستراتفورد ؛ وعندئذ لا تضمن أن تطرد من البلاد وتصبح لاجئة منفية ؛ تنزوي في إحدى بلاد أوروبا حتى تموت ؛ وتترك عباس باشا ذلك الحمار الغبي يتمتع بعرش مصر ثم ينقل متعته إلى ابنه ! .. كلا .. إن لطيف بك على حق .. وينبغي أن تترك هذه الجاسوسة وشأنها ؛ على أن تستغلها بعد أن تعرف شخصيتها لتضليل من تعمل لحسابه عن حقيقة ما تدبر .. ولكن من تكون هذه الجاسوسة من بين جواريها وخادماتها الكثيرات ؟ .. لاشك في أنها من المقربات ؛ وإلا ما سمح لها بأن تقترب من حجرتها الخاصة .. على أن معرفة شخصيتها أمر هين ؛ يكفي أن ترسل وصيفتها صافيناز لفحص كل خف مزركش بالذهب والفضة في القصر ؛ وصافيناز ذكية تستطيع أن تفعل ذلك دون أن تثير الشك في نفس صاحبة الخف ..

ورفعت رأسها إلى لطيف بك قائلةً :

– حسن يا بك .. لقد اقتنعت برأيك

فقال لطيف بك وهو يتناول الرسالة الثانية من فوق المنضدة :

– إذن ؛ هل تأمرين بإحضار إبرة وخيطاً أحمر ؟

وجذبت الأميرة الحبل ؛ ففتح الباب ودخلت الوصيفة فقالت لها الأميرة :

– احضري إبرة وخيطاً أحمر للبك

وغادرت الوصيفة الحجرة ؛ فقالت الأميرة :

– سأكلفها بعد انصرافك بأن تبحث عن صاحبة الخف المزركش ؛ الذي انقطع خيطه الثالث وتدلت ذوائبه ..

فقال مبتسماً :

– لن تبذل جهداً كبيراً لتعثر عليه .. يكفيها أن تنظر إلى قدميها هي ؛ وستجد فيهما خفاً مزركشاً بالذهب والفضة ؛ وخيطه الثالث متآكل تتدلى ذوائبه ..

(2) الهامي يذهب للوليتا بصحبة علي بك

لم يكن ليل الآستانة قد أوغل بعد في الظلام عندما تمطى إلهامي باشا وتثاءب ؛ فقالت زوجته في نبرة مكتئبة :

– يبدو عليك التعب يا باشا .. أتريد أن تنام ؟

فقال إلهامي وهو يتثاءب :

– الحق يا منيرة هانم أنني متعب .. إن مولانا السلطان الأفخم بإسناده عضوية مجلس الوكلاء إليَّ ؛ قد وضعني حيث لا أملك إلا أن أقتل نفسي في العمل ..

وصمت لحظة ليتمطى ؛ ثم قال :

– تصوري يا هانم .. إن عليَّ أن أقرأ التقارير المرفوعة إلى مولانا السلطان ؛ وتثاءب : كل التقارير .. ثم ألخص كل تقرير ؛ وتثاءب : ثم أسجل رأيي في المشكلات .. وتثاءب : التي تعرض على الأعتاب السنية .. وتثاءب ..

فبدت على وجه الزوجة الصغيرة مسحة من الإشفاق وقالت :

– إن أبي يكلفك فوق ما تحتمل يا باشا .. أليس في مجلس الوكلاء غيرك ليقوم بهذا العمل ؟

– هناك .. هناك غيري طبعاً ؛ ولكنهم كسالى .. ونهض مثائباً .. كسالى يا هانم

– هذا ليس عدلاً .. سأتحدث إلى أبي في هذا الأمر

ولكن إلهامي قاطعها مذعوراً وقد تخلى عنه تثاؤبه :

– كلا ! .. كلا يا هانم .. لا تتحدثي إلى مولانا السلطان في شئ من هذا

– ولكنك مرهق بالعمل !!

فاقترب منها إلهامي ومسح على شعرها الأثيث بيد حانية وقال :

– لم يكن من اللائق أن أشكو ؛ فإن عظمة السلطان وضع ثقته فيَّ ؛ ولا أريد أن أخذل هذه الثقة .. أجل .. لم يكن من اللائق أن أشكو لولا .. وانحنى فوقها هامساً : لولا أن كثرة العمل تحرمني من الجلوس إليك .. وربت على خدها البض : والتمتع بهذا الجمال السلطاني ..

فأطرقت منيرة هانم وقد تضرج وجهها حياءً ؛ ولم تجب ؛ فعاد إلهامي يتثاءب وهو يقول :

– ينبغي أن أصبر فإنها شهور قليلة أثبت فيها لمولانا أنني جدير بثقته ؛ نعود بعدها إلى مصر حيث يمكننا أن نجتمع كثيراً .. أجل .. عليَّ أن أصبر ..

واشتد حياء منيرة ؛ وازداد رأسها انحناءً على صدرها ؛ فابتسم إلهامي ؛ ثم ابتعد وهو يردد :

– أعانني الله على الصبر ! .. أعانني الله على الصبر ! ..

ودخل إلى جناحه في القصر وهو لا يكاد يغالب التثاؤب .. على أن العبيد ما كادوا يغلقون الباب خلفه حتى كف عن التثاؤب ؛ والتمعت عيناه حيوية ونشاطاً ؛ ثم اتجه إلى غرفة نومه فدخلها ؛ وأحكم إغلاق بابها خلفه ؛ وأسرع يتسربل بعباءة سوداء لفها حول جسده ؛ ثم اقترب من النافذة ففتحها ؛ وأطل يحدق في الظلام هنيهة ؛ فلمح شبحاً يكمن بين الأشجار ؛ لا تكاد تتبينه العين إلا إذا كانت تتوقع وجوده في هذا المكان ؛ وأطلق إلهامي صفيراً خافتاً متقطعاً ؛ فأجابه الشبح بصفير خافت متقطع ؛ وعندئذ تسلق إلهامي النافذة وقفز إلى الحديقة ؛ وأسرع يكمن بين الأشجار لحظات ؛ فلما اطمأن إلى أن أحداً لم ينتبه لكل ما حدث ؛ وأن كل شئ يسير في القصر كأنما ربه نائم في جناحه ؛ غادر مكمنه ؛ والشبح يتبعه على بعد خطوات ؛ متجهين إلى باب جانبي صغير في سور الحديقة ؛ نمت حوله الأعشاب والشجيرات حتى كادت تغطيه عن الأعين ؛ ولكن الشبح تقدم حتى سبق إلهامي إلى الباب ؛ فأزاح الشجيرات مفسحاً بين فروعها فجوة مر منها إلهامي ؛ الذي أخرج مفتاحاً من جيبه فتح به الباب .. وبعد لحظات كان الإثنان يتسللان في صمت مبتعدين عن القصر ؛ ليضربا في ظلام الحواري الخلفية التي نامت فيها البيوت وانقطعت عنها أقدام السابلة .. ولكن يبدو أن الظلام والسكون اللذين يلفانهما لم يكونا كافيين ليبعثا في قلبيهما الطمأنينة ؛

فقد كانا لا يفتآن يتلفتان خلفهما في حذر ؛ ويقفان عند كل منحنى يتنصتان لوقع أقدام ربما كانت تتعقبهما متسترة مثلهما بالظلام .. ولم يعاودهما الاطمئنان إلا حين تركا الأزقة والحواري وانطلقا إلى شاطئ البسفور ؛ فوقف إلهامي وملأ رئتيه من هواء البحر والليل ؛ ثم قال لرفيقه :

– يبدو أن كل شئ على ما يرام يا علي بك

فتلفت علي بك حوله كأنما يستوثق من الأمر قبل أن يقول :

– كل شئ على ما يرام يا مولاي

فأحكم إلهامي لف العباءة حول جسمه ؛ ثم انطلق مسرعاً وهو يقول :

– إلى بيت مسيو بوليفار إذن ..

** ** **

كان إبراهيم إلهامي باشا يعاني تمزقاً في شخصيته دفعه إلى أن يحيا حياتين متباينتين ؛ أولاهما تستغرق النهار كله وصدر الليل .. وهو فيها الولد المطيع لتعليمات أب قاس زوده بها قبل سفره ؛ ورجل الحكم المقرب من السلطان عبد المجيد خان ؛ والزوج الحنون البار بزوجته منيرة هانم سلطان ؛ وهي ابنة السلطان عبد المجيد في نفس الوقت ؛ إلا أن الجزء الأول من الليل لا يكاد ينتهي بأذان العشاء حتى تبدأ حياته الثانية في بيت مسيو بوليفار .. هو فيها الفتى المرح العابث ؛ والسكير الخليع الذي ينسى كل شئ إذا ما ضمته الحجرة الصغيرة ذات الستائر الوردية مع لوليتا ابنة مسيو بوليفار – أو التي زعم لمجتمع الآستانة أنها ابنته – بكل ما تملك من نضرة الشباب ؛ ومن فتنة الغرب ؛ التي تبهر إلهامي بتحررها وانطلاقها إلى غير حد ..

وإبراهيم إلهامي في ازدواج حياته إنما يتحايل ليلائم بين ما يريده لنفسه ؛ وما يراد له في قصور الحكم في كل من القاهرة والآستانة ؛ فلم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره و يحس بنيران المراهقة تلهب دمه حتى وجد أباه يحيطه بسياج من القيود ؛ التي تعنف حيناً فتتخذ صورة الأوامر الصارمة ؛ وتلين حيناً فتتخذ مظهر النصائح الأبوية الحانية .. إلا أنها في كل من صورتيها لم تكن تبالي بنيران المراهقة الملتهبة في دمائه ؛ وإنما كان مبعثها – وهدفها في نفس الوقت – شئ واحد هو السياسة :

– "أنت يا إلهامي ابن والي مصر .. فكن كذا وكذا .. ولا تكن كذا وكذا .. أنت يا إلهامي حفيد محمد علي العظيم ؛ فافعل كذا وكذا ولا تفعل كذا وكذا ؛ لا تفعل .. لا تقل .. لا تذهب .. لا تجئ .. لا تجلس .. لا تقف .. لا تشرب .. لا تأكل .. لا .. لا .. لا !" .. والنيران تلتهب في دمائه تصرخ به :

"كن .. اعمل .. قل .. اذهب .. اشرب .. كل .. "

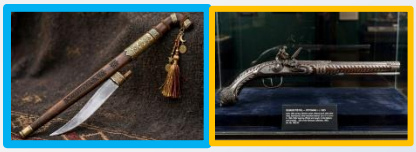
وتمزق إلهامي بين الصرختين ..!

وعندما أرسل إلى الآستانة بدأت هذه القيود تتخذ مظهراً جديداً ؛ فلم تعد أوامر قاسية ولا نصائح حانية ؛ وإنما أصبحت شيئاً أشد وطأةً على نفسه المراهقة من الأوامر والنصائح .. أصبحت مسؤلية كبل بها نفسه ؛ فقد صحا ذات صباح ليقال له إن جلالة السلطان الأعظم قد شرفه واختاره زوجاً لابنته منيرة هانم سلطان ! .. والزواج بالنسبة للمراهق حلم جميل لا يوقظه منه إلا ملل الحياة الرتيبة .. وما أسرع الملل إلى نفس فتى ثري في السادسة عشرة ! .. ولم ينجح في الإبطاء بتسرب الملل إلى نفسه كل تلك الأبهة التي أحيط بها في زواجه من ابنة السلطان ؛ ولا كل تلك الجواري المتباينات جنساً ولوناً ؛ اللائي حفل بهن القصر الفخم الذي وهبه إياه السلطان ؛ بل انقلب كل ذلك بعد شهور قليلة إلى عناصر جديدة تغذي هذا الملل وتنميه .. وصحا ذات يوم آخر ليقال له إن جلالة السلطان الأعظم عبد المجيد خان قد شرفه ثانية و اختاره عضواً في مجلس وكلاء الدولة !.. فكانت ممارسته هذه الوظيفة الخطيرة أول درس علمه كيف يوفق بين ما يراد له في قصور الحكم و ما يريده منه لهيب الغرائز المشبوبة .. فهناك تعلم بالعدوى ممن حوله أن الحكم ليس عملا وخبره وعلما وإنما هو قبل كل شيء موهبه من الله يمنحها من يشاء ويمنعها عمن يشاء ؛ فبعض الناس وهو منهم خلقوا ليكونوا حكاما ؛ وخلق الباقون ليكونوا عبيدا ؛ وأن الأمر يرجع إلى صفات خاصة في العقل والجسم ؛ صفات لا يعرفها هو وإن كان واثقا من توافرها فيه ؛ وإلا فكيف يستطيع أن يفسر ما صار إليه وهو بعد صبي صغير من سلطه واسعه وكلمه لا ترد وتحكم في مصائر الخلق ؛ إنه ولما تنبت لحيته صاحب الامر والنهي في رجال خضبت التجارب والسن لحاهم بخضاب فضي وعشيت أبصارهم جاهدة في القراءة والتامل ؛ وليس لذلك من تفسير سوى أنه رجل عظيم ؛ خلق عظيما مجرد خلق فحسب ؛ وعندما مارس الحكم فعلا لاحظ أن الأمور تسير بطريقة يسيرة لا تكلفه جهدا ولا تحتاج منه إلى علم ودرس كما يشاع ؛ فيكفيه أن يؤمئ إيماءة خفيفة ؛ أو ينطق بكلمة مبتسرة لتسير أمور الدولة في مجراها المرسوم ؛ فتتحرك أجهزة من الموظفين ؛ وتكتب عشرات من التقارير المطولة ؛ وتتخذ القرارات التي لا يصدع راسه بدراستها ؛ ويكفيه بعد ذلك كله أن يوقعها لتصبح نافذه في الحال .. غير أنه لاحظ أيضاً أن الكلمات المقتصرة والإيماءات الخفيفة رغم أنها بلا معنى في أغلب الاحيان ليست هي التي تسير أمور الحكم ؛ ولو نطق غيره بها لما زادت عن

أصوات تتبدد في الهواء ؛ ولم يتح له أحد ممن حوله أن يدرك السر في قدرة الكلمات والإيماءات عندما تصدر عنه هو بالذات ؛ فقد أوحى له المحيطون به بأن السر كامن فيه هو وليس في الكلمات والإيماءات والأعمال ؛ وجوده هو الضروري لا أعماله ؛ هو ذات وليس فعلا .. وفهم للمرة الأولى بصورة واضحة مقنعة لماذا يخاطبه الآخرون بأمثال هذه العبارات : ذاتكم البهية ؛ ذاتكم العلية ؛ ذاتكم السنية ..

** ** **

كان ينطلقان مسرعين في طريقهما إلى منزل مسيو بوليفار ؛ وكان الليل حولهما غيمه تلفهما في ضبابها فلا تراهما عين ولا تسمعهما أذن ؛ وكانت السماء فوقهما درعاً من النجوم اللامعة يبعث في قلبيهما شعوراً بالأمن ؛ وهي في عجزها عن تبديد الظلام الذي يلفهما توحي لهما بالإطمئنان إلى قدرة هذا الظلام على حمايتهما ؛ فألقيا بنفسيهما في غماره واستسلما لسكونه الذي لم يكن يبدده إلا همس المياة في البوسفور تحت أقدامهما .. وفجاة شقت سكون الليل حولهما صرخة حادة ثم صوت أقدام تهرول مقتربة منهما ؛ فتوقفا وأسرع علي بك يقف أمام مولاه رافعاً غدارته ليدفع عنه أي خطر يخبئه الظلام ؛ ووضع إلهامي الذي لم يكن جباناً على الإطلاق يده على مقبض غدارته وهو يهمس لتابعه :



– يخيل إلي أن قوماً يتشاجرون ..

فقال التابع وهو يحاول أن يخترق الظلام بعينيه :

– أخشى يا مولاي أن تكون مؤامرة اغتيال ..

– أتظنها ..

– في مثل هذا الظلام يا مولاي ينبغي ألا يركن المرء للظن ؛ وإنما عليه أن يطلق النار على أي شبح يحاول الدنو منه .. .. ولم يكد ينتهي من كلامه حتى ظهر في مدخل إحدى الحارات شبح يجري نحوهما ؛ فصوب علي بك غدارته نحوه وهم بأن يطلق النار ؛ ولكن الشبح وقد رآهما فيما يبدو صاح :

– انقذاني أيها السيدان .. انقذاني ..

وعندئذ ظهر في مدخل الحارة ثلاثة رجال يجرون خلف الأول ؛ كان منظر المطاردة واضحاً لا يحتاج إلى تفسير ؛ وإذا كان علي بك قد تردد لحظة فإن إلهامي لم يتردد ؛ وصوب غدارته نحو المطاردين وأطلقها فتوقف المطاردون لحظة ؛ بينما استمر المطارد في عدوه حتى وصل إليهما ؛ وبينما كان إلهامي يحشو الغدارة ليطلقها ثانية قذف أحد المطاردين خنجراً مر بجوار أذنه في صفيرٍ حادٍ ؛ فأسرع علي بك ؛ وأفرغ غدارته في صدر الرجل الذي أطلق صرخة عالية قبل أن يسقط على الأرض جامد الحركة ؛ وعندئذٍ استدار الآخران وانطلقا يعدوان إلى الحارة حيث ابتلعهما الظلام .. وقال إلهامي يسأل المطارد :

– أأنت بخير أيها السيد ..

فأجاب الرجل لاهث الأنفاس :

– شكراً يا سيدي .. شكراً .. لقد أنقذت حياتي ..

وقال علي بك وهم يغذون السير مبتعدين عن مكان المعركه :

– هل سرقوا منك شيئا ؟

– كنت أحسبهم مجرد لصوص ؛ لكن يبدو أنهم كانوا مصممين على قتلي فقاتلتهم ؛ واستطعت أن أصيب أحدهم بعصاي وانطلقت أعدو ؛ ولو لم تسقكم الأقدار لإنقاذي في اللحظة المناسبة فلست أدري ماذا كان سيصيبني على أيديهم لو أمسكوني وكانوا قد غادروا الشاطئ الخالي واقتربوا من منطقة ماهولة ؛ وسقط على وجوههم شعاع من ضوء تسلل من بيت نوافذه مفتوحة ؛ والتفت الرجل إلى منقذه ثم توقف عن السير في شيء من الدهشة ولكنه تخلص منها بسرعة وانحنى أمام إلهامي في احترام قائلاً

– لم أكن أظن أن منقذي هو سعادة إلهامي باشا ابن سمو والي مصر !..

فقال إلهامي وقد ضايقه أن يكشف الرجل شخصيته :

– ماذا تقول يا هذا ؟

فابتسم الرجل وأجاب :

– مولاي هل يمكن أن أخطئ في مثلك ..

فتبادل الهامي نظرة سريعة مع علي بك الذي قال للرجل :

– بل إنك أخطأت يا هذا فقد خدعك التشابه الكبير بينهما ..

فعاد الرجل يبتسم في سخريه ثم قال :

– حسن لقد أنقذت حياتي يا مولاي ؛ فإن شئت أن أبقى جاهلاً بشخصيتك فأول مظاهر الوفاء لك أن أجهلها ؛ وإن كنت أرجو ألا تجهل أنت يا مولاي شخصيتي ..

ثم انحنى في احترام قائلاً :

– أرجو أن أحظى بشرف لقائكم في مصر ؛ فإنني مسافر إليها بعد أيام قليلة ؛ أنا خادمكم لطيف بك ؛

وأسرع مبتعدا عنهما ..

(3) بوليفار والكونت رينين وي برسيفال ومشروع القناة

قال مسيو بوليفار بعد أن ملأ كأس الرجل الجالس أمامه :

– إن للوليتا كل الحق في احتجاجها يا كونت ؛ فمزاح هذا الأمير الصغير لا يطاق ..

وقالت لوليتا و هي ترفع رأسها أمام عينيه :

– لقد أوشك أن يحطم رسغي منذ ليلتين وهو في حالة مزاح ..

فابتسم الكونت رينين ؛ وأمسك باليد الرقيقة ورفعها إلى شفتيه وقبلها : ثم قال :

– أعلم تماماً ما يسببه لكما إلهامي باشا من إزعاج ؛ ولكن لابد أن نحتمل ؛ فنحن لا نريد أن يتكرر الخطأ ..

فأفرغ بوليفار كأسه في جوفه دفعة واحدة ؛ ثم سأل :

– أي خطأ يا كونت ؟

– أن يتولى حكم مصر رجل لا يؤمن بفرنسا ! فينبغي أن تتحملاه في سبيل فرنسا ..

فضحك بوليفار ؛ وقالت لويتا في لهجة ساخرة :

– في سبيل فرنسا ؟! .. حسن .. ولكن يخيل إليَّ أن قبضة من الجنيهات المجيدية يمكن أن تزيد من قدرتي على التحمل في سبيل فرنسا ! ..

فضحك رينين وأخرج كيس نقوده المنتفخ وهو يقول :

– كما تشائين يا عزيزتي .. أنا لا أبخل بشئ في سبيل فرنسا ! ..

وأفرغ نصف الكيس أمامها ؛ فضحكت وقالت :

– وأنا لن أبخل بتحطيم رسغي في سبيل هذا المبلغ .. !

ثم قامت متجهة إلى حجرتها التي يحمل إلهامي مفتاح بابها الخلفي وقالت :

– لقد حان موعد حضوره ؛ ولا يليق أن يتسلل إلى حجرتي ليجدها خاليةً مني .. إلى اللقاء يا كونت ..

– إلى اللقاء يا عزيزتي ..

وتبعها ببصره لحظة حتى أغلقت بابها خلفها ؛ ثم قال لبوليفار :

– فتاتك هذه لا تهتم إلا بالمال يا بوليفار ! ..

– وبم تريدها أن تهتم ؟ .. كلنا لا نهتم إلا بالمال

– ولكنك فيما أعتقد لا تخلو أيضاً من مشاعر وطنية ..!

– أنا لا أفهم في السياسة .. هي ليست عملي ..

– ولكنك تحب طبعاً أن تصبح فرنسا سيدة العالم .. ؟

فهز بوليفار كتفيه في غير اكتراث ؛ لم تكن المبادئ السياسية والمشاعر الوطنية والعواطف الإنسانية تعنيه أو تثير اهتمامه ؛ إلا إلى الحد الذي تحقق له فيه ربحاً ؛ فلم يكن يهتم في أعماقه إلا بهذا الهدف : الذهب .. ! وكان بقامته العملاقة وجسده المترهل وعينيه النائمتين دائماً كعيني سكير مدمن ؛ يوحي لمن يراه بأنه رجل ساذج يسهل تغفله ؛ وكان يرضى فعلاً بأن يمثل دور المغفل

مادام ذلك يعود عليه ببضعة جنيهات ؛ إلا أنه لم يكن مغفلاً فيما هو دون هذه الحدود ؛ بل كان ذا ذكاء لماح وفراسة لا تخيب وبعد نظر شديد .. وقد استطاع خلال شهور قليلة قضاها في الآستانة أن يصبح شخصية معروفة لدى كل الحاكمين والأثرياء ؛ فقد زعم أنه تاجر – وإن لم يعرف أحد نوع تجارته ولا مكانها ولا عملاءها – ولكنه كان يحيا حياة الأثرياء فينفق عن سخاء ويقيم المآدب والحفلات ؛ وينظم في بيته سهرات لمن يسميهم خاصة أصدقائه – وكانوا دائماً من رجال الحكم – وتمتد هذه السهرات إلى وقت متأخر من الليل ؛ ثم تنقض بعد أن يحصل خاصة الأصدقاء على متع لا تتاح لهم في حياتهم العامة ؛ ويحصل هو على معلومات يهتم بها "أصدقاء" آخرون له في فرنسا ؛ أو يعقد صفقات تجارية وسياسية كان يستحيل عقدها دون أن تتوسط الخمر ولوليتا في الأمر ..

كان عدم اكتراثه إذن ناشئاً من طبيعته ؛ وكان الكونت رينين – وهو المغام الذي يمثل روح عصر نابليون الثالث – يعرف هذا ؛ ولكنه كان يعده لمشروع خطير يوجب عليه أن يهتم بالأمور السياسية ويتعمق فيها ؛ ولذلك تغاضى عن هزة كتفيه ومضى يقول

– وكي تسود فرنسا العالم ينبغي أن تسيطر أولاً على مصر .. !

فاضطجع بوليفار في مقعده وقال في استرخاء :

– أنت تتحدث عن أمور لا تعنيني يا عزيزي الكونت .. أنا لا .. ..

ولكن رينين قاطعه في سرعة :

– بل تعنيك يا عزيزي ..

– تعنيني .. ؟

قالها في شئ من الدهشة ..

– أجل تعنيك إلى حد بعيد .. بل إن هذا الموضوع يوشك أن يكون اخطر عمل تقوم به في حياتك يا عزيزي بوليفار ..

ورفع بوليفار كأسه ورشف منها رشفة متمهلة ؛ ثم وضعها على المنضدة في تأنٍ وسأله :

– وكيف ؟

– ألا تحب أن تكون أحد رجال حاشية أمير شرقي ثري ؟

فمط بوليفار شفتيه في ازدراءٍ ثم قال :

– لا .. هذا عمل لا يستهويني

– أترفض الثراء ؟!

– الثراء غير الدائم ؟ .. قطعاً أرفضه .. لا أريد أن يُدس لي سم في كأس أو يأمر الأمير بقطع رقبتي .. أو على أحسن الفروض يُلقي بي في جبٍ مظلمٍ أقضي فيه حياتي .. يا عزيزي الكونت إن الأمراء الشرقيين لا أمان لهم كما تعرف .. !

فعاد رينين يغرق في الضحك قائلاً :

– الحق معك .. الحق معك يا بوليفار .. ولكن هذا المصير لا يمكن أن تنتهي إليه إذا تعاونت معي في هذا الموضوع .. بل على العكس ؛ ستصبح ذا نفوذٍ لا يرد وسطوةٍ لا تُحد حتى على الأمير نفسه ..

– أي أمير تقصد ؟

– إلهامي باشا طبعاً

– هذا الصبي الشرس ؟ ! .. أنت لا تعرفه عندما يجرع كأسين من الخمر .. إنه في هذه الحالة يفعل كل ما لا يخطر لك كآدميٍ على بالٍ .. إنه لا يتردد في أن يقتل جليسه ليستمتع بالإثارة ..!

فقاطعه رينين وهو يرفع يده معترضاً :

– هذا إذا لم يكن الجليس تحت حماية إمبراطور عظيم مثل إمبراطور فرنسا ..

– ماذا تعني ؟

فلم يجب رينين .. وإنما فتح حقيبة معه وأخرج منها ملفاً أحمر ناوله لبوليفار وهو يقول :

– سيوضح لك هذا ما أعني ..

وقرأ بوليفار على الملف عنواناً مكتوباً بخطٍ أنيقٍ :

"حقائق وملاحظات عن مشروع برزخ السويس ؛ جمعها وعلق عليه"

"كونت رينين دي برسيفال"

ولم يفهم بوليفار العلاقة بين هذا الملف وبين ما يدور بينهما من حديث ؛ فنر متسائلاً إلى رينين الذي قال :

– اقرأ جميع الأوراق التي يضمها هذا الملف ؛ اقرأها جيداً ؛ وعندئذٍ تعرف الدور الخطير الذي يمكن أن تقوم به ؛ لا في حياة مصر أو فرنسا وحدهما ؛ بل في حياة العالم كله

فقال بوليفار وهو يعيد الملف إلى رينين :

– يا عزيزي الكونت .. أنا رجل أسعى وراء الثروة كما تعرف ؛ والطريقة التي أجمع بها ثروتي طريقة أتقنها وأفهمها ؛ ولكن المشروعات التجارية أو الدسائس السياسية أسلوب لا أحسنه ؛ وأنا لا أحب أن أغامر فيما لا أعرف ؛ خصوصاً إذا كان ثمن الفشل عُنُقَاً أدفعه على المقصلة أو المشنقة ؛ أو سجناً طويل المدى إلقى فيه بغير رجاء .. لا يا عزيزي .. دعني من السياسة والمشروعات التجارية ؛ وخلني أجمع ثروتي بالأسلوب الذي أحسنه .. !

– أتظن أن المتاجرة في الأعراض ستجلب لك الثروة التي تنشد ؟

– إن لم تجلبها فهي لن تنتهي بي على أسوأ الاحتمالات إلى أقل مما أنا فيه الآن ..

– لا تكن أحمقاً ! ..

قالها رينين في عنفٍ ؛ وهو يدفع بالملف إلى يدي بوليفار :

– إن لديك فرصة لا تعوض .. فرصة لو أضعتها لأضعت من يدك ومن يد فرنسا ثروة لا تنفد ونفوذاً لا نهاية له ! .. إن بين يديك الآن مصير فرنسا كلها .. فإما أن تسود العالم وإما أن تصبح دولة من الدرجة الرابعة أو الخامسة .. إنك تستطيع أن تحقق لفرنسا ما عجز الإمبراطور نابليون الأول عن أن يحققه لها بكل حروبه وانتصاراته ..

– أنا ؟! ..

قالها غير مصدقٍ ..

– نعم أنت .. إنك تملك سلاحاً أمضى من سلاح بونابرت .. وعبقرية أشد من كل عبقريته الحربية ..

فضحك بوليفار وقال ساخراً :

– دلني بربك على هذا السلاح وتلك العبقرية حتى أسود بهما العالم .. !

– ستسود العالم لو أطعتني

– وسلاحي ؟

– لوليتا .. !

– وعبقريتي ؟

– الدعارة ..!

– أنت تمزح يا كونت !!

– بل اتكلم جاداً ..

– إن قدرتك على إمتاع إلهامي باشا وقدرة لوليتا على السيطرة عليه هما الطريق إلى سيادة العالم .. ستصبح سيداً يتحكم في ملايين الفرنكات التي يتاجر بها العالم ؛ وستصبح فرنسا سيدة تتحكم في تحركات السفن بين شطري العالم .. لا تضيع هذه الفرصة من يدك ولا من يد فرنسا أيها الأحمق ..

– وماذا أستطيع أن أفعل .. ؟

– اقرأ هذا الملف ؛ اقرأه جيداً كما قلت لك ؛ وأعطه للوليتا لتقرأه أيضاً ؛ وعليكما أن تقنعا – بالتدريج وفي حرص شديد – إلهامي باشا بتنفيذ ما فيه .. أتعجزان – وهذه سيطرتكما عليه – عن إقناعه ؟ ..

ففكر بوليفارد ثم قال في شيء من التردد :

– لن نعجز طبعاً ؛ ولكن أية سلطة يملكها لينفذ هذا المشروع ؟ .. إنه أمير فقط وليس ولياً للعهد ؛ ولن يكون حاكماً على مصر في يوم من الأيام ..

– هذا هو الخطأ الذي وقعنا فيه مرة ولا نريد أن يتكرر ؛ لقد قلنا إن محمد علي سينفذ أهدافنا ؛ ولكن المغامرات الحربية التي خاضها لفتت إليه وإلينا الأنظار ؛ واعتزل محمد علي ؛ وكنا قد أعددنا العدة لنسيطر على ولي عهده إبراهيم باشا ؛ ولكنه خاننا

ومات بعد سبعه أشهر ؛ وانتقل العرش بذلك فجاة إلى رجل لم نكن نتوقع أن يحكم مصر في يوم من الأيام ؛ رجل لم نهتم لحظة بالسيطرة عليه ؛ فكانت النتيجة ما ترى الآن ؛ إنه يحكم خاضعاً لنفوذ الإنجليز ؛ مستشارون طردهم ؛ عملاؤنا شردهم ؛ مشروعاتنا ألغاها .. إن المشروع الوحيد الذي ينفذه الآن هو مد سكة حديدية بين الاسكندرية والسويس ؛ وهو مشروع انجليزي مائة في المائة ؛ أتدرك معنى نجاح هذا المشروع ؟! .. معناه أن نفوذنا في مصر قد تلاشى إلى الأبد .. معناه أن أملنا في السيطرة على تجارة الشرق وثروته الخيالية قد تبدد إلى غير رجعة ؛ ونحن لن نسمح بهذا ؛ لا يمكن أن نسمح بهذا .. كان رنين يتكلم في حماسة عنيفة ؛ وقد التمعت عيناه وارتعدت أطرافه ؛ ولكن بوليفار تاجر الأعراض المتمرس لم يتاثر بهذا الانفعال ؛ بل انتظر حتى انتهى رينين ؛ ثم قال في برود :

– كل هذه الخطبة المتحمسة يا عزيزي لم توضح لي علاقه إلهامي باشا بالموضوع ؛ إلا إذا كنت تريد أن تقنعه احتياطاً ضد الزمن ؛ فربما انتقل إليه العرش يوماً ..

– نعم هذا ما أريده تماماً ؛ يجب أن نضمن إلهامي في أيدينا ؛ حتى إذا انتقل إليه العرش .. ..

فقاطعه بوليفار وهو يهز كتفيه ساخراً :

– في هذه الحالة عليك أن تبحث لكل أمير في أسرة محمد علي عن رجل مثلي يسيطر عليه ؛ فربما انتقل العرش يوماً إليه ؛ أليس هذا التفكير خيالياً ! ..

– أتحسبنا أغبياء لهذا الحد يا بوليفار ؛ إن فرصة وراثة العرش محصورة الآن في ثلاثة رجال : (1) سعيد أولاً ؛ فهو ولي العهد ؛ ثم (2) إسماعيل بن إبراهيم بعده ؛ لأنه يليه في السن ؛ وكلاهما رجلنا ؛ وهناك من يؤدي لسعيد ولإسماعيل نفس الخدمات التي تؤديها أنت لإلهامي في الآستانة هنا ؛ والسيطرة عليهما أمر تم تنفيذه من زمن ؛

– أجل ؛ إما إلهامي ؟!

– إلهامي هو أقرب الثلاثة إلى تولي العرش ؛ فهناك مؤامرة لابد أن الإنجليز وراءها لنقل ولاية العهد إليه ؛ وجعلها محصورة في نسل عباس باشا ..

– وهل ستنجح المؤامرة ؟!

– طبعاً لن نتركهم ينفذونها .. سنحتج عليها لأنها مخالفة للفرمان الذي صدقت عليه كل الدول ؛ ولكن لا تنسى أن السلطات الحقيقية التي تسيطر على مصر الآن تريد أن تنجح المؤامرة ؛ فعباس بغير شك يريد أن يرث ابنه العرش والإنجليز يريدون ذلك أيضاً ؛ والسلطان عبد المجيد يحب إلهامي وقد زوجه ابنته وأسند إليه أرفع المناصب في الدولة ؛ كل هذه القوة قادرة على أن تنقل ولاية العهد من سعيد إلى إلهامي ؛ ولن نستطيع مقاومتها بصوره جدية ؛ ولهذا يجب أن نسيطر على إلهامي ..

– أنا مسيطر عليه ..

– اقنعه إذاً بمشروع برزخ السويس ..

فمد بوليفار يده وتناول الملف وأعاد قراءة العنوان : "**حقائق وملاحظات عن مشروع برزخ السويس ؛ جمعها وعلق عليها كونت رينين دي برسيفال**" ؛

وهم بأن يفتح الملف عندما سمع طرقه صنج نحاسي صادرة من غرفه لوليتا فابتسم وقال :

– وصل الباشا الصغير ؛ فهذه الطرقة تعني أنهم يطلبون الخمر ..

– حسن سأتركك الآن لتقرأ هذا الملف على مهل ؛ أريد أن تنتهي منه بسرعة ؛ ثم تعطيه للوليتا لتقرأه أيضاً حتى يمكن أن تبدآ العمل سريعاً ..

وانصرف رينين خفيفاً سريعاً وهو لا يزال منفعلاً ؛ وشيعه بوليفار إلى الباب ؛ ثم عاد إلى مقعده وتناول الملف الأحمر وراح يقرأ .

(4)

أمسكت لوليتا بيد إلهامي باشا ؛ وأخذت تمسح عليها بأصابعها الرقيقة وهي تعجب من ضخامتها بالنسبة إلى سنه .. والحق أن كف إلهامي كانت غليظة غلظاً غير مألوف حتى عند ذوي الأجسام الفارعة العريضة مثل جسمه ؛ فقد كانت كفاً شبيهة بأكف تماثيل الإغريق والرومان التي نحتوها لآلهتهم .. ورأت لوليتا أن هذا التشبيه يمكن أن يدخل السرور على نفس إلهامي ؛ فقالت :

– أتدرك يا عزيزي الباشا الصغير أنني أتساءل دائماً وأنا أمسك بكفك بين كفي .. متى وأين رأيت مثل هذه الكف ؟

فضحك إلهامي قائلاً :

– رأيتها في يدي الأخرى طبعاً ؛ فهي مثل أختها

– لا .. لا يا عزيزي .. لقد رأيتها في مكان آخر لا يخطر لك على بال

– أين ؟

– في تمثال لزيوس

ولم يبد على إلهامي أي أثر للسرور لهذا التشبيه ؛ وظنت لوليتا أنه ربما لا يعرف زيوس ؛ فمضت تقول :

– زيوس أكبر آلهة الإغريق ..

– آه ..

قالها في هدوءٍ لا ينم عن السرور أو الدهشة ؛ فمضت تقول :

– ألا تعرف زيوس ؟

– زيوس هذا لا أعرفه .. ولكنني أعرف نفسي ..

فضحكت لوليتا قائلة :

– آه .. لعلك أكبر من زيوس !

– لا .. فأنا بشر كما تعرفين ؛ ولكن لو لم أكن بشراً لكنت إلهاً أكبر من إلهك زيوس هذا .. بالتأكيد أكبر وأهم منه كثيراً ..

وأغرقت لوليتا في الضحك ؛ ولكنها لاحظت أنه لا يشاركها الضحك .. كانت في عينيه نظرة جادة ؛ وعلى جبينه عبسة وقور ؛ وأخذ يتكلم في صوت هادئ ؛ ينطق كل حرف من حروفه بالثقة فيما يقول :

– كثيراً ما فكرت في هذا الأمر .. لقد ولدت لأسود وأحكم وأتحكم ؛ فلماذا ؟ .. لماذا اختصصت وحدي بهذا ؟ .. كنت أسأل نفسي دائماً هذا السؤال ؛ وكانت الإجابة دائماً واحدة مهما اختلفت طرق التفكير التي أسلكها : إن فيَّ من المميزات ما يؤهلني للسيادة والحكم والتحكم .. هذه المميزات لا تكاد توجد في غيري من الحكام .. حتى في أبي ؛ بل حتى في السلطان نفسه ! ..

– السلطان !؟

ونم صوت لوليتا عن قدر من الدهشة والإنكار الكبير ؛ ولاحظ إلهامي دهشتها ؛ فشمخ بأنفه في ترفع وقال :

– أجل .. السلطان لا يملك المميزات التي تؤهله للسيادة والحكم ؛ أتشكين في ذلك ؟

– ولكنه يسود ويحكم فعلاً ؟

– بالوراثة يا عزيزتي .. بالوراثة ! .. إنه يحكم لأنه كان بحكم السن الوارث الشرعي للعرش .. وكذلك أبي ورث عرش مصر لا لشئ سوى سنه ؛ أما أنا .. وأنا لم أبلغ السابعة عشرة بعد ؛ فقد ألقى السلطان بمقاليد الحكم بين يدي ؛ فلماذا ؟ .. لست وارث عرش ؛ فأنت تعلمين بغير شك أن ولي عهد مصر هو محمد سعيد باشا عم أبي ؛ فلماذا يعطيني السلطان دون غيري من أبناء الولاة والباشوات ؟ .. لماذا ؟ .. إن لم تكن الصفات الخاصة فيَّ تؤهلني لأسود وأحكم وأتحكم .. ؟

ونظرت إليه لوليتا في حنق شديد .. كان يقتلها غيظاً بهذه الكبرياء وهذا الغرور اللذين يملآن جوانحه .. ونسيت أنها تسلمت منذ قليل نصف كيس من الجنيهات لتسترضيه وتتملقه ؛ فسألته في سخرية :

– وهل تعرف يا باشا هذه الصفات التي تجعل منك سيد الآخرين ؟

– ألا تعرفينها أنت ؟

– أنا بشر يا مولاي .. وأنى للبشر أن يعرفوا صفات الآلهة .. !

– ولكنني لست إلهاً يا لوليتا .. أنا بشر قطعاً .. وإن لم أكن مثلك .. لم أقل إنني إله .. فأنا مسلم وموحد كما تعرفين ؛ ولكنني أعتقد أنني لو لم أكن بشراً لجعلتني هذه الصفات إلهاً ..

وأدركت لوليتا أن سخريتها لن تنال من هذا الطود المغرور ؛ وتذكرت نصف كيس الجنيهات ؛ فابتسمت وعادت تمسك بيده مداعبة ؛ وتقول :

– لا شك في أن فيك صفات لا يملكها أحد غيرك في الآستانة ؛ فلا أحد غيرك في الآستانة أو غير الآستانة من بلاد العالم يرضى أبي بأن يغلق بابه في وجه زائريه وأصدقائه ليهيئ له سهرة يقضيها معي على انفراد .. ..

– تماماً .. لقد أدرك أبوك مميزاتي منذ أول ليلة جئت فيها إلى هنا ..

فضحكت لوليتا وإن كانت تحترق غيظاً ضحكة ماجنة ثم قالت :

– أجل .. ولهذا أعطاك مفتاح الباب الخلفي لحجرتي لتدخل متى تشاء وتخرج متى تشاء .. أنت فعلاً سيد وحاكم ومتحكم .. حتى في بيتي هذا الخاص ! ..

– وقلبك .. ؟

– قلبي .. ؟ وهل يستطيع أن يصمد أمام سطوة إله ؟ .. ارفع كأسك المقدس لنشرب نخب صحتك

وتقاربت كأساهما ؛ وجلجلت ضحكاتهما حتى وصلت إلى أذني بوليفار المستغرق في حجرته مع الملف الأحمر ؛ وإلى أذني علي بك تابع إلهامي القابع في الظلام يحرس باب الحجرة الخلفي ..

و الحق أن إلهامي لم يكن يستطيع أن يمضي طويلاً وهو مع لوليتا في الإحساس بالعظمة والتسامي اللذين يستوفي منهما حظه دائماً خلال النهار ! .. فقد كانت بأنوثتها الفاجرة تنفي عن جلسائها حتى ولو كانوا آلهة صغيرة كل إحساس بسموهم .. ولعل هذا ما يفسر نجاحها في مهنتها مع طبقة الحكام والأثرياء الذين تثقلهم قيود التقاليد ومراسم عراقة الأصل في بيوتهم ومجتمعاتهم ؛ وتحول بينهم وبين مجابهة الجانب الوضيع والقذر والحقيقي أيضاً من نفوسهم ؛ فإذا ما جلست إليهم لوليتا استطاعت بأنوثتها وعريها وببضع كؤوس من الخمر أن تغوص إلى أعماقهم لتستخرج هذا الجانب الخفي ؛ فيرتدون إلى عالم الطين ؛ وتنقلب مشاعر الشرف والأمانة والنزاهة .. إلخ .. إلخ .. إلى عمليات حسابية بسيطة ؛ فقبلة تجمع على قبلة تساوي كذا ؛ وقبلة مع ضمة تساوي كذا .. إلخ ..إلخ ..!!

وهكذا تعقد الصفقات وتتسرب الأسرار في بيت بوليفار ..

ولعل ما كان يلهب غيظ لوليتا من إلهامي أن عمليتها الحسابية معه لم تكن بسيطة كالآخرين ؛ بل كانت معقدة لا تفهم نتيجتها فهي – إذا استثنت ما تحصل عليه من أموال وهدايا – لا ترى نتيجة واضحة قريبة لما يطلب منها أن تبذل من جهد في إرضائه

مصلحة فرنسا ؟!

إنها عبارة – فضلاً عن أنها لا تعنيها كثيراً – مطاطة مبهمة ؛ فهذه المصلحة غير المحددة بمهمة ثابتة يمكن أن تمتد عشرات السنين ؛ وهي لا تتصور أنها يمكن أن تتحمل هذا المغرور المتأله كل هذه المدة ..

وكان قد انصرف عنها إلى زجاجة الخمر يعب منها كأساً وراء كأس ؛ وبدا عليه حيناً أنه غافل عنها ناسٍ وجودها ؛ إلا أنه لم يلبث أن التفت إليها وأخذ ينظر إليها نظرة حادة لم تفهم معناها ؛ ثم سألها :

– لوليتا ؛ أيتها الجنية الخبيثة ؛ فيم تفكرين ؟

فهزت رأسها نافية وقالت :

– لا شئ يا عزيزي الباشا الصغير .. أنا لا أفكر

– بل كنت تفكرين .. لا تكذبي عليَّ ..

– وماذا يدعوني للكذب عليك ؟

– حقاً .. هذا هو السؤال .. ماذا يدعوك للكذب عليَّ ؟

كان مخموراً بغير شك ؛ فنطقه متلعثم ؛ وعيناه محمرتان ؛ وشفتاه تتحركان في عصبية ؛ وخشيت لوليتا أن يدفعه سكره إلى عمل من أعمال العنف التي تكرهها ؛ فقالت ضاحكة لتصرفه عن سؤاله :

– ما رأيك في هذا العطر الجديد ؟ .. شم ..

وقربت صدرها العاري من أنفه في إغراء ؛ ولكنه دفعها في عنف قائلاً :

– كلا .. كلا .. أريد أعرف فيم تفكرين ؟

كان واضحاً أن هذا السؤال السخيف قد أخذ يلح على عقله المخمور ؛ وليس ثمة مفر من أن تقدم إليه جواباً يرضيه فقالت :

– الحق أنني كنت أتأمل في تلك الصفات التي جعلت منك إلهاً .. !

– دعي مسألة الإله جانباً .. لقد قلت لك إنني بشر .. أنت تخدعينني .. لابد أنك كنت تفكرين في شئٍ تخفيه عني ..

– أنا ؟ ..

قالتها في استنكارٍ مرحٍ ؛ ولكنه قاطعها في غضبٍ :

– لا تقاطعيني .. دعيني أفكر .. لماذا تخفين عني ما كنت تفكرين فيه ؟ .. لابد أنه شئ خطير .. لعلك مثلاً كنت تفكرين في اغتيالي ..

وبهتت لوليتا ! .. فلم تحسب أن الخمر يمكن أن تفقده صوابه إلى هذا الحد .. وهمت بأن تطرده ؛ ولكنها تذكرت نصف كيس الجنيهات ؛ فكظمت غضبها وقالت :

– أنت تسرف في التخيلات يا عزيزي الباشا !

– كلا .. ليست تخيلات .. أنت تدبرين اغتيالي .. أنت تريدين أن تدسي لي السم .. ! .. لقد رأيت قنينة السم في صدرك .. هيا .. أخرجي تلك القنينة .. !

كان هذا فوق ما يمكن أن تحتمل لوليتا ؛ فصاحت به وقد نسيت كيس الجنيهات :

– أيها المعتوه الأحمق .. !

ولكن إلهامي لم يعبأ بصياحها ؛ وإنما أسرع إلى الباب الذي يطل على الحارة المهجورة حيث يقف تابعه يحرسه ؛ وناداه فأتى مسرعاً ؛ وأشار إلهامي إلى لوليتا قائلاً :

– علي بك .. هذه الفتاة حاولت أن تدس لي السم في الكأس ..

– مولاي !

قالها علي بك غير مصدق .. فقال إلهامي في إصرار :

– إن قنينة السم لاتزال معها .. لقد أخفتها في صدرها

فصاحت لوليتا :

– أيها المعتوه .. أيها الغبي ..

فقال إلهامي آمراً في حدةٍ :

– علي بك .. استخرج القنينة من صدرها

فتقدم علي بك نحوها وقال لها مهدداً :

– هيا .. أخرجي قنينة السم

فتراجعت لوليتا إلى الخلف ؛ وأمسكت بزجاجة الخمر ؛ ورفعتها في يدها مهددة وقالت :

– إن تقدمت خطوة فسأهشم رأسك بهذه الزجاجة ..

وأدرك علي بك من نظرتها أنها جادة فيما تقول ؛ وأنها قادرة على تنفيذ تهديدها ؛ فقال محاولاً أن يخدعها وهو يحاول الاقتراب منها :

– لن تجديك المقاومة ؛ فلو احتاج الأمر لاستدعاء فرقة كاملة من الجنود للقبض عليك فسوف أفعل

فازدادات لوليتا ابتعاداً واتقدت عيناها شرراً وقالت :

– استدع من تشاء ؛ ولكنني أنذرك أنت وسيدك ؛ لو مددت يدك نحوي بسوء فستدفعان ثمناً غالياً .. لا تنسيا أنني في حماية الامتيازات ! ..

فتردد علي بك لحظة .. كانت الامتيازات التي منحها السلطان للأجانب تحميها حقاً .. ونظر إلى إلهامي يستطلع رأيه ؛ فقال إلهامي في عنف :

– اقتلها .. اقتلها و لا تتردد

يقتلها ؟ .. لا شك في أن الخمر أفقدت سيده صوابه تماماً ! .. و عاد إلهامي يأمره :

–اقتلها ؛ وسأدفع تعويضاً لحكومتها .. !

إنه مخمور بغير شك ؛ وربما لم تكن هناك قنينة سم على الإطلاق ؛ وربما كان يمزح كما كان يفعل أحياناً مزاحاً أسوداً .. ولكن لا مفر من مجاراته ..

فاستل خنجره وقال لها :

– لقد سمعت بأذنيك .. إن الامتيازات لن تحميك ..

– قلت لك لو تقدمت خطوة فسأهشم رأسك بهذه الزجاجة !

– المقاومة لن تجديك يا فتاة .. خير لك أن تخرجي قنينة السم ثم تطلبي الصفح من مولاي

واقترب منها خطوة ؛ فتراجعت خطوة وهي تصيح في عنف :

– مولاك معتوه وأنت معتوه ! .. كلكم مجانين .. إنني لن .. ..

ولم تتم عبارتها ؛ فقد تعثرت في تراجعها ؛ واصطدمت بمقعد خلفها واختل توازنها .. واستغل علي بك هذا الاختلال فوثب عليها وألقاها أرضاً ؛ ورفع خنجره مهدداً إياها ؛ وهو يجوس في صدرها بيده الأخرى بحثاً عن القنينة المزعومة .. ونظرت لوليتا إلى النصل المصوب نحو رقبتها واتسعت عيناها رعباً .. وفي تلك اللحظة دوت في الحجرة ضحكة ماجنة ؛ وصاح إلهامي :

– أيها الأحمق .. إنني أمزح

– تمزح يا مولاي ؟

وتخلى عن الفتاة التعسة التي نهضت مبهورة الأنفاس محتقنة الوجه ؛ واستلقى إلهامي على مقعده وجسده يرتج ضحكاً ؛ وخلال قهقهته كانت تخرج من فمه كلمات متعثرة :

– أصدقتني .. ؟ منظرها كان .. مضحكاً .. أليس كذلك ؟ .. إنها خوافة ! .. يا خوافة .. منظرك كان .. مسلياً .. ما رأيك في مجابهة الـ الموت ؟

وفجأةً كف عن الضحك ؛ وجحظت عيناه وبدأ يتقيأ .. وأسرع علي بك إليه يسنده ؛ وظلت لوليتا تحدق نحوه في ذهول ؛ ولم تصدق أنها نجت حتى رأته منكفئاً على وجهه وتابعه يحاول أن يرفعه من بركة القيء التي تحيط به ؛ فانطلقت تعدو خارجة من الغرفة ؛ واقتحمت على بوليفار حجرته ؛ وكان يلتهم الملف الأحمر بعينيه في انفعال ؛ وصاحت به في غضب مستطير :

– لو عاد هذا الصبي إلى هنا فسأقتله وأقتل نفسي !

ورفع بوليفار إليها عينين ملتمعتين وسألها :

– أي صبي ؟

– هذا الإلهامي !

فاحتضن الملف الأحمر في شغف ؛ وقال لها في سعادة :

– إلهامي باشا ؟ أنت مخطئة ! سيعود وستستقبلينه وستفعلين كل شئ لإرضائه

– أنا ؟ هذا مستحيل بعدما حدث

– مهما كان هذا الذي حدث ؛ فستعودين إليه بعد أن تقرأي هذا الملف

– لن أقرأ شيئاً .. ولن أعود إليه

– أنت حمقاء .. خذي .. !

وألقى بين يديها المرتجفتين بالملف الأحمر ؛ وجرت عيناها في سرعة على هذه الكلمات :

"حقائق وملاحظات عن مشروع برزخ السويس ؛ جمعها وعلق عليه"

"كونت رينين دي برسيفال"

وهمت بأن تلقي بالملف في وجهه ؛ ولكنه قام إليها واحتضنها في انفعال ؛ وأخذ يدور بها في الحجرة في فرح وهو يقول :

– سنسود العالم .. سنصبح أثرى أثرياء العالم ؛ كل كنوز الشرق ستمر من بين أصابعنا ؛ سيسعى الأباطرة والملوك إلى استرضائنا .. أين إلهامي باشا ؟ .. أين هذا الملاك الصغير ؟ .. عودي إليه .. لا تتركيه لحظة .. ينبغي ألا تتركيه لحظة ..

– إنه ملقى في الحجرة وسط بركة من القئ !

– بل وسط بركة من الذهب .. بركة من الماس !

وتركها و اندفع إلى حيث تركت إلهامي ؛ فرأى تابعه يحمله إلى أريكة ويرقده فوقها ؛ فصاح به :

– ماذا جرى ؟ هل أسرف في الخمر ؟

– يبدو هذا ..

– إذن ؛ احمله إلى فراشي .. هيا .. احمله معي ..

وحملا إلهامي النائم إلى غرفة النوم فمدداه على السرير ؛ وجلس علي بك إلى جانبه يحرسه ؛ بينما صاح بوليفار :

– لوليتا .. لوليتا .. !

فأقبلت لوليتا ولا يزال الملف الأحمر بين يديها ؛ فقال لها :

– ضعي هذا الملف في غرفتك وأحضري منشفة مبللة بالماء

و عندما عادت لوليتا بالمنشفة وضعها على رأس إلهامي ؛ ثم جلس قائلاً :

– سيفيق بعد قليل .. إنه دوار الخمر .. ماذا حدث بينكما يا لوليتا ؟

فقالت لوليتا وهي لاتزال ترتجف من الغضب :

– لقد أسرف الليلة في مزاحه السخيف .. تصور ! .. لقد اتهمني بأنني حاولت دس السم له .. ثم أمر علي بك بقتلي .. !

فضحك بوليفار قائلاً :

– كان يمزح طبعاً .. أو أزعجك هذا المزاح ؟

– إنه مزاح قاتل ! .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن يد علي بك أغمدت الخنجر في صدري قبل أن يعلن أنه كان مزاح ؟ أو أن علي بك في انفعاله وتهيجه لم يسمع ما قال ؟!

وأغمضت عينيها في رعب ؛ وأغرق بوليفار في الضحك .. ولكن علي بك لم يضحك .. كان يبدو على وجهه إعياء لا حد له ..وفي عينيه نظرة بائسة حزينة .. ونظر إلى لوليتا لحظة ثم قال :

– لم أكن لأقتلك أبداً يا آنسة .. لقد كنت واثقاً من أول لحظة أنه يمزح ؛ ولكنني كنت مضطراً للمضي معه في مزاحه إلى النهاية !

وصمت لحظة مطرقاً ؛ ثم رفع راسه إليها وقال وفي صوته مرارة وقعت موقعاً غريباً في اذنيها :

–فلتحمدي الله يآنسة على أن إلهامي باشا لم يرث عن أبيه إلا نصف جنونه ؛ فهو يعرف متى وأين يقف بمزاحه عند حد .. أما أبوه سمو الوالي .. !

وصمت .. ولكن النظرة التي بدت في عينيه أغنت عن كل تفسير ! .. فتبادل بوليفار ولوليتا نظرة تعجب ؛ وسأل بوليفار :

– عباس باشا طائش أيضاً ؟

– طائش ؟

وابتسم في مرارة :

– إنه سفاح .. سفاح مجنون يا سيدي .. نحن رجال الحاشية نعيش في رعب دائم .. أنت لا تستطيع أن تتصور الرعب الذي يسود حياتنا ونحن نعيش ليل نهار مع هذا السفاح ! .. إن أي إنسان سوي مثلك ومثلي ومثل الآنسة يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويشم بأنفه ويلمس بأصابعه ويفكر بعقله ؛ ولكن سمو الوالي عباس باشا قد استغنى عن كل هذه الحواس وألغاها إلغاءً ؛ وأحل مكانها شيئاً واحداً هو السوط ! .. إنه يرى بسوطه ويسمع بصوته ويشم بصوته ويلمس بسوطه ويفكر بسوطه .. تصور يا سيدي إنساناً يترك السوط يفكر له ؛ ثم تصور بلداً يحكمه هذا الإنسان !

و أخذ بوليفار يتصور فعلاً ؛ ويحاول أن يدمج في الصورة التي يرسمها علي بك صورة لقناة تحفر في هذا البلد .. طولها مائة وعشرون كيلومتراً ؛ وتجري وسط صحراءٍ يرتد البصر حسيراً عن آمادها ؛ وتغطيها طبقاتٌ من الرمال المتحركة المنهارة ؛ وتبرز فوقها كتلٌ من الظهور العارية ؛ تلفحها الشمس وتلهبها سياط هذا الوالي ؛ فتنحني بالفؤوس تضرب بها الصخر الصلد فتفتته ؛ وتدك الرمل المنهار أمام الماء الدافق لينطلق في مجراه ؛ وفوق هذا الماء تجري مئات السفن حاملة كنوز الشرق وثرواته ؛ وهو – بوليفار– يقف عند مدخل المجرى ؛ يحصل من كل سفينة رسماً لا يقل عن عشرة في المائة ؛ بل عشرين في المائة ؛ من هذه الكنوز ! أية ثروة سيجمع ؟ .. و أي بذخ سيعيش فيه ؟ .. وفوق ذلك سيكون سيد العالم ؛ ملوك الدنيا وأباطرتها يتملقونه ويتوددون إليه ليفتح قناته أمام سفنهم ؛ ولا يحول بين خزائنهم وكنوز الشرق التي لا تنفد ..

وفي زاوية بعيدة من هذه الصورة جلس سمو الوالي إلهامي باشا مخموراً يترنح ؛ في يسراه كأس قدمتها له لوليتا ؛ وفي يمناه سوط يلهب به الظهور العارية ..

وأفاق من تصوراته على صوت إلهامي يتحرك في فراشه ويئن أنيناً خافتاً .. ورأى علي بك يسرع ليكون في خدمته ؛ فقفز قفزة واحدة جعلته أمام الفراش ؛ وأزاح بيده الضخمة جسد علي بك بعيداً ؛ وانحنى فوق إلهامي بوجه يسيل رقة وعذوبة وسأله :

– مولاي .. أأنت بخير ؟

و نظر إلهامي في وجهه بعينين غائمتين ثم همس :

– علي بك !

وعاد علي بك يحاول أن ينفذ إلى مولاه ؛ ولكن بوليفار مد من جسده طولاً وعرضاً ليكون ستاراً بين إلهامي وبين أي وجه آخر سوى وجهه هو ..

(5) اقتحام بيت لطيف واختفائه بحيلة بارعة

كان الهجوم الذي تعرض له لطيف بك في تلك الحارة المظلمة من حواري الآستانة مفاجئاً له وغير مفاجئ في نفس الوقت ؛ فقد كان يتوقع بعد أن أوهم الجاسوسة في قصر الأميرة نازلي بأنه خبأ رسالتها إلى سعيد باشا في طربوشه أن يسرق هذا الطربوش .. وكانت السرقة كما تصورها يمكن أن تتم في بيته ؛ أو تتم في حارة مظلمة أثناء سيره .. ولذلك لم يفاجأ عندما خرج عليه أولئك الرجال الثلاثة من أحشاء الظلام وهاجموه ؛ فحسب أنهم سيخطفون طربوشه ؛ واعتزم ألا يبدي أية مقاومة ؛ ولكن المفاجأة التي أذهلته حقاً أنه لمح أحدهم يرفع خنجره ليغمده في صدره .. إذن فالأوامر التي لديهم كانت تقضي باغتياله ؛ ولما لم يكن ثمة ما يبرر استسلامه للقتل فقد راغ من طعنة الخنجر ؛ ثم ضرب يد الرجل بعصاه ضربة قوية ؛ جعلته يلقي الخنجر على الأرض وهو يصرخ من الألم .. وقبل أن يفيق الباقون من أثر مقاومته المفاجئة كان قد انطلق يجري في الحارة المظلمة معتمداً على ساقيه ؛ اللتين زادهما قوةً إدراكُهُ أن حياته معلقةٌ بسرعتهما في العدو .. وبدا له أن خصومه لا يقلون عنه سرعة ؛ فإن المسافة بينه وبينهم لم تنقص قط خلال الدقائق التي انقضت منذ بأت المطاردة .. وشعر بأن أنفاسه بدأت تلهث ؛ وقوته بدأت تتناقص ؛ وخشي أن يدركوه قبل أن يصل إلى منطقة مضيئة آهلة بالسكان ؛ فما كاد يلمح شبحين يقفان في الظلام حتى صاح مستنجداً بهما .. وقد أنقذاه وصحباه حتى شارع آمن ؛ ليكشف له الضوء أن أحد منقذيه هو ابن عباس باشا الذي يسهم في التآمر ضده .. وقد أثارت هذه الحقيقة فيه نزعة السخرية ؛ فهل يتصور إلهامي باشا أن تابعه قتل أحد رجال أبيه ؟! .. وهل يتصور رجال عباس باشا أن منقذه من أيديهم هو ابن من أرادوا قتله لحسابه ؟!

دنيا عجيبة و قدر ساخر بغير شك !

أين الصواب وأين الخطأ ؟ .. لا أحد يعرف على التحقيق ! .. وواهمون جميعاً أولئك الذين يؤمنون بأن هناك خطأ مطلقاً وصواباً مطلقاً ؛ وأنهم مع الصواب ضد الخطأ ؛ فلا خطأ إلا ما اعترض رغباتك ؛ ولا صواب إلا ما أدى إليها .. هذه هي الحقيقة المطلقة ؛ بل إنها الشئ الوحيد المطلق في هذه الحياة ؛ وكل ما عداها نسبي ؛ وأبطال أولئك الذين يؤمنون بها ويعيشون طبقاً لقانونها .. إنهم هم الذين يسودون ؛ وهم الذين يسيطرون .. وهو سعيد لأنه منهم ؛ فكل شئ في هذه الحياة نسبي عنده : الشرف نسبي ؛ والحق نسبي ؛ والعدل نسبي ؛ فكلها يقاس دائماً إلى رغباته ؛ وكل ما يحققها شرف وخير وعدل ؛ وكل ما يعرقلها خسة وشر وظلم .. ولهذا سوف يسود ؛ وسوف يسيطر .. ولقد أتيحت له الفرصة بهذه المهمة التي كلفته بها الأميرة نازلي .. سوف يسافر إلى مصر ويستقر فيها ؛ وسوف يتخذ من تلك الرسالة الهامة التي يحملها إلى سعيد باشا وسيلة إلى الاتصال به والعمل في خدمته ؛ وعندما يتولى سعيد حكم مصر سيكون هو الرجل الثاني في هذا البلد الذي لا تنقطع فيه المؤامرات ؛ بل سيكون هو الرجل الأول ؛ فلا شك في أنه قادر على أن يضع سعيد باشا بين أصابعه يوجهه كما يشاء ..

وتنبه من هذه الآمال التي استغرقته إلى حقيقة غابت عنه ؛ فهؤلاء الذين حاولوا اغتياله الليلة لن يترددوا في تكرار محاولتهم .. لقد أصبح بالنسبة إليهم – خصوصاً والطربوش لا يزال فوق رأسه – شخصاً غير مرغوب في استمراره على ظهر الأرض .. ولا شك في أنهم سيسعون وراءه في الأماكن التي اعتاد أن يغشاها ؛ وبيته أول هذه الأماكن .. وعندما يعود أولئك القتلة المأجورون ليخبروا من استأجرهم بأنه قد نجا من طعناتهم ؛ فلن يتردد في أن يرسلهم أو يرسل غيرهم ليعيدوا الكرة في بيته .. ولهذا ينبغي عليه ألا يعود إلى البيت الليلة ..

ولكن .. أين يقضي الليل ؟ كان من الممكن أن يذهب إلى أحد الخانات فيستأجر غرفة يقيم فيها حتى يركب السفينة إلى مصر ؛ ولكنه لا يملك أجر المبيت في جيبه ؛ فقد حرص – توقعاً منه لأن يتعرض للسطو – على أن يخرج خالي الوفاض .. وها هو ذا الآن لا يستطيع العودة إلى بيته ليأخذ ما يحتاج إليه من مال حتى يبيت في أحد الخانات .. وهو أيضاً لا يستطيع أن يظل سائراً في الشوارع طوال الليل ؛ فلن يخلو الأمر من وجود أحد جواسيس عباس في أي من هذه الشوارع .. آهٍ لو يستطيع أن يتسلل إلى بيته ! إنه لا يحتاج إلا إلى دقائق قليلة يخرج خلالها بعض الدنانير من المخبأ الخفي الذي أودع فيه ما أخذه من الأميرة

ولكن لماذا لا يستطيع أن يتسلل إلى البيت ؟ .. إنه يستطيع بغير شك ؛ بل ويستطيع أن يدخل بيته آمناً مطمئناً لمدة نصف ساعة أو ساعة .. إن من استأجر أولئك الرجال لاغتياله يعتقد الآن أنه قد اغتيل فعلاً ؛ فإن أولئك الرجال لم يتسع الوقت لهم بعد للعودة إليه وإخطاره بفشل المحاولة ؛ وحتى لو كانوا قد تمكنوا من إخطاره فإن الوقت لا يتسع قطعاً أمامه ليدبر المحاولة

الثانية ؛ ويعد العدة لمهاجمته في بيته .. إنه آمن على نفسه لمدة ساعة أخرى أو نصف ساعة على الأقل ؛ وهو لا يحتاج إلى أكثر من هذا الوقت ليأتي بالنقود وبكل ما يحتاج إليه في اختفائه .. فليسرع إذن إلى البيت ..

وانطلق في خطو سريع – لا يخلو من اعتداد مرح بذكائه – إلى الحارة القذرة التي يسكن فيها منذ قل دخله بعد مصرع مصطفى باشا .. وعندما اقترب من بيته تحولت حواسه كلها إلى عينين تخترقان الظلام ؛ وإلى أذنين تتسمعان الصمت ؛ ولكنه لم ير ولم يسمع ما يريبه ؛ ففتح باب البيت على عجل وأغلقه محكما أغلاقه بخفة ؛ ثم أسرع إلى الحجرة التي أخفى فيها المال فأزاح أريكة قديمة عن موضعها بجوار الحائط فانكشفت عن فجوة صغيرة مد أصابعه خلالها فجذب كيس نقوده ؛ وخطر له أنه قد يضطر لأسباب مفاجئة إلى أن يمتنع عن هذا البيت وله فيه أوراق تهمه وبعض ثياب لا تزال لها قيمة عنده ؛ فشرع يجمع كل ذلك ليأخذه معه إلى غير رجعة .. كان يعلم أنه في سباق زمني مع أعدائه ؛ فأتم عمله في سرعه ووضع كل شيء في حقيبة كبيرة ثم غادر البيت إلى الحارة المظلمة وعادت حواسه مرة أخرى تتحول كلها إلى عينين تخترقان الظلام وإلى أذنين تتسمعان الصمت ؛ ولكنه هذه المرة رأى ما يريبه ؛ ففي ظلال البيت المقابل ربض شبحان يرقبان حركاته ؛ إذاً فقد وصل أعداؤه في وقت أقصر مما قدر ؛ وأسقط في يده .. كانت معه غدارة تسلح بها بعد تجربه الليلة المفاجئة ؛ ولو هاجمه الرجلان لاستطاع أن يقاتلهما وينتصر ؛ فهو خبير بمثل هذا اللون من القتال ؛ ولكنه واثق من أنهما لن يهاجماه ؛ فليس من المنطق في شيء أن يرسل عدوه رجلين لاغتياله بعد أن فشل ثلاثة رجال في هذه المهمه ؛ هما إذاً هنا ليراقباه ؛ وسوف يتبعانه اينما ذهب ؛ ولن يتيسر له تضليلهما برغم الظلام الذي يربض على شوارع الآستانة ؛ فإن الحقيبة التي يحملها ستعوقه عن المناورات التي يحتاج إليها لهذا التضليل ؛ ولو كان الأمر مجرد عدو للفرار لهان الأمر ؛ ولكنه لا يستطيع أن يعدو كل هذه المسافة إلى الخان فضلاً عن أن تضليل مطارديه قد يضاعف المسافة عدة مرات ؛ ليس أمامه إذاً إلا البيت فهو بعد هذا التطور الجديد قد أصبح أكثر أمناً من الطريق ومن الخان الذي سيتبعانه إليه ؛ وفي بيته على أية حال يستطيع أن يفعل كل ما يستطيع للدفاع عن نفسه ؛ واستدار على عقبيه ودخل بيته وأحكم إغلاق الباب مرةً أخرى ؛ ثم صعد إلى حجرته وألقى بالحقيبه على الأرض وأسرع إلى النافذة يرقب الرجلين ؛ فوجد أحدهما يغادر مكمنه ثم ينطلق فيما يشبه العدو مبتعداً ؛ بينما بقي الآخر رابضاً في ظلال البيت المقابل ؛ لقد بقي واحد ليحرسه ؛ وذهب الأخير ليخبر الباقين بعثورهم عليه ؛ فاتكأ على النافذة ؛ وشرع يفكر ..

بعد منتصف الليل صدر صوت خافت من النافذة ينم على أن رجلا يحاول رفع مزلاجها ؛ ويبدو أن الرجل كان مدربا على مثل هذا العمل ؛ أو أن النافذة لم تكن محكمه الإغلاق ؛ فقد رفع المزلاج ثم رفعت النافذة نفسها دون أن يصدر عنها إلا صوت خافت لا يكاد يسمع ؛ وتسلل منها إلى داخل الحجرة ستة رجال يكتمون أنفاسهم حتى لا تشي بوجودهم ؛ وساروا على أطراف أصابعهم نحو السرير ؛ وبدا لعيونهم جسم لطيف بك ممددا تحت الغطاء جامدا بلا حراك ؛ فاطمأنوا إلى أن نومه لم يؤرقه

اقتحامهم حجرته ؛ فاستلوا خناجرهم وقفزوا فوق الجسم الممدد أمامهم يطعنونه بلا رحمة ؛ ولم يصدر عن الضحية أي صوت ؛ بل كان الصوت الوحيد الذي سمع في الحجرة هو صوت أحدهم يصيح في دهشة :

– هذا ليس رجلا .. إنه وسادة ! ..

– وسادة .. !

ورفعوا الخناجر في أيديهم تتدلى من أسنانها ندف من القطن القذر .. هي وساده حقاً ؛ والتقت عيونهم في الضوء الخافت الذي ينبعث من مصباح معلق على الحائط ؛ وكان في عيونهم جميعا سؤال : أين ذهبت الضحية ؟ .. ولم يجد واحد منهم إجابة في عيني أي من الآخرين ؛ فجمدوا في أماكنهم ذاهلين .. ما دامت وسادة تلك الممدده على الفراش فلطيف بك كان يتوقع قدومهم من غير شك ؛ فهل فر ؟ .. أو أنه مختبئ في مكان ما في الحجرة ؟ .. ودارت عيونهم تفحص في سرعة كل ركن من أركان الحجرة .. لم يكن فيها بعد السرير سوى أريكة قديمة وخزانة ثياب مرآتها صدئه تعكس عنهم أشكالا باهته .. على أن خزانه الثياب يمكن أن تكون مخبأ ؛ فاندفعوا إليها وجذبوا بابها فانفتح لتبدو خلفه بعض الثياب الرثه ليس غير .. فتركوا الخزانة واندفعوا إلى الأريكة يجذبونها بعيدا عن الجدار ؛ وقد صدق حدسهم فوجدوا مخبأ ولكنه صغير لا يسمح بأن تختبئ فيه قطة فوقفوا حيارى لحظة ؛ ثم انتبه رجل منهم يبدو أنه زعيمهم إلى السرير .. إن لطيف بك ليس فوقه ؛ ولكن ليس ما يمنع من أن يكون تحته ؛ فرفع أستار السرير المدلاة حتى الأرض ؛ وانحنى ينظر ؛ ولكنه اعتدل مسرعا في يأس ؛ فلم يكن تحت السرير إلا قبقاب قديم .. إن لطيف بك غير موجود في الحجرة ؛ فهل يكون مختبئا في البيت ؟ .. وأصدر أمرا سريعا لرجاله فتفرقوا في الحجرات ليعودوا جميعاً بعد لحظات قصيرة معلنين أن الحجرات كلها خالية حتى من الأثاث .. لابد أنه هرب ؛ ولكن كيف يمكن أن يهرب والرجل الذي كان يتولى مراقبة البيت لم يره يغادره منذ عاد بالحقيبة ؟ .. ومرة أخرى جذب الأريكة بعيدا عن الجدران ؛ وانحنى يفحص المخبأ الذي لا يتسع لقطة ؛ ألا يمكن أن يكون هناك سرداب خفي – وما أكثر السراديب في بيوت الآستانة – يفتح عن طريق هذا المخبا ؛ ومد يده داخل المخبأ الصغير ؛ وأخذت أصابعه تدور فيه بحثاً عن حلقة ؛ ولكنها اصطدمت بشيء لين ناعم الملمس ؛ فأخرجه ليجده طربوشا .. إن الأوامر التي لديه تقضي باغتيال لطيف بك ؛ وإحضار طربوشه ؛ ولكن لطيف بك قد استطاع الفرار بطريقة لا يعرفها ؛ ويبدو أنه لن يعرفها ؛ والطربوش الذي لبسه في فراره قد لا يكون هو المقصود ؛ بل ربما كان المقصود هو هذا الطربوش المخبأ ؛ فمن البديهي وقد وقعت محاوله لاغتياله ثم اشتم رائحة محاولة ثانية جعلته يلوذ بالفرار أن يخبئ الطربوش مثار الصراع ويلبس طربوشا آخر لا أهمية له ؛ وقد وقع هذا الطربوش في يده فليكتف به غنيمة في تلك الليله وليعد هو ورجاله قبل أن يتنبه الجيران إلى اقتحامهم البيت فتتعقد الأمور ؛ وهكذا أشار إلى

رجاله أن يتبعوه ؛ وغادروا البيت متسللين كما دخلوا .. ولم يكد الباب يغلق خلفهم حتى ظهر لطيف بك من تحت السرير وهو يبتسم في ارتياح ؛ لقد نجحت حيلته ؛ ونجاحها يرجع إلى بساطتها .. لقد كان واثقا من أنهم سيفتشون كل شيء في الحجرة بحثا عنه وسينظرون فوق السرير ؛ ثم ينظرون تحت السرير ؛ ولكنهم لن ينظروا أبداً في الفراغ بين السرير والأرض ؛ وسريره على حقارته مرتفع عن الأرض ذراعين ونصف ذراع ؛ فربط أربعة حبال متينة ؛ وإن كانت رفيعة ما بين فخذتي السرير ونام فوقها ؛ الحاشية فوقه ؛ وبين الأرض وبينه فراغ عمقه ذراعان ؛ والأستار مدلاة تحجبه وتحجب عقد الحبال ؛ وأي إنسان يرفع الأستار وينظر لن يتمكن من رؤيته إلا إذا زحف تحت السرير ؛ وكيف يخطر لإنسان أن يزحف تحت السرير وهو لا يرى إلا قبقاباً قديماً كانت الفكرة بسيطةً ولهذا نجحت ؛ وعاد يبتسم في اعتدادٍ وثقةٍ بالنفس ؛ إنه دائماً يعتمد على البساطة ؛ وهذا سر نجاحه ؛ إنه يبتكر في أساليب التجسس والتخفي ؛ ولو أنصف الزمان لكان أستاذاً له تلاميذ .. ! .. واستلقى فوق السرير يحلم يقظان بأمجاد المستقبل ؛ وأسلمه الحلم إلى أحضان نومٍ سعيدٍ .. ..

(6) رسالة ستراتفورد لاستدعاء الهامي ؛ وحضوره اليه

في الحادية عشرة صباحاً كان إلهامي باشا في مكتبه بمجلس وكلاء الدولة يمارس سلطته كإله صغير .. وكانت سهرته الصاخبة الماجنة مع لوليتا قد انعكست عليه في الصباح صداعاً وعبوساً ؛ وسرعة غضب ؛ وإحساساً متضخماً بالأهمية ؛ فأمر ونهى ؛ وعاقب ونفى ؛ وتمتع بما شاء أن يتمتع به من سلطان ؛ حتى وصلت "ذاته البهية" إلى أعلى درجات التأكد ؛ وفي تلك اللحظة تلقى رقعة من السفارة الإنجليزية باستانبول ؛ فتناولها في بطءٍ شديدٍ ؛ وفتحها بأطراف أصابعه ؛ ثم ألقى عليها نظرةً متعاليةً اقتضت منه أن يرفع حاجباً ويخفض الآخر قبل أن يقرأ حرفاً منها ..

وعندما وقعت عيناه على التوقيع في أسفلها ازاد إحساساً بالازدراء لها ؛ فكاتبها ليس السفير نفسه ؛ وإنما هو سكرتير السفارة ؛ على أنه ما كاد يأتي على السطر الوحيد الذي تضمنته حتى هبط حاجبه المرتفع في سرعة وارتعدت يده من الغضب .. كانت الرسالة تقول في إيجاز وقح : **إن سعادة سفير بريطانيا العظمى ينتظره بمكتبه في دار السفارة في الخامسة من مساء اليوم ..**

ولم يكن في حاجة إلى إعادة قراءتها ليدرك أنها ليست إلا استدعاء له لمقابلة السفير لورد ستراتفورد راتكليف .. ومن يكون هذا الاستراتفورد حتى يستدعيه هو .. إبراهيم إلهامي باشا .. الذات البهية التي خلقت لتحكم و تسود ؟! ..

إنه يعلم أن اللورد ستراتفورد شخصية خطيرة ؛ ولكنها خطيرة بين زملائه السفراء لا بين أمثاله من أنصاف الآلهة .. وإذا كان ستراتفورد يلقب بالسلطان ستراتفورد ؛ أو بعيد الكانتج ؛ فذلك راجع إلى ما أولاه عظمة السلطان من عطف أكسبه نفوذاً ؛

فنفوذه وقوته منحة من السلطان لا تجيز له أن يمارس استعلاءه عليه .. على أن الغضب ليس له ما يبرره ؛ فإذا شاء السفير أن يلجأ إلى هذا الأسلوب في التعالي فإنه أقدر منه عليه وأكثر إتقاناً له .. إنه سيعرف كيف يذل كبرياءه ويوقفه عند الحد الذي لا ينبغي له أن يتجاوزه .. وأمسك بالقلم وهمَّ بأن يكتب رداً ؛ ولكنه عدل عن ذلك ؛ وأمر أحد صغار موظفيه بأن يكتب باسمه هو – مبالغة في الإذلال – رداً على هذه الرسالة الوقحة ؛ يقول فيه إن صاحب السعادة إبراهيم باشا إلهامي ليس لديه وقت فراغ لمقابلة السفير اليوم .. وإنه سيحدد له فيما بعد موعداً لاستقباله ..

وبعد أن اطمأن إلى أن رسالته أرسلت ؛ وقدر أنها قد وصلت لستراتفورد ؛ وربما شرع يقرأها الآن ؛ جلس يتخيل ملتذاً منظره وهو يقرأها .. لاشك أن وجهه الأحمر ازداد حمرة من الغضب ؛ وأن عينيه الزرقاوين التهبتا من الغيظ ؛ وأن يديه ترتعدان ولا تقويان على إمساك الرسالة .. ولابد أنه حائر كيف يرد هذه اللطمة القاسية لكبريائه .. ؟ إنه ؛ مهما فكر وقدر ودبر ؛ عاجز بغير شك عن أن يرد الإهانة .. ولاشك في أنه يقدر أن اية خطوة عداء يخطوها نحوه ستجعل بقاءه في البلاد أمراً غير مرغوب فيه ! .. فالسلطان الأعظم لن يرضى بأن يستظل بسماء الآستانة رجل يقدم على إهانة صهره وابن والي مصر !!

و أحس إلهامي بعد هذه المرحلة من التصورات أنه يشعر بشئ من الأسى لعجز ستارتفورد .. ولكنه سرعان ما تخلى عن هذا الشعور ؛ فهو الذي بدأ خطة الشر ؛ وما أصابه الآن من هزيمة – قد تقضي على مستقبله السياسي – حصاد زرع غرسه بيديه ؛ وينبغي أن يكون هذا درساً له يعلمه هو و غيره من السفراء أن ذاته البهية قدس لا يمس ومحراب لا يوطأ ..

ووجد إلهامي في نفسه رغبة عنيفة في أن يتكلم ويحكي ما حدث بينه وبين ستراتفورد .. كان يود أن يجد أحداً يشاركه الإحساس بالزهو لهذا النصر الذي أحرزه على السفير .. ولم يشأ القدر أن يخذله في تحقيق هذه الرغبة ؛ فقد جاء درويش باشا ليزروه في تلك اللحظة .. ودرويش باشا رجل خطير المنزلة ؛ شغل منصب الصدر الأعظم أكثر من مرة ؛ وكانت تربطه بأبيه وببعض أمراء أسرة محمد علي صداقة انعكست على مشاعره نحو إبراهيم إلهامي ؛ وكان إلهامي يحس بحب الرجل إياه ؛ وكان يجد في شيخوخته الهادئة الصريحة واحة يتخفف عندها من كثير من المشاعر والأفكار التي تقتضي حياة بلاط السلطان أن يكتمها ..

ولم يصبر إلهامي حتى يفرغ درويش باشا من شرب القهوة التي قدمت إليه ؛ فقال ضاحكاً :

– أرأيت يا صاحب الدولة إلى سذاجة ستراتفورد وغبائه ؟

فتوقفت يد درويش باشا بفنجان القهوة قبل أن يبلغ به شفتيه وسأل :

– السلطان ستراتفورد ؟

– أجل .. لقد أراد أن يهينني فرددت له الإهانة في شدة وعنف ..

فوضع درويش باشا فنجان القهوة على الصينية ؛ واعتدل في جلسته وقال في قلق :

– هل .. هل تشاجرتما ؟

فضحك إلهامي في سخرية وقال :

– وهل تعتقد يا صاحب الدولة أنني أتشاجر مع مثله .. قل إنني أدبته فقط

فقام درويش باشا واقفاً وقد بدا على وجهه المجمد ذعر شديد وقال في اضطراب :

– أستأذن يا باشا في الانصراف

وبهت إلهامي .. ماذا دهى الشيخ ؟ .. وما هذا الذعر الذي كسا وجهه ؟ .. إنه لم يشرب حتى فنجان القهوة الذي قدمه إليه .

– ماذا حدث يا صاحب الدولة ؟

– لا شئ .. لا شئ يا باشا .. وإنما أريد أن أنصرف ..

واتجه مسرعاً نحو الباب ؛ فقام إلهامي خلفه وأمسك ذراعه قائلاً في حدة :

– لابد أن أفهم .. إن سلوكك غير طبيعي ! .. لماذا ترفض أن تشرب قهوتي ؟

وحاول درويش باشا أن ينتزع ذراعه من قبضة إلهامي ؛ ولكن شيخوخته لم تسعفه بالقوة التي تخلصه من قبضة إلهامي الفتية ؛ فقال في ذعر :

– أرجوك يا ولدي .. أنا لم أسئ إليك قط ؛ فلا تتسبب في إحراجي .. دعني أذهب من هنا .. دعني ! ..

– لابد أن أعرف السبب أولاً ..

– السبب ؟

– أجل .. لماذا تفر من أمامي كأنني مصاب بالطاعون ..

– يا ولدي .. أرجوك .. دعني أخرج من هنا .. لا أريد أن يراني أحد معك .. إنك بذلك تقضي على مستقبلي ..

– لماذا ؟ .. لماذا يا دولة الباشا ؟

– أنت الآن تعادي عبد الكاننج ! ..

– وماذا في ذلك ؟

– كل من يتصل بك سيعتبر عدو لعبد الكاننج .. وأنا يا ولدي لست كفئاً لعداوته ..

وأحس إلهامي بخنق شديد ؛ وتقلصت قبضته على ذراع الشيخ حتى كادت تحطم عظامها ؛ فتأوه درويش باشا متألماً ؛ ونظر إلى إلهامي في تضرع ؛ وقرأ إلهامي في عينيه خوفاً ورعباً شديدين ؛ فتخلى عن ذراعه في ازدراءٍ وهو يقول :

– جبان ! ..

ولم يبال الصدر الأعظم السابق بالإهانة ؛ وإنما انطلق نحو الباب وهو يردد في ألمٍ :

– عفا الله عنك يا ولدي .. عفا الله عنك !

وظل إلهامي يحدق في إثره حتى وصل إلى الباب ومد يده إلى المقبض يفتحه ؛ وبدا عليه شئ من التردد لحظة ؛ ثم استدار نحو إلهامي ينظر إليه نظرة طويلة ؛ ورأى إلهامي في وجهه عطفاً وإشفاقاً كبيرين ؛ كان ينظر إليه نظرته إلى عزيز لديه سيشيعونه إلى مقره الأخير ؛ واستشاط إلهامي غضباً ؛ وصاح به في تحدٍ :

– سوف ترى ماذا سأفعل بستراتفورد هذا الذي يملأ قلبك بالرعب .. ! .. ستسمع عنه قريباً .. ! ..

ولم يبد على درويش باشا أنه سمع هذا التهديد ؛ وقال بشفتين مرتعدتين :

– يا ولدي .. أبوك صديقي ؛ وأنت مني بمنزلة ابني ؛ ولهذا أنصحك بأن تسترضي عبد الكاننج ؛ اذهب إلى مولانا السلطان واطلب منه أن يشفع لك لديه .. وادع الله أن يقبل عبد الكاننج رجاءه ..

فصاح إلهامي في غضبٍ :

– اخرج .. !

فقال درويش باشا وهو يفتح الباب :

– حسن .. حسن .. افعل ما بدا لك

وخرج مسرعاً ..

ووقف إلهامي وسط الحجرة يتميز من الغيظ .. ماذا يكون هذا الستراتفورد حتى يبث كل هذا الذعر في نفس رجل شغل منصب الصدر الأعظم أكثر من مرة ؟ .. أية قوة تلك التي تسنده ؟ وأحس إلهامي بدماء الغضب في رأسه .. مهما كانت قوته ؛ ومهما أشاع حوله جواً من الرعب ؛ فهو قادر على أن يذله ويؤدبه ؛ حتى لو اقتضى الأمر أن .. ..

وقطع عليه تفكيرَه صوتُ حاجبه يعلن :

– سعادة اللورد ستراتفورد راتكليف سفير بريطانيا العظمى

ورفع إلهامي عينيه في دهشة إلى الباب ؛ وهناك رأى السفير ينحني في أدب مغلقاً الباب خلفه ..

وقف إلهامي يرقب في ذهول هذا الرجل العملاق ذا الوجه الأحمر الضخم والعينين الزرقاوين الباهتتين ؛ وهو يتقدم نحوه قائلاً في ابتسامة رقيقة :

– جئت يا باشا أقدم إليك اعتذاري عن خطأ سخيف وقع فيه أحد موظفي السفارة

وازدادت دهشة إلهامي حتى كاد ينسى غضبه ؛ ومد ستراتفورد كفاً طويلةَ الأصابع وهو يقول :

– أمرت بأن ترسل إليك دعوة لتناول الشاي معي ؛ ولكن الموظف أخطأ فهم الأمر ؛ فكانت هذه الرسالة المؤسفة ..

وحدق إلهامي في اليد الممدودة لمصافحته ؛ تظاهرها ابتسامة عذبة ولهجة رقيقة متوددة ؛ وتنبه إلى أنه لم يمد يده ليصافح السفير ؛ فأسرع يهز بكفه الغليظة أصابعه الطويلة ؛ ويقول في لهجة متلعثمة :

– آه ..! .. حسن .. مرحباً بك .. ! تفضل .. !

وتفضل ستراتفورد ؛ فجلس ووضع ساقاً على ساقٍ ؛ وأشعل غليونه ؛ ثم قال بعد أن نفث منه نفثة :

– خطأ سخيف طبعاً هذا الذي حدث .. وقد أمرت بعقاب الموظف المسؤل .. أرجو أن يزول استياؤك ..

ولم يكن إلهامي بالغبي الذي يصدق هذه القصة المختلقة عن خطأ الموظف الذي يقلب دعوة الشاي أمر استدعاء .. ولكنه لم يكن يملك – أمام ابتسامة السفير ومبالغته في الاعتذار – أن يعبر عن رأيه بصراحة .. ومهما يكن من أمر فاعتذار السفير قد أنهى الخلاف ؛ وهو لم يكن يطمع في أكثر من هذا ؛ فقال :

– لنعتبر الموضوع منتهياً عند هذا الحد يا صاحب السعادة ..

ونفث السفير نفسا آخر من غليونه وقال :

– تماماً .. لنعتبره منتهياً عند هذا الحد ؛ فهذا ما تقضي به مصلحة بلدينا المشتركة ..

– الحق معك .. مصلحة بلدينا المشتركة يزول أمامها كل خلاف ..

– يسرني أن يكون هذا رأيك يا باشا .. فهذا يطمئنني على أن حضرة صاحب السمو والدك قد استمع لنصيحة قنصلنا في مصر مستر مري (1) ؛ فزودك بتعليمات خاصة بمراعاة مصلحة بلدينا المشتركة ..

(1) Mister (Mr.) Murray .. .. .. Mr. John Murray

ولم يشعر إلهامي بأن الحديث قد بدأ يتجه اتجاهاً آخر غير اتجاه الاعتذار الذي بدأ به ؛ فقال :

– تماماً يا صاحب السعادة .. لقد زودني سمو والدي العظيم بتعليمات خاصة بهذا الموضوع ..

– إذن من حقي أن أعتب عليك يا باشا تلك الطريقة التي رددت بها على دعوتي .. فأقل ما توصف به أنها لا تدل على مراعاة ما ينبغي أن يكون بين بلدينا من صداقة وعلاقات طيبة ..

فارتبك إلهامي قليلاً ؛ وبدأ يشعر بأن ستراتفورد يطالبه بتقديم اعتذار عن العنف الذي اتسمت به رسالته إليه .. ولم يكن ينوي قطعاً أن يقدم هذا الاعتذار ؛ ويكفيه مساهمة في المحاغظة على العلاقة الطيبة بين بلديهما أنه قبل اعتذار ستراتفورد ؛ و اعتبر الموضوع منتهياً .. ولكن ستراتفورد فيما يبدو كان مصراً على أن يسمع منه اعتذاراً .. فمضى يقول وابتسامته تتوارى بين سحب الدخان المنبعثة من غليونه :

– أليس في ردك علي يا باشا إهمالاً لعلاقات الصداقة التي أمرك حضرة صاحب السمو والدك بمراعاتها .. ؟

فقال إلهامي وقد بدأ يشعر بالتحدي :

– حسن .. لست البادئ على أية حال .. وتعليمات سمو أبي المعظم لم تتناول السكوت على الإهانة ..

فضحك السفير ضحكة جلجت في القاعة الواسعة وقال :

– الحق معك .. الحق معك يا باشا .. ولكنني أوضحت لك أن هذه الرسالة كانت خطأ .. مجرد خطأ وليست إهانة ..

– لم أكن أعلم أنها خطأ .. فاعتبرتها .. .. ..

– حسن .. حسن .. لنترك هذا الموضوع السخيف ..

وأحس إلهامي بأنه انتصر عليه مرة أخرى عندما اضطره إلى التراجع عن طلب الاعتذار .. وصمت ستراتفورد لحظة ثم قال :

– على أية حال ؛ يسعدني أن اجدد تلك الدعوة لتناول الشاي معي في الخامسة من مساء اليوم ..

وتردد إلهامي ؛ فلم يكن قلبه قد خلص تماماً للسفير حتى يقبل دعوته ؛ على أن رفض الدعوة من ناحية أخرى يعد مخالفة لتعليمات والده التي ذكره السفير بها بطريقة حادة ؛ خصوصاً بعد أن قدم له اعتذاراً واضحاً عن الرسالة الوقحة التي أثارت كل هذه الضجة ؛ فقال :

– حسن يا صاحب السعادة .. يشرفني أن أقبل دعوتك ..

فنهض السفير واقفاً ومد كفه ذات الأصابع الطويلة مصافحاً وهو يقول :

– إلى الخامسة مساء إذن ..!

وقام إلهامي يودعه إلى الباب ؛ وفجأة وقف ستراتفورد وربت على كتف إلهامي وسأله باسماً :

– بهذه المناسبة .. كيف حال لوليتا الفاتنة ؟

وجمد إلهامي مأخوذاً ؛ فلم يكن يتوقع أن يسأله ستراتفورد هذا السؤال ؛ بل لم يتوقع أن يكون ستراتفورد على علم بالعلاقة التي تربطه بلوليتا ؛ و تلعثم قائلاً :

– لوليتا .. لوليتا ..!

فضحك السفير و اتجه نحو الباب قائلاً :

– حسن .. لنرجئ الحديث عنها حتى نلتقي في الخامسة ؛ فهناك بعض الحقائق الهامة المتصلة بها يسعدني أن أناقشها معك ..

وغادر القاعة الواسعة تاركاً إلهامي وقد زلزلته هذه المفاجأة ؛ وجعلته يحس – ربما للمرة الأولى منذ اقتنع بانه ذات بهية – بأنه يواجه أمراً لا تكفي الإيماءة الخفيفة ولا الكلمة المبتسرة لحله ؛ فقد تركه ستراتفورد ؛ بعد أن ألقى بهذا السؤال عن لوليتا ؛ مضطرباً ؛ خائفاً ؛ يضرب في مَهَامِهِ الظنون والفروض إلى غير نهاية ؛ ولا يجد خيطاً واحداً يرشده إلى ما يخبئه له ستراتفورد في الساعة الخامسة ..

وقد أثارت أمامه أسئلة كثيرة : (1) كيف عرف ستراتفورد علاقته بلوليتا ؛ رغم سياج السرية الذي يحيط به هذه العلاقة ؟ .. إنه يعرف أن ستراتفورد يسيطر على جهاز تجسس كفء تتحدث الآستانة كلها عن براعته في تقصي الأسرار واستقاء المعلومات وسرقة الوثائق والتلصص على الأحاديث الخاصة .. ولكن الجواسيس مهما كانت كفايتهم لا يرجمون بالغيب ولا يضربون الرمل ؛ بل لابد لهم من مصادر يستقون منها أخبارهم .. (2) فمن هو المصدر الذي كشف لستراتفورد أمر لوليتا ؟ (3) وهل كشفها لغير ستراتفود ؟ (4) هل تعرف الآستانة كلها أن ذاته البهية داعرة فاسقة تغرق في الخمر والجنس طول الليل ؟ (5) وماذا يكون موقفه أمام الناس – العبيد – الذين يملك أقدارهم بين يديه ويتحكم في مصائرهم بكلمة تخرج من بين شفتيه ؟ (6) أي هزؤ و أية سخرية تلك التي تطل من عيونهم وهم يتطلعون إلى ذاته البهية ؟

ولكن هذه الأسئلة كلها سرعان ما توارت خلف سؤال هام تنبه إليه ؛ لقد قال له ستراتفورد : "بهذه المناسبة .. كيف حال لوليتا الفاتنة؟" فأية مناسبة تلك التي إليها يقصد ؟ لم تكن بينهما إلا مناسبة واحدة هي صراع الكبرياء الذي نشب بينهما حول حق ستراتفورد في استدعائه لمقابلته ؛ وإذا كان ذلك كذلك ؛ فستراتفورد بربطه بين لوليتا وهذا الصراع إنما يقصد تهديده بإفشاء أمر علاقتهما إن لم يخضع لرغباته ويستجيب لأوامره .. إنه يستغل علاقته بلوليتا ليسيطر عليه ويبث في نفسه الرعب منه ؛ فهل يخضع لتهديده ؟ هل يترك قلبه يرتجف ذعراً لمجرد ذكر اسمه ؛ شأنه في ذلك شأن درويش باشا ؛ و غيره من عظماء الآستانة وساستها ؟

و أخذ يستعرض موقفه إذا ما لجأ ستراتفورد لتهديده بالفضيحة : هناك ثلاث جهات يهمه ألا تعرف بأمر هذه العلاقة ؛ أولها : أبوه عباس باشا ؛ فهو قد أرسله إلى الآستانة ممثلاً له ؛ سمعته من سمعته ؛ وكرامته من كرامته ؛ ولن يغفر له أبداً إهداره هذه السمعة وإزراءه بهذه الكرامة ؛ وهو يعرف أباه تمام المعرفة ؛ إنه لن يتردد في جلده بالسوط ؛ بل قد يطرده من مصر ويشرده في إحدى بلاد أوروبا – فهو لا يجسر أن يعود إلى الآستانة – حيث يقضي حياته منفياً مجرداً من كل سلطة .. وثاني هذه الجهات

السلطان عبد المجيد ؛ فهو بالنسبة إليه ليس موظفاً وحاكماً في السلطة فحسب ؛ بل إنه زوج ابنته ؛ وهو يعرف معنى غضب السلطان عبد المجيد ؛ فقاع البسفور هو المقر المألوف لكل من يغضب عليهم السلطان عبد المجيد ..

وثالث هذه الجهات – وبدا له هذا غريباً لأول وهلة – هي الجماهير .. جماهير العبيد ؛ أولئك الذين يملك أقدارهم ويتحكم في مصائرهم ؛ فقد أحس بأن ذاته البهية لن تحتمل بسمة ساخرة على شفاهم ؛ أو نظرة هازئة في عيونهم ؛ إنه يستطيع حقاً أن يرغمهم على احترامه ؛ فهناك السوط ؛ وهناك السجون ؛ بل هناك قاع البسفور ؛ ولكن لجوءه إلى هذه الوسائل ليحتفظ باحترامهم له وتقديسهم إياه يعني أنه فقد تلك الصفات التي كانت كفيلةً بأن تجعل منه إلهاً لو لم يكن بشراً .. إنه حينئذٍ سيكون حاكماً بالوراثة لا بالتميز ؛ واحترام العبيد له وتقديسهم إياه لن يكونا صادقين ؛ بل إنهما سيكونان خوفاً ورهبة ظاهرهما الاحترام والتقديس .. والخوف والرهبة يزرعان في نفوس العبيد الحقد والكراهية ويئدان الولاء والطاعة .. وعندئذٍ لن تصرف الأمور بإيماءة خفيفة من رأسه ولا بكلمة مبتسرة من شفتيه ؛ بل سيضطر إلى إبدالهما بالسوط والجلاد .. فهل تحكم الآلهة بالسياط شأنها في ذلك شأن أولئك الذين يرثون الحكم ؟

وبدا له هذا شيئاً يثير القلق ؛ هي مشكلة لا يرى لها حلاً واضحاً ؛ مشكلة محيرة بغير شك ؛ فهل استطاع ستراتفورد حقاً أن يخضعه ويذله ؟ .. هل تمكن عن طريق لوليتا من أن يجعل منه درويش باشا آخر ؟ .. هو .. الذات البهية التي خلقت لتحكم وتسود ؛ يستطيع هذا السفير أن يجعل منها ألعوبة في يده يتحكم فيها ويوجهها كيف شاء ؟ .. وبأي سلاح ؟ .. باستغلال نزوة من نزوات الشباب انزلق إليها في لحظة ضعف ؟

وأحس بالغضب على نفسه .. فهو المخطئ لا ستراتفورد ؛ هو الذي هيأ له تلك الفرصة وأمده بالسلاح الذي يذله به .. وطبيعي أن يتمكن منه ؛ فهو – في لحظات ضعفه واستسلامه لغرائزه – ليس ذاتاً بهية .. إنه يحس بعد أن يشرب الخمر ويستسلم لذراعي لوليتا بأنه قد فقد تلك القوة التي كانت تجعل منه ذاتاً بهية ؛ يحس بذلك عندما ينتبه إلى أنه يخضع وقتها إلى أصوات خفية تهيب به أن امرح ؛ وامزح ؛ وحطم ؛ ودمر .. إنه ليس ذاتاً بهية في تلك الساعة .. إنه حيوان بهيمي حقير فقد كل صفات التميز التي تؤهله ليتحكم في البشر .. بل إنه يصبح وقتها في درجة أدنى وأحط من البشر ؛ وهذه هي الشخصية التي تغلب عليها ستراتفورد ؛ لقد أعجزه أن يذله وهو ذات بهية ؛ فنفذ إليه وهو حيوان ؛ وها هو ذا يتهدده في ذاته بضعفه في حيوانيته ؛ فهل يستطيع ؟ .. هل يمكن أن تمتد آثار ساعة الضعف إلى ساعات القوة ؟ .. إن ستراتفورد يسعى إلى أن يحقق هذا ؛ ولكن هل يسمح له ؟ .. هل يرض بأن تتحول ذاته البهية إلى عبد من عبيد ستراتفورد ؟ .. لا ؛ فهو قوي .. ألم يقل للوليتا

أمس إنه لو لم يكن بشراً لكان إلهاً ؟ إن فيه صفات ترفعه عن مستوى البشر .. وإن كان لم يدرك طبيعة هذه الصفات حتى الآن إلا أنه واثق من أنها صفات قوة لا ضعف و تميز لا انحطاط ..

وكان غضبه على نفسه وانصرافه إلى تحليل موقفه قد أبعد عنه لحظات قليلة أشباح المخاوف والأوهام التي كانت تشتت نفسه ؛ فأتاحت هذه اللحظات لعقله أن يصفو ؛ ولفكره أن ينتظم ؛ ولنفسه أن تتماسك ؛ و كأن تفكيره في أنه قوي ؛ وأنه ذات ؛ وأنه يتمتع بصفات تميزه عن البشر قد أنعش روحه ؛ فأحس بأنه قوي فعلاً ؛ وأنه قادر على أن يتحدى ستراتفورد ويتغلب على هذا التهديد بالفضيحة الذي يسلطه على عقله .. فأخذ يستعرض مرة أخرى تلك الأخطار التي تتهدده إذا فضح ستراتفورد سر لوليتا : إنها أبوه والسلطان والجماهير .. أبوه سيطرده ؛ والسلطان سيغضب عليه ؛ والجماهير مخيفة رهيبة لا قبل له بمجابهتها .. أما الآن وقد استعاد ثقته بنفسه وصفاء عقله ؛ فقد بدت له أهون بكثير مما قدر ؛ إنه قوي ؛ فما حاجته إلى حماية أبيه وإلى رضا السلطان وإلى احترام الجماهير ؟ .. هل صفاته التي جعلت منه ذاتاً بهيةً مستمدة من بنوته لوالي مصر ؛ ومن مصاهرته لسلطان الدولة العلية ؟ .. أم أنها صفات مستمدة من ذاته وما ألقي بين يديه من سلطة وحكم جاء نتيجة لوجود هذه الصفات فيه ؟

هذا هو السؤال ؛ وعلى إجابته عنه يتوقف خوفه من ستراتفورد أو تحديه وتهديداته ..

وكان قد فكر في هذا السؤال عرضاً عندما أسندت إليه عضوية مجلس وكلاء الدولة ؛ واقتنع حينئذٍ بأنه متميز بنفسه لا ببنوته لوال أو مصاهرته لسلطان .. وكان دليله الذي أقنعه – باستثناء تملق مرءوسيه – أن الدولة العلية حافلة بالولاة وأبناء الولاة وبأصهار لهذا السلطان وللسلطان السابق ؛ ومع هذا فلم تسند لواحد منهم وظائف عليا مثل تلك التي أسندت إليه ؛ بل إنهم كثيراً ما يتعرضون للعزل والاضطهاد الذي قد يصل إلى الاغتيال .. ومن هنا آمن – مؤيدا بغرور المراهقة – بأنه إنما ساد بذاته وحكم بصفاته .. ولم يصادفه طوال هذه الفترة تحدٍ يجعله يعيد النظر في تقديره لقيمة ذاته البهية ؛ وكان أول تحدٍ من هذا اللون هو هذا التهديد الذي لوح به ستراتفورد في وجهه ؛ فاضطرب وجزع ؛ وأوشك إيمانه بالتميز أن ينهار .. ومن هنا كان في حاجة إلى دليل جديد يدعم هذا الإيمان ويقويه ؛ وقد وجد هذا الدليل في جده الأعلى محمد علي باشا الذي لم يكن ابناً لوالٍ ولا صهراً لسلطان .. بل كان تاجراً صغيراً في "قولة" ؛ ولكنه كان قد خلق ليحكم ؛ خلق ليكون إلهاً لولا أنه بشر ؛ ولهذا ترك التجارة وانضم إلى الجيش .. وقد سمع فيما يروى عن جده أنه دخل مصر ضابطاً صغيراً يقود مائة من الألبانيين ضمن فرقة كبيرة منهم يقودها من يدعى طاهر باشا .. وطاهر باشا فيما يقال قد عين والياً على مصر ؛ ولكن ذات جده المتميزة كانت موجودة تنتظر هذا المنصب الذي خلقت له ؛ فعزلت طاهر باشا وأخذت منه الولاية .. وأدركت الجماهير العبيد أن محمد علي

ذات متميزة برأها الله لتحكمهم ؛ فأيدوها وناصروها ضد كل حاكم بالوراثة أو بالرشوة حتى استقر لها حكم مصر .. وتميز ذات محمد علي لم يكن يؤهلها لتحكم مصر فحسب ؛ بل لتحكم ما هو أكثر من ذلك بكثير ؛ فحكمت السودان والحجاز وسوريا أيضاً ؛ ولم تتوقف إلا عندما اصطدمت بذات أخرى تماثلها في التميز ؛ هي ذات السلطان الشاهانية .. فهل ارتفع جده من تاجر صغير إلى حاكم كبير إلا لأنه ذات متميزة وهبت صفات الحكم والسيادة ؟ .. إن جده يقدم له الدليل الذي يدعم إيمانه بنفسه ؛ ويرسم له الطريق التي ينبغي أن يسلكها في مواجهة ستراتفورد .. إنه ليس في حاجة إلى حماية أبيه ؛ ولا إلى رضاء السلطان ؛ ولا إلى احترام الجماهير ؛ إنه هو .. هو .. الذات المتفردة المتميزة التي لا تستند إلى الغير .. وستراتفورد في إقدامه على تحديه يظنه ذاتاً بالبنوة والمصاهرة .. ولهذا يريد أن يستذله باسغلال خوفه من أبيه ومن السلطان ؛ ولكنه مخطئ .. فسوف يقف في وجه أبيه إن عارضه ؛ ولن يبالي بالسلطان إن غضب عليه ؛ وهو قادر – وينبغي أن يكون قادراً – على أن يواجههما .. فلينفه أبوه ؛ وليعزله السلطان وليطرده ؛ لقد عزل جده الأعلى مرتين ؛ فهل أفلح في القضاء عليه ؟ .. فليعزله إذن .. وليحاول أن يغتاله أيضاً ؛ فهو قادر بذاته على الدفاع عن نفسه .. ليبدأ من الصفر كما بدأ جده ؛ وسوف يصل إلى الذروة التي عزلوه منها ؛ ولكنه سيصل هذه المرة بنفسه ؛ وعندئذٍ .. الويل لستراتفورد ولدولته ؟؟

(7) لطيف يقابل عزيزة في مكتب رئيس الشرطة

استيقظ لطيف بك في الصباح نشيطاً بعد أن نام نوماً عميقاً إثر الأحداث العنيفة التي مرت به في الليل ..

وكان أول ما فعله بعد يقظته أن أدار مقبض عصاه وكشف عن التجويف الذي فيها ليطمئن على أن رسالة الأميرة نازلي إلى أخيها محمد سعيد باشا في مكانها .. وبعد أن ألقى عليها نظرة تنبه إلى سخف ما يفعل ؛ فالرسالة في مكانها كما ينبغي أن تكون ؛ ولن تغادر مكانها في العصا إلا إلى محمد سعيد باشا ؛ هو واثق من ذلك ؛ وما مر به من أحداث يؤيد هذه الثقة و يزيدها .. فقد أثبت أنه أشد ذكاءً من أعدائه – أو أعداء الأميرة نازلي بتعبير أدق – إذ استطاع أن يطلقهم خلف رسالة زائفة ؛ لا شك في أنهم يتجمعون الآن حولها ليقرأوها للمرة المائة ؛ محاولين أن يكتشفوا وراء سطورها البريئة شفرة سرية أو تعليمات أو تعليمات خفية من الأميرة إلى أخيها .. وهو واثق أيضاً من أنهم سيظلون في محاولتهم استقراء الرسالة حتى يصيبهم اليأس فيرسلوا بها إلى من يعملون لحسابه .. ربما إلى عباس باشا أو السفير الإنجليزي أو إلى السلطان نفسه ؛ فهو لا يدري .. وهم في انشغالهم بفك طلاسم هذه الرسالة الزائفة إنما يهيئون له الفرصة ليسافر إلى مصر ويسلم الرسالة الحقيقية إلى صاحبها ..

وكانت استعدادته للسفر قد أوشكت على أن تتم ؛ ففي استطاعته أن يبدأ رحلته في الغد .. لم يبق له إذن في الآستانة – حيث تطلب حياته – إلا أربع و عشرون ساعة ؛ يستطيع أن يقضيها في بيته حيث لا يتوقع أعداؤه أن يعود إليه بعد توهمهم فراره في

الليلة السابقة .. فبيته الآن خير مخبأ يأمن فيه شر المطاردة والاغتيال .. إلا أن عليه أن يخرج ساعة أو بعض ساعة ليتم بعض الإجراءات الحكومية التي لا يستطيع السفر دونها ؛ فقد شدد السلطان عبد المجيد أخيراً على سفر رعاياه إلى الخارج حتى ولو كانوا مسافرين إلى ولاية عثمانية .. ولم يكن يخشى أن تعطل السلطات سفره ؛ فهو يعرف كيف يذلل أمثال هذه الصعوبات مادام كيسه ممتلئاً بالذهب .. إن رنين الذهب قادر في الآستانة على أن يحطم أوامر السلطان نفسه .. عليه إذن أن يغادر بيته لإتمام هذه الإجراءات ثم يعود إليه .. وليس ثمة خوف من أن يحاول أعداؤه مهاجمته في وضح النهار ؛ وأقصى ما يستطيعون هو أن يتبعوه ليعرفوا مقره ؛ وهو قادر ولا شك على تضليلهم عند عودته ..

ومن ثم ارتدى ثيابه ؛ ووضع على رأسه طربوشاً جديداً غير ذلك الذي أخذه مهاجموه في الليل ؛ ثم غادر منزله يطوح بعصاه إلى أمام وإلى خلف ؛ ويدور بعينيه عند كل منحنى بحثاً عمن يمكن أن يكون متتبعاً خطاه ؛ وعندما اطمأن إلى أن احداً لا يقتفي أثره ؛ اتجه إلى مكاتب رجال الأمن حيث ينبغي أن يحصل منهم على تصريح بالسفر ..

ولقد صح ما توقعه ؛ فقد بدأت محاولات العرقلة منذ أول موظف دخل إليه ؛ وبدأت النقود تسيل من كيسه في كل خطوة فتقضي على هذه المحاولات ؛ حتى استخرج التصريح المراد ؛ وبقي أن يوقعه من الرئيس الأعلى لإدارة الأمن ؛ وكانت تربطه به معرفة عمادها الرشوة ؛ فاتجه إلى حجرته مطمئناً واثقاً ؛ وفتح الباب ودخل ؛ وقد وضع ابتسامة على وجهه ووضع يده على كيس نقوده ؛ ولكنه ما كاد يخطو داخل الغرفة حتى فوجئ بصوت يصيح به في دهشة :

– من ؟ .. لطيف بك ..! هذا غير معقول .. !

واتجه لطيف بك بنظراته نحو مصدر الصوت ؛ فرأى صديقاً قديماً له هو عزيز بك ؛ كانت صلتهما قد انقطعت منذ أغتيل مصطفى باشا ؛ واضطر لطيف بك إلى الاختفاء .. وهب عزيز بك واقفاً في حرارة وعانق لطيف بك في شوق ؛ وعاد يقول :

– يا لها من مفاجأة .. ! .. لطيف بك على قيد الحياة .. ؟! .. أخي لطيف بك ظهر من جديد .. !

وقال لطيف بك وهو يبادله العناق والترحيب :

– أين أنت يا رجل ؟ .. أهذه هي الأخوة ؟ .. ألا تسأل عني كل هذه الشهور .. ؟

– يا عزيزي .. أينا يعتب على الآخر ؟ أنت تعرف مقري بينما أنا لا أعرف أين كنت مختفياً .. كان واجبك أن تسأل أنت عني

– على أية حال .. هذه مفاجأة سارة لي ؛ فإنني مسافر غداً ..

– مسافر ؟ ..

قالها عزيز بك في استنكار :

– أنا لم أكد أعثر عليك يا رجل .. ابق معي يوماً أو يومين على الأقل ..

– العمل .. العمل يا عزيزي ..

– ليرجأ العمل يوماً يا أخي .. إنني مشتاق إليك .. حقاً إنني مشتاق ..

فقال لطيف بك وهو يتقدم ليحي رئيس إدارة الشرطة :

– وأنا والله مشتاق .. ولكن السفر ضرورة ..

وقدم التصريح إلى رئيس الشرطة قائلاً :

– ينقصه توقيعك يا سيدي

وتناول رئيس الشرطة الورقة وجرى فوقها بعينيه ثم قال :

– أنت تعرف يا لطيف بك أن السفر في هذه الأيام أمر لا تشجعه السلطات ..

– ولكنني مسافر لعمل يا سيدي .. ولا أحسب السلطات محتاجة إلى بقائي في الآستانة

– ومن يدريني .. ؟ ربما كان هناك اعتراض على سفرك ؟

فابتسم لطيف بك وغمز بعينه إلى عزيز بك الذي قال وهو يغادر الغرفة :

– إن عملي مع رئيس الشرطة قد انتهى على أية حال ؛ وسأنتظرك في الخارج يا لطيف

وبعد أن انفرد لطيف برئيس الشرطة دس في يده شيئاً أزال اعتراضاته السابقة فوقع التصريح متمنياً له رحلة طيبة .. وسرعان ما لحق بعزيز بك الذي كان ينتظره في خارج الغرفة ..

كانت تربطهما صداقة قديمة ؛ وقد عملا معاً أكثر من مرة وحققا نجاحاً كبيراً بتعاونهما .. وكان عزيز يختلف عن لطيف في أساليبه وإن كان لا يقل عنه ذكاءً وقسوةً ؛ فبينما كان لطيف يفضل الحركة السريعة والخدعة الماكرة ؛ كان عزيز يحسن التفكير الهادئ الطويل ؛ ويلجأ في حل أعقد مشكلاته إلى السم .. وقد اشتهر بإتقانه تحضير السموم المختلفة أنواعاً وأثراً ؛ فسموم تقتل في الحال ؛ وسموم تقتل في بطءٍ ؛ وسموم تخلط بالقهوة ؛ وغيرها يخلط بالخمر ؛ وسموم تشم مدسوسة في ورود ؛ وأخرى تصل إلى الدم عندما تنغرس أشواك الورود في الأصابع ؛ وقال لطيف ضاحكاً :

– كيف حال سمومك ؟

فضحك عزيز ووضع ذراعه في ذراع لطيف قائلاً :

– لا تزال في خدمتك .. ! .. أتريد أن تتخلص من أحد يضايقك ؟

– ليتني أعرفه

وكانا قد خرجا إلى الطريق ؛ فقال عزيز :

– لماذا لا تتغدي معي .. ؟

– ولكنني مسافر غداً كما أخبرتك

– هذا أدعى إلى قبول دعوتي ؛ فلنقض معاً بضع ساعات قبل سفرك

ودارت عينا لطيف في الشارع باحثةً عن أي شئ يثير الاشتباه في أنه مراقب ؛ فلما اطمأن قال ضاحكاً :

– حسن .. والحق أنني في شوق إلى سماع أحدث أخبار سمومك

وجذبه عزيز من ذراعه وهو يضحك قائلاً :

– وأنا في شوق إلى سماع أخبار هذا العدو الذي لا تعرفه

وانطلقا معاً في الطريق إلى بيت عزيز بك ..

** ** **

أمضى الصديقان القديمان الوقت يتحدثان عن ذكرياتهما المشتركة في الجاسوسية ؛ وقد قص لطيف بك على عزيز كل ما مر به منذ اغتال السلطان عبد المجيد راعيه مصطفى باشا ؛ وكان عزيز يقاطع لطيف كلما ورد ذكر أيام البؤس والفاقة التي مرت به قائلاً :

– يا أخي .. لماذا لم تحاول الاتصال بي ؟ كان في استطاعتي أن أساعدك

وكان لطيف يرد على صديقه مقدراً إخلاصه مقرراً أنه حرص على الابتعاد عن طريقه متعمداً حتى لا يثير عليه غضب السلطان ورجاله ..

وعندما انتهى لطيف بك من سرد قصة اختفائه حتى نال الأمان من رجال السلطان تردد قليلاً في أن يحكي لعزيز قصة عمله الأخير في خدمة الأميرة نازلي ؛ فهو على ثقته التامة في عزيز ومع اطمئنانه إلى كتمانه الأسرار ؛ لم يجد مبرراً لإطلاعه على هذا الجزء من قصته ؛ فالمغامرة لم تنته بعد ؛ ولم تتكشف له كل جوانبها ؛ وليس من الحكمة أن يطلع عليها أحداً ؛ حتى لو كان صديقاً قديماً وفياً مثل عزيز بك ..

ولاحظ لطيف أن عزيز يعيش في رغد لم يكن يحيط به في تلك الأيام التي عرفه فيها ؛ فسأله ضاحكاً :

– يبدو أن سمومك تدر عليك ربحاً كثيراً .. !

فأغرق عزيز في الضحك وقال :

– سأحدثك فيما بعد عن السر وراء هذا الرغد الذي أعيش فيه ؛ ولكنني متشوق الآن إلى سماع أخبارك ..

فقال لطيف :

– لم يعد لدي ما أقصه عليك ؛ فقد توسط بعضهم لدى السلطان فعفا عني ؛ وها أنا ذا أعود إلى ظهر الأرض ..

– ولكنك لم تحدثني عن العمل الذي تقوم به الآن .. !

– آه .. العمل الجديد ؟

وصمت متردداً ؛ ولاحظ عزيز تردده فقال :

– يبدو أنه عمل هام و ربحه كثير ؛ فالجاسوس منا لا يسافر إلا وراء الصفقات المجزية ؛ أليس كذلك ؟

– تماماً .. تماماً

وعاد إلى التردد ؛ فقال عزيز وهو يضحك :

– حسن .. يبدو أنك تريد أن تحتفظ بعملك الجديد سراً .. فليكن ما تريد ؛ هذا أفضل على أية حال ؛ فالإنسان لا يطمئن إلى ما يأتي به الغد ..

ونهض واقفاً ووضع يده على كتف لطيف مداعباً :

– فلترجئ حكايته حتى تنتهي منه .. أيها الثعلب الحريص .. !

وأحس لطيف بالخجل ؛ فلم يسبق له أن أخفى سراً عن عزيز ؛ ولم يسبق لعزيز أن أخفى سراً عنه ؛ بل إنهما كثيراً ما كانا يتبادلان المساعدة .. وإذا كانت المهمة التي كلفته بها الأميرة نازلي لا تحتاج في أدائها إلى مساعدة عزيز ؛ فإن هذا لا يعني أن يقف منه هذا الموقف المخجل ؛ ولماذا لا يطلعه على سره ؟ .. بل إنه بإشراكه عزيز في التفصيلات يؤمن المستقبل إلى حد ما ؛ فربما كان عزيز مطلعاً – أو قد يطلع في المستقبل – على أمر يتصل بالصراع بين الأميرة نازلي وابن أخيها عباس باشا ؛ فيمده به ويعينه على أداء مهمته ؛ فابتسم قائلاً :

– أنا لا أريد إخفاء عملي الجديد عنك ؛ ولكنك لم تصبر حتى أطلعك عليه ..

فضحك عزيز وقال :

– كلا .. لترجئ ذلك حتى تنتهي منه ..

– ولماذا ؟ سأطلعك عليه الآن .. !

فسار عزيز إلى باب الغرفة ضاحكاً وهو يقول :

– إذن .. لترجئه حتى تنتهي من تناول الغداء على الأقل .. !

ووقف عند الباب منادياً على خادمه ليسرع في إعداد الطعام .. وسرعان ما أقبل الخادم يحمل صينية كبيرة صفت عليها الأطباق الشهية ؛ ووضعها على الخوان بينهما .. ونظر لطيف بك إلى الطعام الشهي تفوح منه روائح الشواء والمتبلات التي تسيل اللعاب ؛ فضحك قائلاً :

– إن مهارتك في إعداد الطعام لا تقل عن مهارتك في إعداد السموم ..

فضحك عزيز بك ؛ وكور لقمة كبيرة في فمه ثم قال :

– تفضل ؟ .. أم تحب أن آتيك بأحدث مكتشفاتي في السموم لتفتح شهيتك ؟

وضحك الصديقان وأقبلا على تناول الطعام في شراهة ؛ فلما فرغا أتاهما الخادم بالطست والإبريق فغسلا أيديهما ؛ ثم اضطجع كل منهما في مقعده وأخذا يدخنان ؛ وقال عزيز :

– تستطيع الآن أن تكشف لي سر عملك الجديد ؛ فربما شاركتك فيه إذا أعجبني ..

فقال لطيف ضاحكاً :

– إنه لا يحتاج إلى مشاركة حتى هذه المرحلة ؛ ولكن .. ربما أرسلت إليك في المستقبل أدعوك إلى مصر ..

– مصر ؟ ..

وجذب نفساً من شبكه ثم نفخه في الهواء ومضى يتتبع حلقات دخانه وهو يتبدد ؛ وقال لطيف :

– أجل ؛ فأنا مسافر غداً إلى مصر أحمل رسالة من الأميرة نازل إلى أخيها محمد سعيد باشا ولي العد ..

فاعتدل عزيز بك في مقعده وانحنى باهتمام وهو يقول :

– أنت تعمل ضد عباش باشا ؟ هذه أخبار مثيرة .. !

– مثيرة جداً .. والدليل على ذلك أنني تعرضت للاغتيال مرتين مساء أمس .. !

فصاح عزيز بك :

– يا للعنة .. ! مرتين .. ؟

– أجل .. مرتين .. !

– قُصَّ عليَّ التفصيلات أيها الشيطان ؛ فقد أثرت تشوقي ..

وبدأ لطيف بك يحكي كل ما مر به منذ استدعته نازلي هانم إلى مقابلتها ؛ وكيف اكتشف أن وصيفتها تتجسس عليه فخدعها برسالة زائفة فيها أشواق وسلام خبأها في الطربوش أمامها ؛ وكيف دس الرسالة الحقيقية في مقبض عصاه ..

وقال عزيز بك وهو ينظر إليه في إعجابٍ :

– عليك اللعنة .. ! .. إنك ثعلب خبيث .. إذن فهم يجرون الآن خلف طربوشك بينما الرسالة الحقيقية في هذه العصا .. !

فضحك لطيف قائلاً :

– لقد حصلوا على الطربوش فعلاً ؛ إنهم الآن مشغولون بالرسالة الزائفة

ثم أخذ يقص عليه تفصيلات المحاولتين اللتين وقعتا لاغتياله ؛ وعندما وصف له كيف كانوا يقلبون البيت بحثاً عنه وهو معلق بين السرير والأرض ؛ أغرق عزيز بك في الضحك حتى دمعت عيناه ؛ ثم قاطعه قائلاً وهو يقف :

– انتظر .. انتظر لعنك الله .. بطني تؤلمني من كثرة الضحك .. !

ثم اتجه إلى باب الحجرة قائلاً :

– أعتقد أننا الآن في حاجة إلى قدحين من القهوة .. أليس كذلك ؟

وأوما لطيف برأسه موافقاً ؛ فقال عزيز :

خادمي لسوء الحظ لا يتقن صنع القهوة رغم أنه يتقن صنع الطعام ؛ ولذلك أفضل أن اصنعها بنفسي ..

وغادر الحجرة ضاحكاً وأغلق الباب خلفه ..

واستلقى لطيف بك في مقعده وقد أحس بالانتعاش بعد هذه الجلسة الممتعة مع صديقه ؛ وحمد الظروف التي ساقت عزيز إلى مكتب رئيس الشرطة ليلتقيا هناك ؛ وبدلاً من أن يقضي اليوم وحيداً في بيته أتيح له أن يقضي ساعات ممتعة في صحبته ..

وانقضت فترة من الوقت ولم يعد عزيز ؛ فقام يدور في الحجة يتسلى بمشاهدة أثاثها الجديد الفاخر ؛ ورأى منضدة صغيرة مطعمة بالعاج لم يكن هو أو عزيز يحلم بامتلاك مثلها في يوم من الأيام ؛ فأخذ يتحسسها وهو يتعجب من سر هذا الثراء الذي هبط على عزيز هذه الأيام .. وفتح درجاً صغيراً في أعلى المنضدة ؛ وأخذ ينقر بأصابعه على حافته محاولاً أن يعرف نوع الخشب الذي صنعت منه ؛ ثم أخذت عينه تستعرض ما وضع في الدرج .. زجاجات فارغة لا شك في أنها كانت تحوي سموماً يوماً ما ؛ وفرشاة صغيرة لتنفيض الثياب ؛ **ثم ورقة مطوية** ؛ وخيل إليه أنه رأى هذه الورقة من قبل ؛ فتناولها وفتحها وأخذت عيناه تجريان على السطور القليلة التي تحويها : سمو أخينا البرنس محمد سعيد باشا .. دام في صحة و عز .. أعرفك أنني أتمتع بصحة جيدة ولا ينغص حياتي في الآستانة إلا شوقي الزائد .. .. ما هذا ؟ وهبطت عينه بسرعة إلى التوقيع في أسفل الرسالة فقرأ : أختك البرنسيسة نازلى هانم ..

هي إذن الرسالة الزائفة التي كانت في طربوشه ؛ ووجودها هنا في بيت عزيز بك معناه أن عزيز هو العدو الذي دبر اغتياله أمس .. ووجود عزيز في مكتب رئيس الشرطة اليوم لم يكن مصادفة ..

إذن .. لقد أدرك – بعد أن فر من رجاله أمس – أنه لابد متوجهٌ إلى مكتب رئيس الشرطة ليحصل على التصريح ؛ فانتظره هناك .. وكل هذا الترحيب وهذا الإصرار على تناول الغداء كان فخاً لاستدراجه إلى الإفضاء إليه بالحقيقة .. ولقد سقط – بغباءٍ – في الفخ وقص عليه كل شئ ؛ بل لقد أطلعه على مكان الرسالة الحقيقية ؛ فلم يبق إذن إلا أن يغتاله ويأخذ الرسالة من العصا .. واغتياله هنا سهل ؛ تكفي بضع قطرات من السم توضع في الطعام أو ....

وحدق لطيف بك أمامه في ذعر ؛ أيكون قد دس له السم في طعام الغداء ؟ ولكنه أسرع يستبعد هذه الفكرة ؛ فهو حي لم يمت بعد ؛ ولا يحس في معدته بأية أعراض للسم .. ثم إن عزيز قدم له الغداء قبل أن يعرف التفصيلات التي كان يسعى وراءها .. أجل .. لا شك في أن السم لم يدس في الطعام ؛ فهل يدسه في القهوة ؟ وهل يكون هذا هو السبب في رغبته في أن يصنع القهوة بنفسه ؟

وسمع وقع أقدام تقترب ؛ فأسرع يعيد الرسالة إلى مكانها ؛ ويغلق الدرج ؛ ثم قفز إلى مقعده فاستلقى فيه ؛ وأغمض عينيه متظاهراً بالإغفاء ..

وفتح الباب ؛ ودخل عزيز بك باسماً وبين يديه صينية صغيرة فوقها قدحان من القهوة ..

كان في انتظار إلهامي مفاجأة في قصره لم يكت يتوقعها حين غادر مجلس وكلاء الدولة ؛ فعندما وصل إلى القصر قيل له أن عظمة السلطان الأفخم عبد المجيد خان موجود في انتظاره .. ورغم أنه من المألوف أن يزور جلالة السلطان ابنته في أي وقت يشاء ؛ فلم يسبق أن قام بمثل هذه الزيارة في وقت الظهيرة ؛ فقد جاوزت الساعة الثانية عندما وصل إلهامي إلى القصر ؛ وقيل له أن عظمة السلطان موجود في جناح ابنته منذ نصف ساعة .. وقد وجد إلهامي نفسه يربط بين تهديد ستراتفورد وبين زيارة السلطان .. فهل نفذ ستراتفورد تهديده فأبلغ السلطان بعلاقته الداعرة مع لوليتا ؟ .. وبدا له هذا غير محتمل ؛ فهو لا يتفق مع ما انتهى إليه من رغبة ستراتفورد في استغلال صلته بلوليتا لإذلاله وإخضاعه لرغباته وأوامره ؛ وكشف هذه العلاقة للسلطان يجرد ستراتفورد من أهم سلاح يشهره في وجهه ..

وإذا كان ستراتفورد قد كشف للسلطان قصة لوليتا فلماذا يريد أن يتحدث معه في أمرها في الخامسة مساءً ؟ .. كلا .. لا شك في أن ستراتفورد لم يفش سره للسلطان .. إلا أن نفي العلاقة بين زيارة السلطان المفاجئة وغير الطبيعية وبين تهديد ستراتفورد يضع علامة استفهام كبيرة أمام سر هذه الزيارة .. ولم يكن أمام إلهامي ليجيب على هذه الاستفهام إلا أن يسرع إلى جناح زوجته ليقابل السلطان ..

وقد استقبله عبد المجيد باسماً في حنان ؛ وزادت هذه البسمة الحنون من شكوك إلهامي ؛ فرغم أنه يعرف حب السلطان إياه وعطفه عليه ؛ فإنه يعلم في نفس الوقت الكثير عن طبيعته المتقلبة ؛ ثم إنه أقدر من حملت الأرض على إخفاء ما في نفسه خلف بسمة مهذبة ونظرة بريئة هادئة .. وكم حاول الكثيرون أن يستشفوا من ملامحه شيئاً مما يدور في رأسه أو يجيش في قلبه فعجزوا .. والحق أن السلطان عبد المجيد بملامحه البسيطة وعينيه اللامعتين كان لغزاً يحير من يراه ؛ كان ذكياً مفرط الذكاء بغير شك ؛ وكان قاسياً متحجر القلب أيضاً ؛ ولكنه كان يحسن التظاهر بالسذاجة والغفلة ؛ ويتقن إشاعة جو من الثقة والإطمئنان في نفس جليسه ؛ حتى ولو كان قد أصدر أمره في نفس اللحظة بألا يغادر القصر حياً ..

لهذا لم يشعر إلهامي بالإطمئنان عندما ابتسم له السلطان عبد المجيد ودعاه للجلوس بجانبه في عطف .. فجلس على طرف المقعد في حذر وتأهب ..

ومضى السلطان يتحدث إليه في أمور تتصل بحياته العائلية ؛ وكان في حديثه خير مثال للأب الرحيم بابنته الصغيرة وزوجها الشاب ؛ حتى خيل لإلهامي لحظة أن عبد المجيد السلطان قد توارى ليفسح الطريق أمام عبد المجيد الإنسان ؛ فهدأت أعصابه المتوترة ؛ ونسي ستراتفورد وتهديده ؛ ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلاً ؛ فقد التفت السلطان لابنته قائلاً :

– والآن يا منيرة ؛ أريد أن أتحدث إلى زوجك في أعمال السلطنة ..

فرفعت منيرة إليه وجهاً أقرب في تعبيره إلى وجه طفل ؛ ونظرت إليه نظرة ساذجة ؛ فضحك السلطان وقال و هو يمسح شعرها في حنانٍ :

– أنسيت أنني السلطان وأن زوجك عضو مجلس الوكلاء ؟ اتركينا منفردين لنبحث شئون الحكم ..

فقامت منيرة وغادرت القاعة بعد أن ألقت على زوجها الشاب نظرة حب عميق لم ينتبه إليها إلهامي ؛ الذي كان الاضطراب قد عاد يسيطر عليه ؛ فعاد يجلس على طرف المقعد في حذرٍ و تأهبٍ للهجوم الذي بد على السلطان أنه يوشك أن يوجهه إليه ..

والحق أن السلطان بعد أن شيع ابنته بنظرته الحانية وهي تغادر القاعة ؛ وبعد أن اطمأن إلى أن الباب أغلق خلفها في إحكام ؛ أشار إلى إلهامي ليجلس في مقعد مجاور له ؛ ثم دخل إلى الموضوع رأساً :

– علمت أن خلافاً نشأ اليوم بينك و بين لورد ستراتفورد

فقال إلهامي في حذرٍ :

– أ .. .. لقد سوي هذا الخلاف يا مولاي

– أعلم أنه سوي .. فقد زارك ستراتفورد واعتذر إليك .. ولكن كان من الواجب ألا ينشا هذا الخلاف أصلاً ..

– لا شك في أن من نقل إلى جلالتك كل هذه التفصيلات قد ذكر أنني لم أكن البادئ ..

– بل أنت الذي بدأت .. لقد أرسل إليك ستراتفورد لتقابله ؛ فلماذا رفضت ؟

كان السلطان يتكلم في شئ من الحدة جعلت إلهامي يعجب قليلاً ؛ فها هو ذا لم يطرق موضوع لوليتا بعد ؛ ومع ذلك يحتد ؛ أيكون حرصه على إرضاء ستراتفورد أهم عنده من موضوع لوليتا ؟ .. أم أنه لا يعلم بأمرها بعد ؟

– لماذا رفضت يا إلهامي ؟ ألا تعلم أنك تضعني بذلك في موقف شائك ؟

يبدو أنه لم يعلم بعد بأمر لوليتا ؛ وهذه الزيارة المفاجئة خاصة بستراتفورد وحده ؛ فليطمئن إذن ؛ إن الصراع العنيف الذي هيأ نفسه له لم تهب عواصفه ؛ بل لعلها لم تتجمع ؛ أما مسألة إغضاب ستراتفورد فهي شئ لا أهمية له .. لقد كان ستراتفورد هو المخطئ ؛ وقد اعتذر له ..

– مولاي .. إن اعتذار ستراتفورد لي دليل على أنه هو الذي .....

– إلهامي ..

قاطعه السلطان في ضيق :

– الاعتذار عمل سياسي لتخفيف التوتر الذي خلقته بطيشك ..

– مولاي .. !

قالها إلهامي وقد أحس بالغضب لاتهامه بالطيش ؛ ولكن السلطان عبد المجيد لم يبال بغضبه ؛ ومضى قائلاً :

– يبدو أن ستراتفورد قد قدر صغر سنك واندفاع شبابك ولم يشأ أن يبدأ تعامله معك بقسوةٍ ..

– مولاي . لا دخل لسني الصغيرة في هذا الأمر

– بل لها كل الدخل يا إلهامي .. فقد أراد ستراتفورد أن يقابلك لينصحك حول أمر علاقتك بهذه المرأة الفرنسية

ووجد إلهامي نفسه يقفز من مقعده كالملسوع وهو يهتف :

– لوليتا ؟ !!

لقد دخل السلطان المعركة من حيث لم يكن يتوقع ؛ وألقى عبارته بأسلوب من لا يعنيه هذا الأمر على الإطلاق ؛ فهل هو لا يعنيه حقاً ؟

– أجل .. لوليتا .. كان يريد أن يتحدث معك في شأنها ؛ فأنت توشك أن تورط على يديها في مؤامرة ؛ فهل جزاؤه أن ترفض مقابلته وهو يعمل في سبيل مصلحتك ؟

كان صوت السلطان وهو يتكلم يدوي في أذني إلهامي ويلقي به في دوامة من الأفكار والخواطر تبعده عن كل ما يقول السلطان ؛ فلم تخلف إشارته إلى المؤامرة أثراً في نفسه ؛ كانت أعصابه وخواطره كلها تتجمع حول نقطة واحدة ؛ أن السلطان يعلم ..

– مولاي .. كيف عرفت بأمر لوليتا ؟

– أتحسب أن شيئاً من تصرفاتك يخفى عليَّ أو على أبيك .. إننا نعلم بهذه العلاقة منذ بدأت

– أبي ؟!!

وأطرق إلهامي في خجل ؛ فمضى السلطان يقول :

– لم يكن للأمر أية أهمية ؛ بل كنا نشجعه ؛ فمن الواجب أن يمارس الرجل في صدر شبابه بعض هذه المغامرات النسائية ؛ وكلنا لنا محظيات وعشيقات نتكتم أمرهن عن زوجاتنا وجوارينا .. ولكن علاقتك بهذه المرأة الفرنسية توشك أن تدخل في طور آخر ينبغي ألا نسكت عليه ..

– مولاي .. هل أبي يعلم حقاً ؟

وكان جسدة ينضح عرقاً ..

وأدرك السلطان ما يعانيه ؛ فخف عنه غضبه وزايلته حدته ؛ ونظر إليه باسماً وقد رأى فيه صورة قديمة له عندما كان صبياً صغيراً يشعر بالخجل أمام ابيه من كل ما يتصل بالنساء ؛ فقال :

– إلهامي .. ؟ ألا تصدق أن اباك يعلم بأمر لوليتا ؟ .. لقد تبادلنا الرسائل حول هذا الموضوع ..

وضحك ..

– أتحب أن تعرف تعليقه على سهراتك الحمراء التي تدبر لها في الخفاء ؟

وأغرق في الضحك وهو يرى جسم إلهامي الضخم يتزلزل من الخجل والاضطراب :

– لقد كتب إلي في فخر ! .. الآن .. علمت أن ابني أصبح رجلاً فتياً ..!

ولم يصدق إلهامي أذنيه ؛ ورفع إلى السلطان نظرة حيية ؛ فقال عبد المجيد وهو يربت على ظهره :

– لست أدري يا إلهامي ما الذي يخجلك ؟ ألا تعلم أننا نقيس الرجولة بعدد النساء اللاتي يتخذهن الرجل عشيقات ؟ أتحب أن تعرف كم عشيقة لأبيك ؟

ومرة أخرى لم يصدق إلهامي أذنيه ؛ أبوه .. ذلك الرجل العابس المخيف ذو العينين الكئيبتين ؛ هو أيضاً ؟!!

وعاد السلطان يضحك ويقول :

– ولكن .. لا داعي لأن أفضح الرجل أمام أبيه .. المهم أنه لا معنى لخجلك هذا .. أنت الآن قد دخلت في طور الرجولة الفحلة

– وهل تعلم منيرة هانم أيضاً ؟

فضحك السلطان من هذه النبرة الجزعة التي بدت في صوته وقال :

– لا .. لا .. إلا النساء .. ينبغي ألا تعلم منيرة ؛ خصوصاً وأنتما لا تزالان عروسين جديدين ! ولكن .. دعنا من هذا الموضوع الذي يشعرك بالحرج .. ولنعد إلى موضوع ستراتفورد .. أرأيت كيف أخطأت في رفضك مقابلته ؟ .. على أية حال لقد انتهى هذا الخلاف على خير .. ستقابله في الساعة الخامسة ؛ أليس كذلك ؟ حسن .. أرجو ألا تختلفا مرة أخرى ؛ ضع في تقديرك دائماً أنني لا أريد أن ينشأ أي صدام بينك وبين ستراتفورد .. إنه صديقك .. ثق من هذا يا إلهامي .. ستراتفورد صديق لك ولأبيك ؛ فضلاً عن أنه صديق لي كما تعرف .. هو صديقي وأنت صهري ؛ فلا أحب أن اضطر لتفضيل أحدكما على الآخر .

كان إلهامي قد بدأ يحس بأنه غدا شيئاً آخر يختلف عما كانه قبل هذا التحول في موضوع لوليتا ؛ لقد زال عبء ثقيل عن ظهره فعاد إليه الشعور بالقوة ؛ وإذا كان السلطان وأبوه يعلمان بأمر علاقته بلوليتا فلم يعد في يد ستراتفورد سلاح يذله به ؛ إنه الآن ذات أقوى مما يظن ستراتفورد ؛ ولا يعنيه في شئ ما يبديه السلطان من رغبة في أن يهادن ستراتفورد ؛ ليكن صديقاً للسلطان أو صديقاً لأبيه ؛ ولكنه ليس صديقاً له ؛ وإذا شاء أن يكون صديقه فليذكر دائماً مركزه .. هو الذات البهية إلهامي باشا ؛ أما هو فليس إلا سفيراً ؛ مجرد موظف .. واحد من أولئك العبيد الذين خلقوا ليحكموا ..

– مولاي .. لقد أراد اللورد ستراتفورد أن يذل كبريائي فأرسل يستدعيني لمقابلته ..

– كان ينبغي أن تذهب

– مستحيل يا مولاي .. أنا .. أنا إبراهيم إلهامي باشا

فقاطعه السلطان :

– إنه يستدعي من هم أكبر منك مقاماً وسناً يا إلهامي .. ولا يجرؤ واحد على مخالفته

– مولاي .. لا تقسني بغيري ؟

– المسألة ليست قياساً ولكنها سياسة .. السياسة تقتضي ألا تُغْضِبَ ستراتفورد يا إلهامي .. أتعرف ؟ أنا .. أنا السلطان لن أتردد في الذهاب إليه إذا فكر في استدعائي

– مولاي .. !

قالها إلهامي في استنكارٍ شديدٍ ؛ فلم يكن يظن أن السلطان عبد المجيد يمكن أن يصل إلى هذا الحد في إرضاء ستراتفود ..

– أجل يا إلهامي .. أؤكد لك أنني لن أترفع عن تلبية استدعائه إذا استدعاني

– عفواً يا مولاي .. من يكون ستراتفورد هذا ؟ .. إنه عبد .. عبد مثل غيره من ملايين العبيد الذين يدينون لك بالولاء والخضوع .. هو حقاً ليس عبداً لجلالتك شخصياً .. ولكنه عبد لملكة بلاده .. عبد للملكة فيكتوريا ؛ إنه من طائفة العبيد ..

– ولكنه عبد قوي يا إلهامي .. لا تنس هذه الحقيقة .. هذا زمان القوة .. وأصغر موظف عند ملك قوي يكون أقوى من عشرة ملوك ضعفاء .. ونحن ضعفاء يا إلهامي ..

– نحن يا مولاي ؟

– نعم

– الباب العالي ضعيف ؟

– جداً

– مستحيل يا مولاي .. إنك تحكم ربع العالم

– لا أحكمه بقوتي .. بل بقوة الآخرين

– مولاي .. !

– بل تستطيع أن تقول إنني أحكم ربع العالم لأنني ضعيف

– مولاي .. أنا .. أنا لست افهم .. الحق أنني لا أفهم .. إنني .. .. ..

فقاطعه السطان مبتسماً :

– أنا أعلم أنني بهذا الكلام أحطم أحلامك في عظمة سلطانك ومجد بلادك وقوتها ؛ ولكن تلك هي الحقيقة .. إنني ضعيف يا إلهامي .. أنا .. أنا صاحب الجلالة الشاهانية عبد المجيد خان الذي يمد على السلطنة ظلاً من الرعب لا ينحسر ؛ ويغرقها في فيض من الدم لا يغيض .. أنا .. أنا ضعيف .. وأحتاج إلى من يمسك بيدي حتى لا أنهار ؛ أنا في حاجة إلى قوة أجنبية تسندني لأظل كما أنا .. أحكم ربع العالم ؛ فأبسط جناحاً على أوروبا وجناحاً آخر على آسيا ؛ وأمد مخالبي لتقبض على رأس أفريقيا .. اسمع .. سألقنك درساً في السياسة .. أتعرف ماذا تشبه الدولة العلية الآن ؟ .. إنها ظبي سمين ربراب الفخذين مكتنز اللحم ؛ يقف على شجرة مرتفعة حولها أربعة ذئاب جائعة ؛ هذه الذئاب هي : روسيا و النمسا وفرنسا وإنجلترا .. وقد ربط كل ذئب حبلاً في ساق من سيقان الظبي الأربع ؛ وكل ذئب يجذب الحبل إلى ناحيته ليسقط الظبي ويلتهمه .. فطالما كانت قوى الذئاب متساوية فإن شدة جذبها للحبال الأربعة سوف تتعادل ؛ وهكذا يعجز كل واحد منها عن إسقاط الظبي ناحيته ؛ فالظبي في أمان ؛ لا لأنه قوي ؛ وإنما لأن الذئاب الأربعة هي القوية ؛ ولو تراخى ذئب واحد في جذب الحبل الذي يمسك به ؛ فإن الظبي ساقط لا محالة بين فكي الذئب المقابل له ؛ فمصلحة الظبي إذن هي في أن يشجع كل ذئب على أن يجذب الحبل بقوة مساوية للذئاب الأخرى ؛ وهذا ما أفعله الآن في حكم ربع العالم .. هذه هي سياستي التي أثبتت نجاحها في كل الأزمات .. سأذكر لك بعض الأمثلة لأقنعك .. في سنة 1798 غزا الذئب الفرنسي مصر ؛ فتصدى له الذئب الإنجليزي وحمل عبء مقاتلته معنا حتى خرج من مصر ؛ وفي سنة 1833 عاد الذئب الفرنسي متستراً تحت اسم جدك محمد علي باشا فغزا الشام وكاد يقضي على الباب العالي ؛ فتصدى له الذئب الروسي وأرسل إلينا أسطوله في البسفور وأمدنا بستة آلاف جندي يحمون إستانبول مع قواتنا .. و في سنة 1839 عاد الذئب الفرنسي متستراً تحت اسم جدك مرة ثانية ليغزو إستانبول ويسقط آل عثمان ؛ فتصدى له الذئبان الإنجليزي والنمساوي واستردا منه الشام .. وخلال هذه السنوات التي حكمت فيها حاول الذئب الروسي أكثر من مرة أن يلتهم بلاد البلقان باسم الدفاع عن المسيحية ؛ ولكنني في كل مرة أتركه يواجه الذئبين الإنجليزي والنمساوي وأحياناً الفرنسي .. ولعلك لاحظت أن الذئب الإنجليزي أشد هذه الذئاب دفاعاً عني .. لقد قاتل إخوته الذئاب أكثر من مرة ليحميني منها ؛ وهذا لا يعني أنه غير جائع إلى لحمي ؛ بل هو جائع إليه شأن بقية الذئاب ؛ ولكن السر هو أن الذئب الذي سيتمكن من التهامي سوف يستمد من لحمي ودمي قوة ينقلب بها على الذئاب الأخرى ليفترسها ؛ وهكذا يحرص كل ذئب على أن يحرم الآخر مني .. فأنا فوق الشجرة أكثر فائدة له مني وأنا بين فكي ذئب غيره ؛ وإنجلترا أكثر هذه الذئاب إدراكاً لهذه الحقيقة ؛ فضلاً عن أنها ليست في حاجة ملحة إلى التهامي ؛ فطريقها إلى الهند مكفولة ؛ والبسفور والدردنيل مغلقين في وجه الروس .. فبقائي على الشجرة أضمن لمصالحها مادامت غير واثقة من أنني سأسقط بين فكيها هي .. ولو هددت طريقها إلى الهند أو فتحت المضايق لأسطول نيقولا الروسي لانتفت مصلحتها في بقائي على الشجرة .. ولكانت أول من يعمل على التهامي ؛ ولهذا تراني أحرص دائماً على أن أثبت لها تصميمي على رعاية مصالحها في كل بلاد السلطنة ؛ ولعل هذا ما يفسر لك سر قوة

ستراتفورد ؛ لقد سخر المغفلون من قوته في إستانبول وسموه عبد الكاننج مرة والسلطان ستراتفورد مرة أخرى ؛ ولكنهم مغفلون .. إن الذئب الروسي يوشك أن يقدم على مغامرة لالتهامي ؛ وأنا في حاجة شديدة إلى الذئب الإنجليزي ليدافع عني ؛ وستراتفورد بيده الآن أن يقنع الحكومة الإنجليزية بأن تحارب في صفي .. هل أدركت الآن لماذا أطالبك بأن تحرص على رضاء ستراتفورد ؟ .. إننا نحارب يا إلهامي .. سنحارب خلال شهور قليلة

– سنحارب يا مولاي

– أجل .. وأريد أن تكون جيوش إنجلترا وأساطيلها معي في هذه الحرب ضد نيقولا الروسي ..

– هل سيعلن نيقولا الحرب علينا ؟

– أنا الذي سأعلنها عليه ؛ فإن الذئب الروسي قد اشتدت قوته فأسرف في شد الحبل إلى ناحيته ؛ بل إنه يسعى إلى أن يفسد سياسة الظبي والحبال الأربعة نهائياً .. إنه أذكى مما كنت أقدر ؛ لقد كان أسلافه يتصرفون بغباءٍ ويحاولون أن يلتهموا الظبي وحدهم ؛ وبذلك يتيحون لنا أن نستعين عليهم بالذئاب الأخرى .. أما نيقولا فقد خالف هذه السياسة بعد أن فهم لعبة الحبال الأربعة .. منذ ثلاثين سنة ؛ بل أكثر من ذلك ؛ في سنة 1829 على ما أذكر ؛ كون لجنة من ساسة روسيا لدراسة سياسة القياصرة إزاء تركيا ؛ فاهتدت هذه اللجنة إلى لعبة الحبال الأربعة ؛ واقتنعت و أقنعته بها .. إن لورسيا امتيازات وحقوقاً قديمة في البلقان تكفلها المعاهدات بيننا وبينهم .. والقضاء على تركيا – ذلك الهدف الذي يسعى إليه القياصرة من قديم – سيؤدي إلى نشوء دول بلقانية مستقلة لن تتمكن روسيا من السيطرة عليها ؛ كما أثبتت التجارب في اليونان وفي الصرب مع ميلوش وبروبتوفتش .. فأيهما أضمن لنفوذ روسيا : أن تعيش تركيا التي تربطها بها معاهدات تكفل لها نفوذاً في البلقان ؛ أم أن تفنى تركيا وتستقل دول البلقان متحررة من نفوذ روسيا أو خاضعة لنفوذ النمسا ؟ .. لقد اقتنع نيقولا بأن بقاء الظبي على الشجرة أكثر فائدة له من سقوطه ؛ الذي لا يضمن في أي الأفواه سيكون .. هي سياسة الحبال الأربعة كما ترى ؛ ولكن يبدو أنه ملَّ هذه اللعبة و أراد أن يفسدها بأن تتعاون الذئاب كلها على التهام الظبي بعد أن تتفق على اقتسامه .. ولهذا سأعلن عليه الحرب خلال شهور أو عام على الأكثر .. لقد وصل إلى علمي سر دولي خطير ؛ فقد استدعى نيقولا منذ أيام سفير إنجلترا في موسكو وألقى إليه اقتراحاً طلب نقله إلى لورد إبردين في لندن .. هو اقتراح وقح وإن كان غير جديد علينا .. تركيا رجل مريض للغاية قد يموت بغتة ؛ فالواجب أن يتفقوا منذ الآن على تقسيم تركته .. وهو يقترح أن تتم تسوية بين روسيا وإنجلترا فقط .. إنه يستغل انشغال النمسا بالثورات في إيطاليا ؛ ويستغل وعد نابليون الثالث للفرنسيين بأن الإمبراطورية تعني السلام لهم ؛ إنه ينتهز فرصة انشغال ذئبين من الذئاب الأربعة عن الظبي ليتفق مع الذئب الآخر على التهامي .. هو يقترح أن تستقل دول البلقان

تحت حمايته وأن يحتل إستانبول دون أن يضمها إلى بلاده .. وهذا في مقابل أن تحتل إنجلترا مصر وكريت إذا شاءت .. هذا الاقتراح الوقح يمكن أن تقتنع به إنجلترا فهو في مصلحتها كما ترى ؛ إنه يؤمن لها طريقها إلى الهند دون حاجة إلى الوقوف باستمرار متحفزة للدفاع عن تركيا ؛ وأنا أخشى فعلاً أن توافق إنجلترا نيقولا على مشروعه ؛ خصوصاً وأن صلة من الصداقة القديمة تربط بين لورد إبردين وبين نيقولا ؛ ويمكن أن تؤثر هذه الصداقة على انحيازه إلى تأييد اقتراح نيقولا لدى بلمرستون ؛ ولهذا فأنا في حاجة إلى ستراتفورد .. إنه قوي وتأثيره على بلمرستون كبير .. وأنا قد استطعت أن اقنعه بسياسة الظبي والحبال الأربعة .. واستطعت أن اقنعه بصداقتي له وحرصي على إرضائه .. وإذا كنت سأعلن الحرب على نيقولا فإنني أريده أن يدفع حكومته إلى تأييدي .. ولعلك أدركت الآن معنى قولي إن ستراتفورد صديق لك ولأبيك .. فمصر يا إلهامي جزء من التركة التي يريد نيقولا تقسيمها .. وثق من أن كثيراً من ساسة الإنجليز يشتهون أن يستولوا على مصر ؛ وستراتفورد هو الذي يستطيع أن يقف في وجوههم ؛ إنه يدافع عن استقلال بلدك وعن عرش أبيك .. فهل تضحي بهما لأن كرامتك تأبى أن تلبي أمره حين يستدعيك ؟ ..

كان السلطان عبد المجيد يتكلم في صوتٍ هادئٍ دون أن تفارق شفتيه ابتسامته المهذبة .. كان يتحدث عن ضعفه وهو مبتسم ؛ ويتحدث عن خطر ضياع سلطنته وهو يبتسم ؛ ويتحدث عن اعتماده على سياسة خطيرة تضعه دائماً على حافة الهاوية وهو يبتسم .. وعجب إلهامي .. فلا يبدو من كلام السلطان أنه يكذب ..! .. ولماذا يكذب عليه أصلاً ؟ أليقنعه بمسالمة ستراتفورد يصف نفسه بالضعف ؟ غير معقول إطلاقاً .. هو صادق تماماً .. هو ضعيف من غير شك .. ولكنه يبتسم كالقوي الواثق من نفسه .. فما السر في هذه القوة ؟ .. إن إلهامي لم يفهم كثيراً من التفصيلات التي أفضى بها السلطان إليه .. فهو غير مطلع على خفايا السياسة الأوروبية ؛ ولعله لم يستطع أن يتابع السلطان في محاضرته تلك المملة .. ولكن بعض النقاط أثارت انتباهه ؛ وأولها قوله إن الذي غزا سوريا وهدد بإسقاط الخلافة هو الذئب الفرنسي متستراً تحت اسم جده محَمد علي .. فهل هذا صحيح ؟ .. هل جده كان عميلاً للحكومة الفرنسية ؟ .. وتلك الانتصارات التي أحرزها وارتفع بها من تاجر دخان إلى حاكم كبير تعود إلى الفرنسيين لا إليه ؟ .. أليس جده ذاتاً متميزةً وصلت إلى ما وصلت إليه بصفاتها التي زودها الله بها لتحكم ؟ .. وتوقف إلهامي عند هذه النقطة ؛ وانتظر أن يفرغ السلطان من كلامه حتى يستفسر منه عنها .. ولكن السلطان لم يهئ له هذه الفرصة .. إذ ما كاد ينتهي حتى تهيأ للانصراف فوقف قائلاً :

– لقد أطلت الحديث معك حتى كدت أنسى أن لدي مهاماً أخرى .. على أية حال أرجو أن تكون قد اقتنعت الآن بواجبك إزاء ستراتفورد ..

ثم غادر القصر مسرعاً ..

(9) لَطِيفٌ وَعَزِيزٌ وَالسُّمُّ مِنْهُ وَإِلَيْهِ

دخل عزيز بك مبتسماً ؛ وقال وهو يضع صينية القهوة على المنضدة الصغيرة أمام لطيف :

– أغفيت يا لطيف ؟

فتظاهر لطيف بأنه يستيقظ مذعوراً ؛ وقفز واقفاً وهو يهتف :

– هه .. ما هذا ؟

فأغرق عزيز في الضحك وقال :

– أنا .. ! من تحسبني أكون ؟

فقال لطيف وهو يعود إلى مقعده :

– قاتلك الله ! .. لقد أفزعتني ..

وألقى بنظرة سريعة على صينية القهوة الموضوعة أمامه ؛ فرأى وعاء القهوة ممتلئاً يتوسط قدحين فارغين .. وتساءل : ترى هل وضع عزيز السم في القهوة كلها ؟ .. وكيف يفعل ذلك وهو سيشرب منها معه ؟ .. أم تراه سيمتنع عن شرب القهوة ؟ .. وبدا له هذا احتمالاً بعيداً ينزه ذكاء عزيز عنه ؛ فهو نفسه الذي اقترح شرب القهوة ؛ وقد أحضر فنجانين ؛ فأية محاولة منه للامتناع عن مشاركته شربها ستعرضه للشبهة .. أتراه إذن دس السم في القدح الذي وضعه في الصينية بحيث يكون أمامه ؟ وتمطى متثائباً ؛ ثم مد يده وتناول القدح الفارغ قائلاً :

– هذا القدح نقوشه جميلة ..

وأخذ يفحص القدح ؛ فرآه نظيفاً ليس فيه ما يثير الشبهة ؛ وقال عزيز :

– هذه مجموعة من الأقداح والأطباق أهديت إليَّ من أحد مهراجات الهند ..

فضحك لطيف وأعاد القدح إلى الصينية قائلاً :

– هل امتد نشاطك إلى مهراجات الهند ؟

فقال عزيز وهو يرفع وعاء القهوة في يد ؛ ويرفع القدح الآخر الموضوع أمامه بيده الأخرى :

– هذه قصة طويلة سأحكيها لك ..

وأخذ يصب القهوة في القدح ببطء بينما كان يقول :

– عقب اغتيال مصطفى باشا بأيام ؛ جاء أحد الهنود إلى الآستانة يبحث عن تاجر فرنسي أغرى إحدى زوجات المهراجا بالهرب معه ؛ وكنت في ذلك الحين ..

وكان قدح القهوة قد امتلأ ؛ فمد يده نحو لطيف ؛ ومضى يقول :

– عاطلاً بعد أن تشتت أعوان مصطفى باشا .. تفضل قهوتك ..

ونطق هذه الجملة الأخيرة في براءةٍ وبساطةٍ ؛ ثم عاد يستأنف حكايته التي لم يسمع منها لطيف بك حرفاً بعد ذلك ؛ فقد تركز كل انتباهه في هذا القدح الذي وضعه عزيز ببراءة بين أصابعه .. لم يكن هو القدح الذي فحصه ووثق من خلوه من أي أثر للسم .. فهل هذه هي الخدعة التي لجأ إليها عزيز ؟ .. وضع أمامه قدحاً نظيفاً ؛ بينما كان السم في قاع القدح الآخر الذي أمامه هو ؛ ثم شغله بحكاية مغامرته في الهند وقدم إليه القدح المسموم ؟

وكان عزيز ماضياً في حكايته بعد أن تناول القدح النظيف وصب فيه القهوة لنفسه ؛ ولكنه لاحظ وجوم لطيف ؛ فرشف من قدحة رشفة خفيفة ؛ ثم سأله :

– فيم شرودك يا لطيف ؟ أهناك ما يثير قلقك ؟

فقال لطيف بك وهو يضع الفنجان المسموم أمامه فوق الصينية :

– عزيز .. أنت أخي وصديقي وزميلي .. ألست كذلك ؟

فبدا الاضطراب على عزيز ؛ ووضع فنجانه على الصينية ؛ ونظر إلى عزيز قائلاً :

– تماماً .. تماماً .. وهل تشك في ذلك ؟

ولم يفت عين لطيف الثاقبة ذلك التحفز الذي بدا على وجهه ؛ فلاشك في أن محاولته فحص القدح الأول متظاهراً بالإعجاب بالنقوش لم يفت ذكاء عزيز مدلولها ؛ ثم إن امتناعه حتى الآن عن شرب القدح الذي قدمه إليه قد نبه عزيز إلى شكه فيه ؛ وأخيراً جاء هذا السؤال عن الأخوة والزمالة والصداقة إيذاناً بأن صراعاً عنيفاً قد ينشأ بينهما .. أدرك لطيف كل ما دار في ذهن عزيز ؛ ولكنه كان ينوي أن يدير الصراع في اتجاه آخر لا يتوقعه عزيز ؛ فقال :

– إذن أستطيع أن أأتمنك !

– طبعاً يا أخي .. أتتصور أنني أخونك يوماً ؟

– لا .. ولهذا أريد أن أعهد إليك بشئ تحفظه لي حتى الغد ..

– أنا في خدمتك دائماً ..

فقال لطيف وهو يدير مقبض عصاه ويكشف عن التجويف الذي فيه الرسالة :

– هذه الرسالة التي كتبتها البرنسيسة نازلي إلى أخيها .. أصبح من الخطر أن أحملها معي الآن .. فلتبقها لديك حتى موعد سفري غداً .. وسأمر بك لأستردها ..

وأُخذ عزيز بهذا العرض ! فقد كان يتوقع أن يتهمه لطيف بدس السم له في القهوة بعد تلك الحركات المريبة التي صدرت عنه ؛ ولكن أن يعرض عليه ترك الرسالة الخطيرة بين يديه حتى الغد .. فهذا عمل يدل على أن شكوكه لم تكن على أساس .. فلطيف إذن لم يَرْتَبْ في قدح القهوة المسموم ؛ وتردده في شربه راجع إلى خوفه على الرسالة فحسب .. وأيد لطيف بك هذا الظن عندما قال وهو يقدم الرسالة إليه :

– لقد رأيت حلماً مفزعاً عندما أغفيت حين كنت تصنع القهوة – وأنا أتشاءم من الأحلام كما تعرف – رأيت أن أعدائي عادوا إلى مهاجمة بيتي وأنا نائم فيه ؛ فذبحوني واستولوا على الرسالة .. هذه أضغاث أحلام كما ترى ؛ ولكني كثير التشاؤم ؛ ولن يهدأ بالي حتى أطمئن على مصير الرسالة .. خذها يا عزيز .. خذها واحفظها لديك ؛ فإذا عدت إليك غداً لأستردها فقد انتهت الأزمة .. أما إذا لم أعد ؛ فاعلم أنني قتلت ؛ وعليك في هذه الحالة أن تقوم بهذه المهمة بدلاً مني ..

وتناول عزيز – وهو لما يفق بعد من دهشته – الرسالة الخطيرة ؛ وأخذ يقلبها بين أصابعه ؛ وعاد لطيف يقول :

– على أنني أرجو أن أتمكن من الدفاع عن حياتي إذا هوجمت في الطريق أو في البيت ؛ ولكن العصا قد تنكسر في الصراع ؛ أو يختطفها أحد المهاجمين مني .. وبذلك تضيع الرسالة ..

فقال عزيز :

– حسن .. أنا في خدمتك كما قلت لك .. وإذا شئت أن تقضي الليلة عندي .....

فقاطعه لطيف :

– لا .. لا أستطيع ؛ ينبغي أن أعود إلى البيت لأحزم حقائبي ..

– كما تشاء ؛ و إن كنت واثقا من أن أحداً لن يهاجمك في الطريق أو في البيت ..

وقام نحو خزانة ضخمة في ركن الغرفة وفتحها ؛ ثم وضع الرسالة فيها وأغلقها .. وعندما عاد إلى مقعده كان لطيف يخفي وجهه بين كفيه ويضغطه بينهما ؛ فقال عزيز وهو يجلس :

– ألا تشرب قهوتك قبل أن تبرد ؟

فرفع لطيف كفيه عن وجهه ؛ ونظر إلى عزيز بعينين أرهقهما الأسى ؛ وقال :

– فعلاً .. أنا في أشد الحاجة إلى القهوة ..

ورفع القدحَ إلى شفتيه ؛ فالتمعتْ عينا عزيزٍ في قلقٍ لم يفتْ عينَ لطيفٍ .. ورفع عزيزُ قدحَهُ إلى شفتيه ورَشَفَ منه رشفةً طويلةً دون أن يحول عينيه عن وجه لطيفٍ ؛ حتى رآه يبدأ في احتساءِ القدحِ .. وعندئذٍ تنهد في ارتياحٍ وأتى على ما في قدحه في جرعةٍ واحدةٍ ..

وقال لطيف وهو يرشف القهوة في بطءٍ :

– من الصعب أن يوجد في هذا الزمان صديقان يربطهما ما بيننا من أخوة ..

– تماماً .. تماماً يا لطيف ..

وعاد لطيف يقول بعد لحظة صمت :

– بالرغم من أن القاعدة الأولى في مهنة الجواسيس هي ألا يثقوا إلا في أنفسهم ؛ فإنني أثق فيك يا عزيز .. ألست جزءاً من نفسي .. ؟

وأحس عزيز بأن هذا التكرار والتأكيد على ما بينهما من صداقة أمر سخيف في هذه اللحظة بالذات .. وخشي إن ترك لطيفاً يمضي فيه أن تتسبب ذكراه في زوبعة من تأنيب الضمير ؛ فهو بإقدامه على قتل لطيف بالسم يؤدي عملاً وكل إليه ؛ دون أن يسمح للعاطفة بأن تتدخل فيه .. وصداقته للطيف كانت – من وجهة نظره – صداقة عمل ؛ كانت زمالة اكتسبت بطول المدة طابع الصداقة والأخوة ؛ فمن الطبيعي أن تنقطع هذه الصداقة والأخوة بانقطاع التزامل ؛ وليس هناك ما يمنع من أن يقتله إذا كان يعمل ضده .. ولطيف الآن يعمل في خدمة البرنسيسة نازلي ؛ بينما يعمل هو في خدمة أعدائها ؛ فقتله عمل مشروع ؛ ومثل هذا الحديث عن الأخوة والصداقة بينهما إنما هو محاولة لنفخ الرماد في عاطفة خبت بينهما .. وليس ذنبه أنها لم تخب في قلب لطيف ؛ وربما كان ذلك لأنه لا يعلم أنه يعمل في معسكر معاد .. ولو كان لطيف مكانه لتصرف نفس التصرف ؛ أجل ؛ فلطيف لا يتورع عن قتله إذا تعارضت طريقاهما ؛ ألم يشتهر لطيف بأنه على استعداد لأن يبيع جثة أبيه بملء قبضة من الريالات ! .. فلا يلمه إذاً إذا باعه هو بملء قبضة من الجنيهات ..

وهكذا أحس عزيز بأن ضميره مستريح بينما لطيف يرشف السم .. وانتهى لطيف من احتساء القدح ؛ ثم وضعه فوق الصينية وقال :

– لم تكمل لي قصة المهراجا .. !

– آه .. قصة المهراجا ؟؟ ؟ نعم .. أنا فعلاً لم أكملها ..

– وصلنا إلى الهندي الذي جاء يبحث عن فرنسي أغوى زوجة المهراجا ..

– نعم .. نعم .. كان قد أغراها على الفرار معه من قصر المهراجا ..

وصمت ؛ وأخذ يرقب وجه لطيف ؛ فالمفروض أن السم يبدأ في التأثير عليه منذ هذه اللحظة ؛ وينبغي أن يتصبب جبينه بالعرق ؛ بينما يحس بقشعريرة تجتاح بدنه ؛ وبثقل في جفونه ؛ ورغبة شديدة في النوم ؛ ولم يبد حتى الآن شئ من هذه الأعراض على لطيف ؛ فها هو ذا ينظر إليه هادئاً ويستحثه على إتمام قصته ..

– ثم .. ؟

– ثم .. ثم جاء الهندي إلى الآستانة يبحث عنه ..

– ثم .. ؟

– ثم .. ثم .. ثم أخذ يبحث عنه ..

– ثم ..؟

ما هذا الهدوء الذي يكسو وجهه ؛ وهذا الجمود الذي يشيع في صوته ؟ ما للعرق لم يند جبينه بعد .. ؟ أترى السم قد فسد مفعوله ؟ .. إنه لواثق من أن هذا غير محتمل ؛ فهو الذي حضره بيديه ؛ وهو الذي ذَرَّ مسحوقه الأبيض في قاع القدح وجوانبه ؛ وإنها لكمية تكفي لتصرع ثلاثة رجال ؛ فماذا حدث إذن ؟

– ثم .. ؟

ورنت الكلمة في أذنيه بتارة تقطر قسوة ؛ وزاده شعوراً بقسوتها تلكما العينان الضيقتان اللتان ثبتتا نظراتهما على وجهه لا تريمان

– ثم .. ثم .. أخذ .. أخذ ..

– أخذ يبحث عنه .. ثم .. ؟

ما لتلكما العينين لا تريدان أن تحولا حدقتيهما عن وجهه ؟ إنه ليتلعثم .. وإن قدرته على اختلاق القصص والأكاذيب – وقصة المهراجا مختلقة بغير شك – قد بدأت تتلاشى أمام تلك النظرة الجامدة ؛ وذلك الصوت الحاد البتار الذي يردد كلمة واحدة هي "ثم" ؛ ولكنها تعني مطالبته بأن يمضي في الاختلاق والكذب ؛ وهل يستطيع ؟ وأحس بأن جبينه هُوَ الذي بدأ يتصبب عرقاً ..

– ثم .. ؟ !

وبدا له الصوت القاطع البتار هذه المرة أجوفَ له أصداءٌ تتردد ؛ كأنه صادر من قاع جبٍ عميقٍ .. وانسال العرق من جبينه مدراراً ؛ وبدأت قطراته تتساقط من فوق حاجبيه وخديه وتتخلل لحيته السوداء الأنيقة .. وسقطت قطرة من العرق من فوق حاجبه فمرت أمام عينه ضخمةً منتفخةً ؛ تنبع في جوانبها أضواء حمراء في لون الدم ؛ وأضواء زرقاء في لون اللهب ؛ وأضواء

صفراء في لون الموت .. وامتزج الدم واللهب والموت كتلة من الظلام بدأت تزحف على عينيه .. وأراد أن يطرد كتلة الظلام الزاحفة ؛ فحاول أن يفتح عينيه ؛ فشعر بجفنيه ثقيلتين ترتفعان في بطءٍ ..

– ثم .. ؟ !

ولم يحاول عزيز هذه المرة أن يفكر في اختلاق أكاذيب جديدة ؛ فقد بدأ يحس برجفة تدب في بدنه ؛ بدأت ضئيلة لا تكاد تحس ؛ ثم أخذت تزداد شدة حتى إنه ليحس بأن بدنه يرتج ارتجاجاً عنيفاً ..

أتراه .. ؟ !

وأحس بذعرٍ شديدٍ عندما برقت الفكرة في خاطره ؛ أتراه هو الذي شرب السم لا لطيف ؟ .. ولكن .. هذا مستحيل .. إنه لم يخطئ في القدح ؛ ولقد رأى بنفسه مسحوق السم الأبيض في قاع القدح الذي قدمه للطيف .. ولكن الرجفة أخذت تشتد ؛ وإنه ليعرف هذه الأعراض جيداً ؛ إنها تبدأ بالعرق الغزير يصاحبه ضعف أشبه بالإغماء ؛ ثم تتلوه رجفة شديدة ترج البدن رجاً ؛وعندما تنتهي الرجفة تأخذ برودة الموت في الزحف على صدره ..

وحاول أن يقف على قدميه فأحس بثقل في كل أطرافه ولكنه جاهد ليتغلب عليه ؛ واستطاع أن ينهض مستنداً إلى المنضدة ؛ ولكن لطيفاً دفعه بيده دفعة خفيفة ألقته على مقعده ثانيةً ؛ وحاول أن يعيد الكرة ويقف ؛ ولكنه عجز هذه المرة عن التغلب على ثقل أطرافه ..

وأخذت الرجفة تفارق بدنه رويداً رويداً ؛ ولكن برودة الموت بدأت تزحف ؛ ثقيلة خانقة ؛ على صدره ؛ ورفع عينين ضارعتين إلى وجه لطيف الذي وقف فوقه يتطلع إليه بتلكما العينين الضيقتين اللتين تقطران قسوة وبرودة ؛ وجاهد عزيز ليهمس :

– أفعلتها .. ؟!

– نعـــم .. ..

– مـــتى ؟ ..

– أبدلتُ القدحين وأنتَ مشغولٌ بلهفتكَ على الرسالةِ ..

وأطرق عزيز في استسلام ؛ فلن تستطيع قوة على الأرض أن تنقذه ؛ إن في حجرة سمومه ترياقاً لهذا السم حقاً ؛ ولكنه عاجز عن الحركة بعد أن بدأ الموت يكبل قدميه بالشلل ؛ وليس هناك أحد في البيت سوى لطيف ؛ بعد أن أبعد بنفسه خادمه الوحيد ليتمكن من التخلص من جثة لطيف بعد اغتياله .. وهل يرضى لطيف بأن يقدم إليه الترياق بعد كل ما فعله به ؟ .. إنه يعرف لطيفاً معرفةً حقةً ؛ ويعرف قسوته ووحشيته ؛ فهل يطمع في أن يتشبث بأهداب الصداقة والأخوة اللتين بدأ هو بخيانتهما .. ؟

وعاد يرفع إلى لطيف عينيه الضارعتين ؛ وقرأ لطيف ضراعته ؛ فابتسم ابتسامةً قاسيةً ؛ ثم سأله :

– ألهذا السم ترياق ؟

وتعلق عزيز بهذه الكلمة ؛ فقد جاءت دليلاً على أن لطيفاً لا يزال يحس بحنين نحو الماضي الذي توثقت فيه أخوتهما ؛ وهمس :

– أتنقذني حقاً ؟

وعاد لطيف يبتسم قائلاً :

– بغير شك ؛ أتظنني مثلك أجحد الصداقة ؟ .. لقد أبدلت القدحين لألقنك درساً فقط ..

وتهلل وجه عزيز ؛ وزحف بيديه اللتين بدأ الشلل يتسرب إليهما ؛ فتشبث بساقي لطيف في استعطاف ؛ وقال :

– احملني إلى حجرة السموم ..

ولكن لطيفاً لم يتزحزح ؛ وإنما ازدادت بسمته القاسية اتساعاً ؛ وقال :

– ليس قبل أن أطمئن إلى أنك استفدت من هذا الدرس ؛ وإلا فمن يضمن لي إذا أنا أنقذتك ألا تحاول اغتيالي مرة أخرى ؟

فازدادت أصابع عزيز تشبثاً بساقيه وهمس :

– أقسم .. أقسم لك

ولكن لطيفاً هز رأسه في إصرار ؛ وقاطعه قائلاً :

– ليس لقسمك قيمة كما تعرف .. أريد دليلاً عملياً على توبتك ..

– وكيف أقدمه ؟

– بأن تذكر لي كل ما تعرف عن أعداء الأميرة نازلي ..

وازدادت أصابع عزيز تشبثاً بساقي لطيف في رجاء وهو يقول :

– سأذكر لك .. سأذكر كل شئ ..

– ها أنا ذا أسمع ..

– ولكن .. أسعفني بالترياق أولاً ..

– ليس قبل أن تتكلم .. !

– ولكن الوقت لا يتسع للكلام .. ! سأموت خلال دقائق إن لم تسعفني بالترياق ..

– تكفيك هذه الدقائق لتقول كل شئ ..

وبدأ عزيز يتكلم ؛ فأخبره كيف تتسرب كل أسرار الأميرة نازلي عن طريق وصيفتها صافيناز ؛ التي تعمل في منظمة لحساب سير ستراتفورد كاننج سفير بريطانيا العظمى في الآستانة ؛ وكيف أن ستراتفورد عندما علم بالمقابلة التي تمت بين نازلي ولطيف أمره بأن يحصل على الرسالة ؛ وأن يتخلص منه بقتله ؛ وعلل إصرارهم على قتله برغبة ستراتفورد في أن يزيف رسالة إلى سعيد باشا ؛ يحملها إليه رسول آخر ينتحل شخصية لطيف .. وأن سعيد عندما يتصرف تبعاً لما تطلبه منه الرسالة الزائفة سوف يقدم بهذه التصرفات المبرر الذي يتيح لعباس وللإنجليز وللسلطان أن ينزعوا عنه ولاية العهد وينقلوها إلى إلهامي باشا ..

وكان عزيز يتكلم في سرعة فقد كان يعلم أنه في سباق مع الزمن ؛ فلم يتمهل ليفكر في إخفاء حقيقة أو تزييف خبر .. وكان لطيف يسمع في اهتمام ؛ وهو واثق من أن عزيز لا يكذب في شئ مما يقول ..

وعندما انتهى عزيز من روايته نظر إلى لطيف في استعطافٍ وقال :

– لقد قصصت عليك كل شئ ؛ وأقسم لك أنني لم أكذب في حرف مما قلته ..

فهز لطيف رأسه مؤمناً ؛ وقال :

– تماماً .. تماماً يا عزيز .. أنا واثق من أنك صادق ..

– إذن .. هلا حملتني إلى غرفة الســـــــــموم ؟!

فابتسم لطـــــــــيف وانحنى فوقه متسائلاً :

– ولماذا ؟

– لأرشدك إلى المخبأ الذي فيه ترياق السم ..

– ولماذا ؟

وازدات بسمته قسوةً :

– لتشرب الترياق وتنجو ثم تعود إلى محاولة قتلي ..

فصاح عزيز في ذعرٍ ؛ وهو يحاول تحريك جسده المشلول ليقف :

– كلا .. أقسم لك أنني .....

فقاطعه لطيف وهو يدفعه بيده فيعيده إلى المقعد :

– ولماذا أعلق حياتي على قسمك ؛ وهو أوهى – كما تعرف – من خيط العنكبوت ؟

ودس يده في جيبه فأخرج مفتاح الخزانة التي وضع فيها عزيز رسالة نازلى ؛ ثم اتجه نحو الخزانة يفتحها وهو يقول :

– إن موتك يا عـــزيز خير ضـــمان لحياتي أنـــا ..

فقال عزيز في صوتٍ جاهد حتى يصل إلى سمع لطيف :

– لقد وعدتني .. ! .. أنت وعـدتني .. ! وعـدتني .. !

ولم يجب لطيف ؛ بل أدار مقبض عصاه وأعاد الرسالة إلى مخبئها ؛ ثم أخذ يجرد الخزانة مما فيها من أموال وأوراق هامة ..

وعاد عزيز يجاهد ليقول :

– أنت وعدتني .. ! وعدتني .. !

فأغلق لطيف الخزانة ؛ ثم اتجه نحو عزيز ونظر إلى عينيه الضارعتين في صمتٍ .. وحاول عزيز أن ينهض من مقعده ؛ ولكن ساقيه المشلولتين لم تتحملا حركته ؛ فسقط على الأرض ؛ وحاول أن يزحف نحو لطيف ؛ فلم تسعفه القدرة إلا بمقدار ما مد ذراعيه حتى مست أصابعه قدمي لطيف ؛ وعاد يهمس :

– أنت وعدتني .. أنت وعدتني يا لطيف .. ؟

ونظر لطيف إليه ؛ فأحس برجفةٍ أرعدت قلبه فجأةً .. هذا عزيز صاحبه وأخوه .. ! وانحنى نحوه فأمسك بيديه ورفعهما عن ساقيه ؛ فتشبثت أصابع عزيز الباردة بأصابعه المرتجفة ؛ وجاهد طويلاً ليرفع إليه عينيه :

– أنت وعدتني .. يا لطيف .. وعدتني .. !!

ووجد لطيف دموعاً حانية تجول في عينيه ؛ فجلس القرفصاء ورفع إليه وجه عزيز الذي ضُرِبَ إلى الزرقة ؛ وهمس له في أسىً أدهشه أنه صحيح :

– عزيز .. لو كنت مكاني وأنا مكانك .. أكنت تسقيني الترياق ؟

وغامت النـــظرة الضـــارعة في عيني عـــزيز ثم اختفت إلى الأبـد ..

(10) الهامي يذهب لستراتفورد ؛ ويتحدثان عن لوليتا وبينين والقناة

لم يكن إلهامي قد اقتنع بأن واجبه إزاء ستراتفورد هو أن يسترضيه ويستجيب لأوامره ويجعل من نفسه آلة بين يديه ؛ فبالرغم من أن السلطان كان قد أسهب في شرح الموقف الدولي وبين له باستفاضة حاجة تركيا إلى إنجلترا ؛ تلك الحاجة التي لا تقل عن الحاجة للحياة نفسها ؛ رغم ذلك كله ؛ فإن إلهامي لم يجد فيه ما يبرر الخطة التي يدعوه السلطان إلى سلوكها .. وهناك قبلُ حقيقة كانت وحدها كفيلة لرفض الاستجابة لطلب السلطان ؛ وهي أن تركيا ليست بلد إلهامي ؛ فبلده هي مصر ؛ وأبوه وال على مصر ؛ فالأخطار التي تتهدد تركيا لا تهمه في شئ إلا بقدر ما تمتد آثارها إلى مصر ؛ ومصر من هذه الزاوية ليست مهددة بغزو روسي ؛ فمطامع الروس محصورة في البلقان والبسفور ؛ ولا يحسبها كذلك مهددة بغزو فرنسي ؛ فمظاهر الصداقة والتعاون التي أبدتها فرنسا نحو جده – بغض النظر عن اتهام السلطان إياه بأنه كان عميلاً لها ؛ هذا الاتهام الذي لا يصدقه ؛ والذي ربما دفعت إليه الغيرة من ذات جده المتميزة – لا تترك عند التأمل البسيط احتمالاً لنية الغزو ؛ ودولة تريد أن تغزو أخرى لا يعقل

أن تمدها بأسباب القوة ؛ فتبني جيشها ؛ وتعلم أبناءها ؛ وتعينها على الرقي بزراعتها وصناعتها .. وكذلك لا يحسب أن للنمسا أطماعاً في مصر ؛ فليس ثمة رابطة بين مصالح النمسا وموقع مصر وسياستها واقتصادها ..

وهكذا انتهى إلهامي بعد تأملٍ سريعٍ في كلام السلطان إلى أنه إذا كانت مصر مطمعاً لواحد من الذئاب الأربعة فلن يكون إلا الذئب الإنجليزي ؛ وكل الظروف تؤيد هذا الاحتمال ؛ وهو لا ينسى أن إنجلترا حاولت غزو مصر في أول عهد جده بحكمها ؛ وكذلك هي التي حاربت جده ؛ وجعلت من أسطولها وجيشها عقبة حالت بين ذاته وبين تحقيق ما خلقت له .. أجل .. إن إنجلترا هي الذئب الوحيد الذي يتلمظ إلى التهام مصر .. ومن ثم فلا معنى لسياسة الحبال الأربعة ؛ هناك حبل واحد في فم ذئب واحد يجذب إليه الظبي ؛ فكيف يمكن أن تكون بينه وبين ستراتفورد صداقة ؟ .. وكيف يمكن أن يعمل ستراتفورد لصالحه كما زعم له السلطان ؟ وأثار عجبه أن يتفق السلطان وأبوه في نصحه بالحرص على صداقة الإنجليز ؛ وإذا كان للسلطان ما يبرر موقفه ؛ فما السر في إيمان أبيه بصداقة إنجلترا .. إن السلطان وجد أن مصلحة تركيا تتفق مع مصلحة إنجلترا ؛ أما مصر فإن مصلحتها تناقض مصلحة تركيا بغير شك ؛ وإلا فما معنى هذه الحرب التي نشبت سنوات بين جده وبين الباب العالي ؟ .. ولقد حققت هذه الحرب لمصر شيئاً من مصالحها ؛ فأصبحت دولة نصف مستقلة ؛ وحصلت أسرته على حق توارث حكمها ؛ ولم يحل دون استقلالها كاملاً إلا تعاون الإنجليز مع تركيا ؛ فالمفروض – هكذا دله المنطق – أن تظل مصلحة مصر وأسرته بالتالي متناقضة مع مصلحة تركيا وإنجلترا .. فهل غفل أبوه عن هذه الحقيقة ؟ أم أنه يعرفها ويعرف في نفس الوقت أنه عاجز عن السير على هديها ؟

وتذكر إلهامي ما كان يسمعه من أبيه كثيراً وهو يحدث خاصته وحاشيته من أنه إذا كان لابد لمصر من أن تخضع لنفوذ أحد ؛ فإن السلطان أولى بهذا الخضوع .. إن المسألة إذن هي أن أباه يؤمن بأن مصر لابد أن تخضع لأحد ؛ وسياسته نابعة من ثقته بضعفه عن التحرر من هذا الخضوع .. إنه ضعيف ؛ إنه لم يرث عن جده صفات التميز والقوة ؛ إنه ليس ذاتاً خلقت لتسود – مثله ومثل جده من قبل – بل هو بشر ورث السيادة والحكم .. فسياسة المحافظة على صداقة إنجلترا سياسة يمليها الضعف ؛ يمليها العجز ؛ وهو – حفيد محمد علي العظيم – غير ضعيف وغير عاجز ؛ فليس ثمة ما يبرر التزامه بهذه السياسة ..

وفي الساعة الخامسة كان يصافح لورد ستراتفورد الذي استقبله على باب السفارة ؛ وضغط على يده في قوة الواثق من نفسه ؛ المؤمن بتميزه وتفوقه ؛ المصمم على أن يخوض معركة سيادة ويكسبها ..

وعندما ضمتهما مائدة الشاي أخذ ستراتفورد يسرف في مجاملة إلهامي إسرافاً لم يكن من طبع بني جنسه عامةً ؛ ولا من طبعه هو بصفة خاصة ؛ فقد اشتهر بالشراسة والصلف ؛ ولم يشر إلى لوليتا مرة أخرى .. ولعله كان يرجئ أمرها إلى لحظة يهيئها لتناسب الهجوم الذي يريد أن يديره لإذلاله ؛ ولم يشأ الهامي أن يترك له فرصة لذلك ؛ فقرر أن يبدأ هو الهجوم قائلاً :

– كنت تريد يا سعادة السفير أن تتحدث معي في أمر الآنسة لوليتا ؟

– فعلاً .. ولكنني كنت أفضل أن نرجئ مناقشة موضوع هذه الآنسة حتى أزف التهنئة أولاً إلى ذاتكم البهية ..

– التهنئة ؟ ..

قالها إلهامي في دهشة المفاجأ :

– بأي شئ يا سعادة السفير ؟

– بولاية العهد يا سمو الباشا

كان لهذه الجملة وقع غريب على إلهامي ؛ فنسي للحظة خاطفة ذاته المتميزة ؛ ونسي معركة الذئب والظبي التي جاء يخوضها ؛ بل ونسي لوليتا ؛ وارتد إلى طبيعته – صبياً في السابعة عشرة من عمره يستطيره الفرح وتستخفه النشوة – فهب من مقعده هبة كادت تسكب إبريق اللبن الموضوع أمامه ؛ وانبعثت من أعمق أعماقه ضحكة أخرستها الفرحة ؛ فارتسمت صامتة حول فمه وفي خديه ؛ وأطلت خالصة صريحة من عينيه .. وكان ستراتفورد يرقب انفعالاته بعين الذئب ؛ وعندما أدرك أن إلهامي كان ضعيفاً أمام الفرحة بالعرش كما قدر ؛ ابتسم في خبث وقال في صوت ناعم :

– مفاجأة سارة يا صاحب السمو ؛ أليست كذلك ؟

ولكن هذه البسمة الخبيثة وهذا السؤال الرقيق كانا طلسماً أزال سحر المفاجأة ؛ فارتد إلهامي إلى دنيا الذات البهية ؛ واكتسى وجهه بقناع الجمود المتكبر ؛ وجلس إلى مقعده وهو يقول :

– نبأ طيب سرت به خواطرنا .. !!

وساء ستراتفورد هذا التخلص السريع من نشوة الفرحة ؛ فهو كان يرجو أن تزيل هذه البشرى بولاية عهد مصر كل مقاومة من إلهامي ؛ شأنه شأن كل الشرقيين الذين تعامل معهم .. لقد كان يشتري رجالاً أصلب وأحكم من إلهامي بمناصب أقل من ولاية

العهد بكثير .. على أن استياءه لم يطل ؛ فهو يعرف الطبيعة البشرية .. هناك ناس تشتريهم بالمنح ؛ وهناك آخرون تشتريهم بالخوف من المنع ؛ وإلهامي الذي لم يضعف طويلاً أمام لذة المنصب ؛ سوف يضعف لا محالة أمام الخوف من فقد المنصب ؛ وإنما ينبغي أن يصبر عليه حتى يستشعر لذته فيشتد به استمساكاً .. ويكفي الآن أن يعرف أنه صاحب الفضل في إسباغ ولاية العهد عليه .. وقد أتاح له إلهامي أن يوضح له هذه الحقيقة بطريقة طبيعية عندما قال :

– الغريب أن صاحب العظمة الشاهانية كان معي منذ ساعتين ولم ينبئني بهذا الخبر .. !

فقال ستراتفورد باسماً :

– الحق أن عظمة السلطان لم يعرف بموافقة حكومتي بعد

فقال إلهامي في دهشة :

– وما دخل حكومتك يا سعادة السفير في هذا الأمر ؟

فأجاب ستراتفورد هادئاً :

– أوه .. عفواً .. نسيت أنك لا تعرف .. الحق يا صاحب السمو أن حكومتي هي التي اقترحت نقل ولاية العهد إليك ؛ أو إن شئت الدقة ؛ إنني أنا صاحب هذا الاقتراح .. وقد وافق جلالة السلطان إذا وافقت حكومتي رسمياً عليه ؛ واليوم وصلتني برقية من لورد إبردين بهذه الموافقة ؛ ولكنني لم أقابل السلطان بعد ؛ فقد آثرت أن أزف إليك البشرى بنفسي تأكيداً للصداقة التي بيننا ..

وذهل إلهامي ؛ وبدا عليه أن دوامة عنيفة من الأفكار والانفعالات تعصف في صدره ؛ فقد حسب حين أنبأه السفير بنقل ولاية العهد إليه أن ذاته البهية حققت نفسها بنفسها ؛ وولاية العهد نقلت إليه تقديراً لصفاته المتميزة .. وخيل إليه أن هذا الحدث عون له ضد ستراتفورد ؛ ولكن ها هو ذا يكتشف الآن أن ستراتفورد هو الذي جعل منه ولياً للعهد ؛ فهل يرفض ؟ .. يرفض أن يصبح حاكم مصر لأن ستراتفورد هو صاحب هذه المنحة .. ؟!!

وأطرق إلى الأرض ..

وكان ستراتفورد يراقبه ويقدر بتجربته كل ما يدور في ذهنه من أفكار ؛ فلما رآه يطرق ابتسم ؛ ثم أسرع يقدم إليه بعض الشطائر وهو يقول :

– بعد هذه البشرى السارة يا صاحب السمو يمكن أن نتحدث عن الآنسة لوليتا ..

– لوليتا .. لوليتا ..

وكان لا يزال مضطرباً ذاهلاً ؛ فضحك ستراتفورد ومضى يقول :

– إنها إمرأة رائعة على ما سمعت .. وقد استمتعت بغير شك بلياليك معها .. لا تظن أن أمرك خافٍ عليَّ .. إنني أعرف كل ما كان يدور بينكما ؛ حتى وأنتما بين جدران أربعة ؛ إن لدي هنا تقارير عن هذه السهرات فيها كل شئ ؛ حتى عدد القبلات التي تبادلتماها ..

ولكن هذه الممازحة لم تخفف عن إلهامي ما يشعر به من اضطراب ؛ فهو لا يزال متضائلاً في مقعده مطرقاً إلى الأرض ؛ فقال ستراتفورد ضاحكاً :

– هل أخجلتك بإثارة هذا الموضوع ؟ .. عندما كنت في مثل سنك مررت بهذه التجربة .. كانت لي عشيقة إيطالية أتكتم أمرها عن أبي ؛ كنت أيامها لا أزال طالباً في إيتون ؛ وكنت أقضي معها ليلة الأحد من كل أسبوع وأزعم لأبي أنني عند بعض الأصدقاء .. وفي يوم أسرفت في تناول الخمر عندها ؛ كما سهرت معها حتى الصباح .. نمنا قبيل شروق الشمس .. ومع كمية الخمر والاسراف في المرح طوال الليل لم أصح من نومي لأحضر مع أبي الصلاة في الكنيسة كما تعودت .. لا أطيل عليك ؛ عندما استيقظت وجدت أبي يصب الماء على وجهي ويسألني : لماذا تأخرت عن موعد الكنيسة ؟ وكانت مفاجأة جعلتني أتصبب عرقاً ؛ كانت كمية العرق التي بللتني أكثر من كمية الماء التي صبها على وجهي .. واكتشفت أنه كان يعرف علاقتي بها من زمن بعيد ؛ وأنه لم يشأ أن يحرجني ؛ وفي هذا اليوم عندما تأخرت عن موعد الكنيسة قال لأمي : سأذهب بنفسي لإيقاظه من عند هذه المرأة ؛ فقد أصبح رجلاً لا يخجله أن أعرف ؛ والمضحك في الأمر يا عزيزي إلهامي أن أمي عارضت بشدة في حضوره إلى بيت عشيقتي ؛ كانت تخشى أن تضطر هي إلى الحضور بنفسها لتوقظنا معاً ؛ أبي وأنا ..

كان ستراتفورد يحكي ويضحك ؛ وكان يحاول أن يؤلف مواقف فكهة ليضحك إلهامي ويصرفه عن دوامة الأفكار السوداء التي تصطرع في نفسه ؛ وقد استطاع أن يصل إلى ما يريد تدريجياً ؛ فقد بدأ وجه إلهامي يسترد لونه الذي امتقع ؛ وبدأت نبضاته تبطئ وتهدأ ؛ واستطاعت قصص المغامرات الغرامية أن تستهوي الجانب الصبياني منه .. فلم يكد ستراتفورد ينتهي من آخر فكاهاته حتى كان إلهامي يشاركه الضحك .. وقد طمأن هذا التحول ستراتفورد ؛ فإن أكثر ما كان يخشاه أن يكون إسرافه في

كشف حقيقته أمام نفسه ومواجهته بضعفه حائلاً يغلق قلبه دونه ؛ ويجعله متصلباً لا يستجيب لما يريده له من جذب وارتخاء وعنف ولين ..

وعندما وثق ستراتفورد من أن إلهامي أصبح على استعداد للالتقاء به في خطوته التالية ؛ قال وهو لا يزال يضحك :

– ها أنت ترى يا عزيزي أنني لم أكن أكثر عفة منك .. ولكن الفرق بيني وبينك هو أنني لم أكن شخصية سياسية في صباي ؛ أما أنت ؛ فإنك ذو وزن كبير في السياسة الدولية .. ومن هنا رأيت من واجبي أن أتحدث إليك في شأن هذه الغانية .. ماذا حدث في آخر لقاء بينك و بينها .. كان ذلك مساء أمس ؛ فماذا قالت لك وماذا قلت لها ؟

– لا شئ له قيمة فيما أذكر يا صاحب السعادة ..

– ألم تحدثك عن تجارة الهند مثلاً ؛ أو عن مشروع لشق قناة في برزخ السويس ؟

– وما شأنها هي بتجارة الهند أو بالقناة التي تتحدث عنها يا صاحب السعادة ؟

– إنني أسألك لأطمئن ليس غير .. إذن فلم تتحدث إليك الآنسة لوليتا في هذه الموضوعات أو فيما يشابهها ؟

– لا ..

ففكر ستراتفورد لحظة ثم قال :

– هذا عجيب .. !

– وما وجه العجب فيه ؟ إننا لم نتعود – لوليتا وأنا – أن نتحدث في أمور سياسية أو اقتصادية ؛ بل لم نتعود أن نتحدث في أمور جادة على الإطلاق ..

– تماماً .. تماماً .. هذا ما أعرفه ؛ ولكنني كنت أتوقع أن يتغير الوضع منذ مساء أمس ..

– لماذا ؟ ..

فلم يجب ستراتفورد على هذا السؤال ؛ وإنما ألقى بدوره سؤالاً آخر :

– هل قابلت الكونت رينين دي برسيفال أمس ؟

– لا أعرف رجلا بهذا الاسم .. من يكون هذا الكونت ؟

فزوى ستراتفورد ما بين حاجبيه وقال غير مصدق :

– لا تقل إنك لم تلتق به عند مسيو بوليفار ؛ لقد كان هناك أمس ..

– أمس ؟

قالها إلهامي غير مصدق ؛ فإن الاتفاق بينه و بين بوليفار صريح في ألا يستقبل زائرين في تلك الليالي التي يقضيها هو مع لوليتا .

– أجل .. كان هناك أمس

– سعادتك واثق ؟

– كل الثقة ؛ فإن رجالي الذين يراقبون بوليفار أكدوا لي ذلك ؛ رغم أن بوليفار نفسه أنكره في تقريره ..

وكان هذا نبأً جديداً آخر على إلهامي لم يصدقه بسهولة ؛ فقال :

– وهل يقدم بوليفار تقارير لسعادتك ؟

فضحك ستراتفورد قائلاً :

– طبعاً ؛ بوليفار ولوليتا أيضاً ..

– لوليتا ؟

– أجل ؛ وإلا فكيف كان يتأتى لي أن أعرف كل ما يدور بينك وبينها ؟

وأحس إلهامي مرة أخرى بأنه ضئيل هزيل ؛ عشيقته تقدم تقريراً لسفير إنجلترا عن كل ما يقوله وما يفعله معها ! .. أي غرٍ ساذجٍ هو ؟! وهو الذي كان يظن علاقته بها مغامرة وضع بنفسه كل خيوطها ؛ وأقدم على تنفيذها في سرية تامة ليتغفل الجميع .. !

ومضى ستراتفورد يقول :

– بوليفار أفاق فرنسي ؛ وبيته ماخور ومباءة يجتمع فيها رجال الحكم والسياسة الأتراك وكثير من ممثلي الدول الأخرى .. ولكنني تمكنت من شرائه ؛ فهو يقدم إليَّ كل صباح تقريراً يفصل كل ما جرى في بيته خلال المساء من زيارات وأحاديث وأحداث .. ولوليتا أيضاً تقدم لي مثل هذا التقرير ؛ ماذا بك يا عزيزي ؟ أتستنكر ما تسمع ؟

– الحق يا صاحب السعادة إنني أكاد أصاب بالغثيان ..

فضحك ستراتفورد وقال :

– لا يزال الفتى الصغير يعيش في أحلامه المثالية .. ! .. السياسة يا عزيزي لا تؤمن بهذه المثل الخلقية ؛ مصلحة بلادي تقضي أن ألم بكل ما يحدث في الآستانة ؛ فلابد أن الم به بغض النظر عن الوسائل ..

– لست أقصد هذا يا صاحب السعادة ؛ فإن من واجبك أن تخدم إنجلترا ؛ ولكن ما يثير تقززي هو استجابة مسيو بوليفار وابنته !

فقاطعه ستراتفورد قائلاً :

– هذا لأنك لا تعرف بوليفار ولوليتا ؛ إنهما لا يسعيان إلا خلف المال ؛ ولا يعنيهما شئ سواه ؛ وأنا قدمت لهما المال ..

– وأنا أيضاً قدمته ؛ فلماذا يفضحان أمري لك ؟

فقال ستراتفورد ضاحكاً :

– لأن هذه مهمتهما .. إنهما يبيعان لك اللذة ؛ ثم يبيعانك أنت لي ؛ وإذا تقدم غيري ؛ كالكونت رينين يعرض ثمناً أعلى مما أدفع ؛ فإنهما لا يترددان في أن يبيعاني أنا إليه .. وهذا ما أتوقع أن يكون قد حدث مساء أمس ؛ فعندما اطلعت على تقريريهما في صباح اليوم ووجدت فيه إغفالاً لزيارة كونت رينين ؛ ثم إيجازاً غير مألوف في وصف ما فعلت وما قلت أنت ؛ أدركت أن صفقة مريبة عقدت بينهما وبين رينين ؛ فبادرت بدعوتك لزيارتي ..

– وما العلاقة بيني وبين هذه الصفقة المريبة .. ؟

– علاقة وثيقة يا عزيزي ؛ فإنها تدور حولك ؛ إنهما باعاك وباعاني أيضاً إلى الكونت رينين .. !

وأحس إلهامي بالغضب ؛ فقد أثارته هذه الصفقات السرية التي تعقد حوله ؛ فيباع فيها ويشترى وهو لا يدري .. ستراتفورد يشتريه من بوليفار ؛ وهذا الكونت الجديد يدخل المزاد فيشتريه هو وستراتفورد ! .. فقال محتداً :

– ما هذا يا صاحب السعادة ؟ هل الإنسان زكيبة بصل ؟

فضحك ستراتفورد وقال :

– بل زكيبة ذهب يا عزيزي .. أو هذا ما يظنه بوليفار ؛ ورينين دي بسيفال ؛ وأمثالهما ..

– ومن يكون هذا الرجل ؟ أهو جاسوس لإحدى الدول ؟

فهز ستراتفورد رأسه نافياً في شدةٍ ؛ وقال :

– لا .. لا .. ليته كان جاسوساً ؛ فإن خطر الجاسوس محدود معروف .. إنه أسوأ من ذلك بكثير ؛ إنه معتوه ..

– معتوه .. ؟!

– نعم .. هو واحد من هؤلاء المجانين السان سيمونيين ..

– عفواً يا صاحب السعادة .. ماذا قلت ؟

فلم يكن إلهامي قد سمع عن هؤلاء الناس من قبل ؛ فقال ستراتفورد موضحاً :

– السان سيمونيين هم أتباع سان سيمون .. رجل فرنسي يريد أن يصلح العالم بمجموعة من الأفكار السخيفة .. أفكاره سخيفة فعلاً يا عزيزي .. ولكن أشدها سخفاً تلك المقترحات التي وضعها لزيادة ثروة العالم ؛ وعلى رأسها شق قناة في السويس ..

ففكر إلهامي لحظة حاول خلالها أن يتذكر أحاديث سمعها في طفولته ؛ ولكن السنوات غطتها بضباب من الإبهام ؛ ثم قال :

– أذكر أنني سمعت من زمن شيئاً عن هذه القناة ولكنني لا .....

فقاطعه ستراتفورد :

– أجل .. أجل .. لقد أثير هذا الموضوع أكثر من مرة ؛ فالسياسة الفرنسية جعلته حجر الزاوية في اتجاهاتها في الشرق الأوسط ؛ ولكننا قضينا على الفكرة وهي لاتزال على الورق ..

– أهي فكرة سخيفة إلى هذا الحد يا صاحب السعادة ..

فضحك ستراتفورد قائلاً :

– وماذا تنتظر من فكرة تصدر عن رجل يعتقد أنه يوحى إليه من الله ..!

– هو كافر .. ؟!

وهم ستراتفورد بأن يضحك ساخراً من هذه الغضبة الدينية التي اجتاحت إلهامي ؛ ولكنه آثر – بفهمه العميق للشرقيين – أن يحترمها ؛ ثم يثيرها ليستغلها في تحقيق أهدافه ؛ فبدلاً من أن يضحك تظاهر بالحزن العميق ؛ وقال :

– إنه يا عزيزي واحد من أولئك الاشتراكيين الذين يريدون أن يلغوا الأديان السماوية السامية .. كلهم كفار لا يرضون بما قدره الله لكل إنسان ؛ فيدعون إلى أن يتساوى الجميع .. أليس هذا كفراً ؟ .. المسيحية تعتبره كفراً أسود ؛ و أعتقد أن الإسلام يعتبره كذلك ..

– طبعاً يا صاحب السعادة ؛ هذا كفر صريح ؛ لماذا لا يحاكمونهم في أوروبا ؟

فهز ستراتفورد رأسه متظاهراً بالأسف وقال :

– يا عزيزي الباشا .. لقد ابتليت أوروبا بالديموقراطية ؛ فلا يستطيع الحكام أن يفعلوا شيئاً دون موافقة أغلبية الناس .. وهؤلاء الكفار قادرون على خداع الجماهير بالدعاية ؛ فهم يؤيدونهم ضد الحكام ..

– إذن .. لماذا لا يلغي الحكام هذه الديموقراطية التي تساعد على انتشار الكفر ؟

– لا يستطيعون يا عزيزي .. لا يستطيعون ؛ وإلا قام الغوغاء بثورات لا قبل للحكام بمقاومتها ؛ أظنك سمعت عن بعضها ؛ من حسن حظكم في الشرق أن الديموقراطية لم تتفشَّ في بلادكم ..

فقال إلهامي في اعتزازٍ :

– نحن مسلمون يا صاحب السعادة ؛ والإسلام يحمينا من هذه البدع !

فابتسم ستراتفورد وقال :

– هذا من حسن حظكم بغير شك

ثم عاد إلى موضوعه الأصلي قائلاً :

– وهكذا ترى يا عزيزي الباشا أن سان سيمون هذا ملحد كافر ؛ ألف كتاباً سماه "المسيحية الجديدة" ؛ ليكون إنجيلاً لتلامذته ؛ فكونوا بعد موته كنيسة لها أب وحواريون ورهبان ودعاة .. وكونت رينين هذا من هؤلاء الحواريين ؛ وهو أيضاً رأس الدعاة .. أأدركت مدى خطورته ؟

وبدا على إلهامي أنه لم يحسن فهم ما يقصد ستراتفورد إليه ؛ فقال متسائلاً :

– هل يسعى إلى إخراجي من ديني وضمي إلى دينه ؟

فضحك ستراتفورد قائلاً :

– لا تخش على دينك يا عزيزي ؛ فلست أظن أن رينين وجماعته حمقى إلى هذا الحد .. كل ما في الأمر أنهم يريدون استغلالك لتحقيق مشروعهم في شق قناة السويس ..

– استغلالي أنا ؟

– نعم ؛ لا تنس أنك أصبحت ولي عهد مصر ؛ وسوف تصبح حاكمها يوماً ما ؛ فهم يأملون في إقناعك منذ الآن بمشروعهم ؛ حتى إذا ما توليت العرش صرحت لهم بتنفيذه ..

ففكر إلهامي لحظة ؛ ثم قال :

– يبدو أن هؤلاء الكفار يرجمون بالغيب .. كيف علموا أنني أصبحت ولياً للعهد قبل أن أعلم أنا ؟

فعاد ستراتفورد يضحك قائلاً :

– هذا أمر سهل يا عزيزي ؛ إن لهم جواسيسهم ؛ ولابد أن بعضهم عرف المحاولات التي كنت أبذلها لنقل ولاية العهد إليك .. وهم يدركون بغير شك قدرتي على تحقيق ما أريد ؛ فأقدموا على خطوتهم واثقين .. والحق أنني كنت أتوقع أن أسمع منك أنك التقيت برينين دي برسيفال ؛ و أنه فاتحك في مشروع قناة السويس ..

فقال إلهامي :

– كلا يا صاحب السعادة .. فلم ألتق بهذا الرينين أبداً ..

فسأل ستراتفورد :

– وهل تحدثت إليك لوليتا أو أبوها المزعوم حول برزخ السويس ؟

فقال إلهامي في صدق :

– أبداً يا صاحب السعادة .. أؤكد لك أن كلمة واحدة حول هذا الموضوع لم تدر بيننا ..

– إنني أصدقك يا إلهامي .. ولابد أنهم سيسعون إلى إقناعك بالمشروع بالتدريج خطوة فخطوة ..

– اطمئن يا صاحب السعادة فقد نبهتني في الوقت المناسب ..

– أرأيت يا عزيزي كيف أنني أضع كل خبرتي ومعلومات وقوتي في خدمتك ؟

– إني شاكر لك يا صاحب السعادة ..

ونهض مستأذناً في الانصراف ؛ فقام ستراتفورد يشيعه إلى باب السفارة ؛ وقال وهو يصافحه مودعاً :

– أرجو أن تكون قد أدركت مدى الظلم الذي أوقعته بي هذا الصباح ..

فقال إلهامي :

– أي ظلم يا صاحب السعادة ؟

– تلك الرسالة القاسية التي صفعتني بها رداً على رسالتي إليك !

– أوه .. إني آسف يا صاحب السعادة ؛ فلم أكن أعرف وقتها كثيراً من الحقائق التي عرفتها الآن ..

ولم يلاحظ إلهامي أنه قدم اعتذاراً لستراتفورد كان يوشك أن يحارب العالم كله منذ ساعات حتى لا يرغم على تقديمه ..

فابتسم ستراتفورد في سرور ؛ وظل واقفاً بباب السفارة حتى ركب إلهامي في عربته ذات الجياد الأربعة .. وقبل أن تنطلق به انحنى له في أدبٍ انحناءةً لم يقم منها إلا بعد أن اختفت العربة في ناصية الطريق ..

(11)لطيف يخطط لنشاطه ثم لخلاص من جثة عزيز بنقلها بعربة

انحنى لطيف فرفع جسد عزيز بين ذراعيه دون صعوبة ؛ فقد كان عزيز ضئيلاً نحيلاً مثل لطيف نفسه .. وعندما احتوت ذراعاه جسده أحس برعشة تجتاحه ؛ وموجة أسى غير متوقعة تطغى على مشاعره وتدفع دموعاً إلى عينيه ..

لقد كان عزيز – رغم كل شئ – صديقه وأخاه ؛ وكان يحبه ؛ ولكنه سرعان ما تخلص من هذه العاطفة التي قد تدمره ؛ وأسرع يضع جسد عزيز فوق الأريكة .. ووجد نفسه بلا وعي يبسط ساقيه ويسوي ذراعيه إلى جانبيه ويريح رأسه على وسادة الأريكة ؛ ثم يمد أصابعه ليغمض عينيه الساكنتين .. وعندما تنبه إلى نفسه انتفض مبتعداً عن الجسد في غضب .. أهذا وقت مناسب لهذه الأفعال ؟ .. ماذا يحدث لو فاجأه الخادم بالدخول عليه الآن ؟ .. ثم إن عزيزاً لا يستحق منه هذه الدموع التي تدرها مقلتاه رغم أنفه .. لقد تعارضت طريقاهما ؛ وكان ينبغي أن يزيح أحدهما الآخر ليسر ؛ وعزيز لم يتردد في دس السم له ؛ وهو لم يفعل أكثر من أن سقاه القدح الذي أعده له .. إن أساه على عزيز ضعف لا يتفق مع طبيعته ولا مع المستقبل الذي أعده لنفسه .. ينبغي أن يهتدي سريعاً إلى طريقة يخفي بها الجثة .. صوان قديم .. خزانة وساعة .. سرير غير مستعمل يخفيه تحته .. نعم .. لماذا لا يلجأ إلى نفس الحيلة التي أخفى بها نفسه عن رجال عزيز الذين أرسلهم لاغتياله ؟ .. إنه لو ربط حبالاً بين فخذي السرير ووضع جسد عزيز فوقها ؛ لضمن ألا تكتشف جثته إلا بعد أن تنتن وتفوح رائحتها بعد يوم أو يومين ؛ وهو لا يريد إلا أن يخفي الجثة حتى صباح الغد حين يغادر إستانبول ويبعد عن يد السلطان التي ستتهمه بقتله .. .. ..

وهكذا حمل الحقيبة والحجر والملاءة والمصحف وعاد إلى حيث ترك جسد عزيز ؛ فلفه في الملاءة ؛ ووضع المصحف تحت رأسه ؛ ثم كومه في الحقيبة وأغلقها ؛ بعد أن وضع الحجر الثقيل فيها ؛ ووقف يقرأ الفاتحة على روحه ..

وبعد أن انتهى من هذه المراسم بدأ يفكر في الطريقة التي سيلقي بها الجسد في قاع البسفور .. لم يكن ذلك متيسراً قبل أن يحل الليل ؛ وتنام الآستانة وتنقطع السابلة .. ومعنى هذا أنه ينبغي أن يحتفظ بهذه الحقيبة معه حتى يوغل الليل ؛ ولكن كيف وأين ؟

وأغرق في التفكير .. إنه لا يستطيع أن يحمل هذه الحقيبة الكبيرة ويخرج في رابعة النهار ؛ فإن طبقته الاجتماعية التي تدل عليها ثيابه تجعل من الضروري أن يستأجر حمالاً محترفاً ؛ وحمله الحقيبة بنفسه سيعرضه للشكوك .. ثم إن الاستعانة بحمال محترف شئ خطير ؛ فقد يثير ثقلها غير الطبيعي شكه ؛ وقد تسقط منه – عفواً أو عمداً – فتنفتح وينفضح .. إنه لا يستطيع أن ينقل هذه الحقيبة قبل أن يحل الظلام الذي يستره عن أعين الناس .. فهل يتركها هنا ثم يعود إلى أخذها في الليل ؟ .. وماذا يحدث إذا خطر للخادم أن يعبث بها ؟ .. وهنا قفز إلى ذهنه سؤال آخر : ماذا سيفعل الخادم عندما يعود فلا يجد سيده ويجد البيت خالياً ؟ .. ربما لا يفعل شيئاً على الأطلاق معتقداً أن سيده خرج ؛ ولكن من المحتمل أيضاً أن يبدأ البحث عن سيده ؛ وقد يكون لديه من الأسباب التي يجهلها هو ما يدفعه إلى الخوف على سيده وإبلاغ السلطات باختفائه .. هذا احتمال ضئيل ولكنه ممكن .. وينبغي ألا يترك شيئاً مهما كان ضئيلاً للحظ ؛ فإنه بذلك يغامر بكل شئ حتى برقبته .. ينبغي إذاً أن يفعل شيئاً يقنع الخادم بأن تغيب سيده أمر طبيعي .. وقاده التفكر في أمر الخادم إلى مشكلة أخرى أكثر تعقيداً .. ربما كان ستراتفورد ينتظر الآن نبأ من عزيز يطمئنه إلى أنه نجح في اغتياله ؛ بل إن هذا أمر طبيعي ؛ فستراتفورد ينتظر أن يتم اغتياله ليرسل بديلاً له برسالة زائفة إلى سعيد باشا كما أخبره عزيز ؛ فماذا سيحدث لو طالت غيبة عزيز عن ستراتفورد فأرسل من يبحث عنه ؟ ؟؟ وبدا له أنه تورط في مشكلات لا حل لها .. وفجأة انبثقت في ذهنه فكرة .. إنه يؤمن دائماً بأن أفضل الحلول هو أبسطها وأقربها إلى الطبيعة ؛ فلماذا يلف ويدور ؟ .. إن البساطة هي أبعد الأشياء عن إثارة الشبهات ؛ ما الذي يدعوه إلى نقل الحقيبة ؟ .. وما الذي يدعوه إلى تركها ؟ .. لماذا لا يبقى هو مع الحقيبة هنا حتى الليل ؟ .. وعدنا يعود الخادم لن يدهشه أن يجده وحيداً في البيت ؛ فهو يعرف أنه ضيف على سيده ؛ و من الطبيعي جداً – بتلفيق رواية بسيطة – أن يقتنع الخادم بكل ما يريد أن يقنعه به .. وإذا اقتنع الخادم ؛ فإنه سيكون وسيلة لإقناع ستراتفورد ؛ مثلاً يمكن أن يرسله باسم سيده إلى ستراتفورد ليقول له إن ... .

وارتسمت تفصيلات الخطة في ذهنه ؛ بسيطة ؛ سهلة ؛ مقنعة ؛ فأسرع بتنفيذها ؛ وبدأ البحث عن ثوب منزلي من أثواب عزيز فارتداه بعد أن خلع ثياب الخروج التي كان يرتديها ؛ ثم بحث في أوراق عزيز عن ورقة مكتوبة بخط يده ؛ وأحضر المحبرة والريشة

والأوراق وأخذ يقلد خط عزيز حتى وصل إلى درجة قريبة منه تكفي لأن تخدع أجنبياً يقرأ التركية بصعوبة ؛ ثم كتب رسالة لستراتفورد من سطر واحد : " تمت المهمة ؛ سأختفي أياماً تجنباً لشبهات ثارت فجأة حولي " .. وقلد توقيع عزيز ؛ ثم أغلق الرسالة وختمها بالشمع الأحمر .. وبعد أن انتهى من ذلك ألقى نظرة على الحجرة ليتأكد من أن كل شئ في مكانه الطبيعي كأن لم تحدث جريمة قتل ؛ ثم استلقى على الأريكة متظاهراً بالنوم ..

وانقضت ساعة قبل أن يسمع صوت الباب الخارجي يفتح وأقدام الخادم تسير في الردهة ؛ فصاح به :

– هل عدت ؟

فأسرع الخادم يفتح الباب ويطل برأسه قائلاً :

– نعم يا سيدي ..

فنهض لطيف من رقدته في بطءٍ وأخذ يفحص الخادم الذي لم يبد عليه أي أثر لدهشة أو مفاجأة ؛ ولاحظ أنه غبي إلى حد كبير وسأله الخادم :

– هل تريد شيئاً يا سيدي ؟

– لا .. ولكنك تأخرت كثيراً على سيدك

وهنا فقط بدت على وجه الخادم دهشة خفيفة وسأل :

– كيف يا سيدي ؟ سعادته هو الذي طلب مني ألا أعود قبل ثلاث ساعات ..

فاطمأن لطيف إلى أن الخادم خالي الذهن تماماً عما كان ينوي سيده أن يفعل ؛ وأراد أن يطمئن الخادم الذي أثار هذا الاتهام قلقه ؛ فقال :

– نعم .. أعرف ذلك ؛ ولكن جدت أمور دعته إلى الخروج ؛ وكان يريد أن يكلفك بمهمة وانتظرك كثيراً

فهز الخادم كتفيه ورفع كفيه ليبرئ نفسه قائلاً :

– وأنى لي أن أعرف أنه سيحتاج إلى فجأة ؟ لقد نفذت تعليماته ..

فقال لطيف وهو يبتسم ليزيد الخادم اطمئناناً :

– على كل حال ؛ سيدك لم يغضب منك ؛ وقد كلفني بأن أعطيك هذا ..

ومد يده إليه بجنيه مجيدي :

– لتنفق منه حتى يعود

فتهلل وجه الخادم لرؤية الجنيه ؛ وسأل وهو يضعه في عبه :

– وهل سيغيب سعادته كثيراً ؟

– بضعة أيام فقط ..

ولم يبد على وجه الخادم ما يدل على أن غياب سيده المفاجئ شئ غريب عليه ؛ أو أنه أحس نحوه ببادرة شك ؛ فقال لطيف مستغلاً الفرصة :

– أنت تعرف طبعاً السفارة الإنجليزية ؟

فهز الخادم رأسه مؤمناً ؛ فتردد لطيف لحظة ؛ كانت هذه أهم مرحلة في خطته وأخطرها ؛ فقد كان غير واثق من أن عزيزاً تعود أن يرسل رسائله لستراتفورد مع خادمه ؛ وأقل خطأ أو تسرع أو سوء تقدير في هذه النقطة يمكن أن يفسد خطته كلها .. فعاد ينظر إلى الخادم متردداً ؛ وأحس الخادم بهذا التردد فقال مؤكداً :

– أعرفها تماماً يا سيدي ؛ فإن سعادته أرسلني إلى هناك عدة مرات ..

فاطمأن لطيف وقال مشيراً إلى الرسالة التي كتبها :

– حسن .. إنه يريد أن توصل هذه الرسالة إلى هناك .. ولكن .....

وعاد يصمت لحظة متردداً قبل أن يقول :

– المفروض أنني لا أعرف شيئاً عن هذه الرسالة

فتطلع إليه الخادم متسائلاً في غباء ؛ فقال لطيف :

– لا يريد سيدك أن يعرف من في السفارة الإنجليزية أنني مطلع على علاقته بهم .. أفهمت ؟

فهز الخادم رأسه نافياً أنه فهم شيئاً ؛ فعاد لطيف يقول :

– إن صلةَ سيدك بمن في السفارة سرٌ يحرصون على ألا يعرفه أحد غير سيدك وغيرك ؛ أنت تعرف طبعاً أن سيدك ....

فقال الخادم مقاطعاً :

– يشتغل بالسياسة .. نعم أعرف هذا

فابتسم لطيف مشجعاً وقال :

– تماماً .. يشتغل بالسياسة .. والسياسة تحتاج إلى الكتمان

فأحنى الخادم رأسه مؤمناً وهو يقول :

– الكتمان الشديد يا سيدي .. كثيراً ما أوصاني سعادته بأن أكتم حركاته واتصالاته ببعض الناس ..

– حسن ؛ هذا هو المطلوب الآن .. سيدك لا يريد أن يعرف من في السفارة الإنجليزية أن أحد أصدقائه – أي أنا – موجود في بيته ؛ أو أنه يعلم بأمر هذه الرسالة التي ستحملها إليهم ..

وبدا على الخادم أخيراً انه فهم ؛ فقد ابتسم قائلاً :

– إذا سألوني عنك أنكر وجودك ؟

فقال لطيف مسرعاً :

– كلا .. فلن يسألوك عني .. ولكن قل لهم إن سيدك هو الذي سلمك هذه الرسالة بنفسه .. إذا سألوك طبعاً .. !

– حسن يا سيدي .. فهمت

– ماذا فهمت ؟

– سأسلم الرسالة ؛ فإذا سألوني من أعطاها لي أقول سيدي ..

– تماماً ؛ أنت رجل ذكي ؛ خذ هذا المجيدي مني أيضاً حتى تعود بسرعة ..

فاشتد تهلل وجه الخادم وهو يدس الجنيه الثاني في عبه بيد ويختطف الرسالة من فوق المنضدة بيده الثانية ؛ ثم انطلق من الباب قائلاً :

– سأعود مثل الحمامة ..

وعاد لطيف يستلقي على الأريكة في اطمئنان ؛ لقد نجحت خطته ؛ وها هو قد اطمأن من ناحية الخادم ؛ وليس عليه إلا أن ينتظر حتى يوغل الظلام ثم يحمل جثة عزيز ليتخلص منها في قاع البسفور ؛ وفي الصباح يغادر استانبول نهائياً إلى مصر ؛ حيث يبدأ حياته الجديدة في خدمة سعيد باشا ؛ وكان الجهد الذي بذله قد أنهك قواه ؛ فأحس بالنوم يتسلل إلى جفنيه ؛ إنه في حاجة فعلاً إلى أن ينام قليلاً ليسترد قواه ؛ فلا يزال أمامه الكثير ليعمله ؛ وليس ثمة خطر في أن ينام ؛ فإن أي احتمال لانتكاس خطته غير موجود قبل أن يعود الخادم من السفارة الإنجليزية .. ومن ثم فقد استسلم للاسترخاء الذي دب في مفاصله وأغمض جفنيه وراح في نوم عميق ..

وانقضى وقت طويل لا يدري مداه قبل أن يحس بدبيب أقدام كثيرة في ردهة البيت ؛ ثم انفتح الباب فجأة ليدخل الخادم ووراءه ستراتفورد ثم الرجال الستة الذين هاجموا بيته في الليلة السابقة ؛ وقفز قلب لطيف إلى حلقه من الخوف ؛ وحاول أن يقوم ليدافع عن نفسه ؛ ولكن الذعر شل حركاته وقيد أطرافه ؛ وتحول كل شئ فيه إلى عينين تحدقان في رعب إلى ذراع الخادم التي امتدت تشير إليه في اتهامٍ :

- ها هو يا سيدي

ونظر إليه ستراتفورد نظرة زادته رعباً على رعبٍ ثم أشار إلى الرجال الستة فاستلوا خناجرهم وتقدموا نحوه في بطءٍ وقد انتشروا في حلقة محكمة أحاطت به من كل جانب ؛ وحاول لطيف أن يصرخ ؛ ولكن صرخته خرجت خرساء لا تكاد تصل إلى أذنيه هو .. ولمع خنجر مرهف أمام عينيه فأراد أن يرفع ذراعه يتقي بها الطعنة ولكن ذراعه كانت ثقيلة ثقلاً رهيباً فعجز عن تحريكها وقبل أن يهوي الخنجر قال الخادم في هدوء رهيب :

- لا تذبحوه ؛ فلا نريد أن نترك أثراً لدمائه يدل علينا ..

وخيل للطيف أن لصوت الخادم صدى عميقاً يتردد في أرجاء الغرفة ؛ فنظر إليه في دهشة ثم تملكه رعب أسود ؛ فبدلاً من أن يرى وجه الخادم الأبله ؛ رأى وجه عزيز النحيل ؛ وقال عزيز :

- ضعوه في هذه الحقيبة لنلقيه في البسفور

وامتدت أذرع الرجال تحمله إلى الحقيبة ؛ وعندما وضعوه فيها اكتشف أنها ليست حقيبة ؛ بل نعشاً خشبياً .. وبينما كان الرجال يضعون الغطاء فوقه سمع عزيزاً يقول لستراتفورد :

- تستطيع الآن يا صاحب السعادة أن ترسل رسالتك المزيفة إلى سعيد باشا في مصر

فقال ستراتفورد :

- سنرسلها .. مع لطيف بك نفسه ..

ولم يسمع لطيف شيئاً بعد ذلك ؛ فقد أحكم الرجال وضع الغطاء فوق النعش وبدأوا يثبتونه بالمسامير .. وأخذت دقاتهم تدوي في أذنيه وترج جسده رجاً .. ألا يكفون عن هذه الدقات ؟ .. إن كل دقة تعذبه كأنها تدفع بالمسامير في جسده ! .. ألا يكفون .. ؟ ألا يكفون ..؟

وفتح عينيه في بطءٍ .. وبالتدريج أخذ ظلام النعش ينجاب ليحل محله نور الغروب الرمادي .. وها هو سقف الحجرة فوق مرتفع عال بدلاً من غطاء النعش الذي كان يخنق أنفاسه .. ولكن الدقات لا تنقطع ؛ هي تتكرر عدة مرات ثم تسكت لتعود تتكرر .. وهي ليست دقات مسامير ؛ و إنما هي طرقات مهذبة على الباب .. أكان يحلم ؟ .. أجل ؛ لا شك في أن كل ما مر به كان كابوساً مزعجاً ؛ فها هو ذا راقد على الأريكة ؛ وها هو ذا الباب يطرق ويطرق ..

وقفز في سرعة جالساً ؛ وأخذ يحرك ذراعيه ورجليه ليتأكد من أنه قد استيقظ حقاً ؛ ثم صاح :

– من الطارق ؟

ففتح الباب على الأثر ودخل الخادم قائلاً :

– هل استيقظت يا سيدي ؟ لقد حل الغروب ورأيت أن أوقظك فربما كان لديك عمل ..

فنظر إليه لطيف في ارتياح ؛ ثم سأله :

– متى عدت من السفارة ؟

– منذ حوالي ساعة

– وسلمت الرسالة ؟

– نعم يا سيدي .. سلمتها للورد ستراتفورد يداً بيدٍ ؛ فقد وجدته واقفاً على باب السفارة يودع إلهامي باشا ؛ فانتظرت حتى ..

فقاطعه لطيف في دهشة :

– إلهامي باشا ابن عباس باشا ؟ !

– نعم يا سيدي ؛ وزوج بنت السلطان ..

فهز لطيف رأسه في عجب .. هذه ثاني مرة تلتقي فيها سبيله بسبيل إلهامي باشا خلال يوم واحد .. بل أقل من يوم .. أيكون القدر قد رسم لهما أن يلتقيا في المستقبل ؟ وكيف سيكون لقاؤهما .. عداءً أم تحالفاً ؟ إنه لا يدري ..

ومضى الخادم يقول :

– انتظرت حتى ابتعدت عربته ثم تقدمت إلى سعادة اللورد وأعطيته الرسالة ..

فسأله لطيف في اهتمام :

– ألم يقل لك شيئاً ؟

– لا ياسيدي ؛ فقد فتح الرسالة وقرأها في اهتمام ؛ ثم نفحني مجيدياً آخر ..

فضحك لطيف وقال له :

– لقد أصبحت ثرياً يا .. ما اسمك ؟

– اسمي كاظم يا سيدي ..

– لقد أصبحت ثرياً يا كاظم .. ثلاثة جنيهات في يوم واحد .. !

فابتسم الخادم وقال :

– هذا من كرم الله سبحانه وتعالى يا سيدي ..

– حسن يا كاظم .. بقيت أمامك مهمة صغيرة ..

وأشار إلى الحقيبة التي تضم جسد عزيز :

– سأنتظرُ حتى يحل الظلام ثم احملُ هذه الحقيبة إلى سيدك ..

فقال كاظم :

– أحملها أنا يا سيدي .. لماذا تتعب نفسك ؟

فقاطعه لطيف قائلاً :

– لا .. لا .. هذه رغبة سيدك .. أنت لا تعرف مكانه ؛ وهو لا يريد لك أن تعرف مكانه ..

فقال الخادم في استياءٍ :

– لماذا يا سيدي ؟ .. هل سعادته يريد أن يطردني من خدمته ؟

فابتسم لطيف وقال له مطمئناً :

– لا .. لا يا كاظم .. كل ما في الأمر أن سيدك قرر أن يختفي بضعة أيام ؛ إن له أعداء أشراراً كما تعرف ؛ وهو يريد أن يهرب منهم .. وسوف يعود بعد أيام كما قلت لك .. سيعود بمجرد أن يرحل أعداؤه .. وسيرحلون إلى مصر غداً ؛ وهو لا يريد أن تعرف مخبأه خوفاً عليك ؛ فربما استدرجوك وعذبوك لتقول لهم أين هو .. هذا كل ما في الأمر .. اطمئن .. اطمئن يا كاظم .. إن سيدك لن يطردك أبداً .. إنه لا يستطيع أن يطردك ..

واطمأن الخادم ؛ فقال وهو ينحني في أدبٍ :

– حسن يا سيدي .. ماذا تطلب مني أن أفعل إذن ؟

– عليك أولاً أن تعد لي عشاءً ؛ ثم تبحث لي عن عربة تطمئن إلى أن سائقها لا يفشي سر المكان الذي سينقلني إليه بالحقيبة ؛ هل تعرف أحداً تثق فيه ؟

– نعم يا سيدي .. أعرف رجلاً كان سعادة سيدي يكلفه بمهام كثيرة ويثق به ..

فابتسم لطيف وقال له :

– حسن .. أعد لي العشاء أولاً ؛ ثم ابحث لي عن هذا الرجل ..

تحير علي بك عندما أرسل إلهامي باشا يستدعيه إلى جناحه .. كان الوقت بعد الغروب بقليل ؛ وقد مر يوم سيده حافلاً بالمقابلات ؛ فقد زاره السفير الإنجليزي في الصباح ؛ وزاره السلطان في الظهر ؛ وزار هو السفير الإنجليزي في العصر ؛ فوجد علي بك نفسه يربط بين هذه المقابلات – التي لا يعلم بما دار فيها – وبين استدعائه المفاجئ إلى جناح سيده .. ولكنه فوجئ بما لم يكن يتوقع ؛ فما كاد سيده يخلو به حتى وجه إليه هذا السؤال :

– علي بك .. ما جزاء الخائن ؟

فنظر علي بك إليه في دهشة وتوجس ؛ وهو يردد :

– جزاء الخائن يا مولاي ؟

– نعم .. أليس القتل ؟

ووجد علي بك نفسه يتساءل إن كان شئ مما دار بينه بالأمس وبين بوليفار ولوليتا قد نقل إلى سيده ؛ فقال في حذرٍ :

– هذا يتوقف على نوع الجريمة يا مولاي ؛ وعلى قدر الضرر الناشئ منها ..

– حسن .. الذي يخونك فيفضح أسرارك ؛ ويتآمر عليك وعلى دينك ؛ ويبيعك لكل من يدفع الثمن ..

وتنفس علي بك في ارتياح ؛ فهذه تهم هو منها برئ ؛ بينما مضى إلهامي :

– بحيث تجد نفسك محاصراً بالفضائح ؛ مهدداً بالانزلاق إلى الكفر والإلحاد ؛ ومع هذا يستقبلك باسماً ضاحكاً ؛ يشرب معك ويأكل ؛ ويقدم إليك .. ..

وأدرك علي بك من ارتجاف صوته – وهو الجامد دائماً – ومن تصارع كلماته المتدفقة على لسانه – وهو الصامت أو شبه الصامت دائماً – أنه يمر بأزمة حادة ؛ ولم يحتج إلى ذكاءٍ كبيرٍ ليدرك أنها تتعلق بلوليتا .. ..

وكان علي بك – وهو الذي رافق إلهامي منذ كان صغيراً – يحس نحوه بأكثر مما يحس التابع نحو مولاه ؛ فقد رأى بعينيه مشاعر الطفل البرئ فيه تتحلل قطرة فقطرة وسط الجو العفن الذي يحيط به في البلاط ؛ ولمس بنفسه مرح الصبي الغض يتحول إلى قسوة وفجور تحت تأثير الخبث والنفاق اللذين يحاصرانه في القصر وفي مجلس الوكلاء ..

وكان يحس نحوه بعطف الإنسان الناضج على الإنسان الفج تلتهمه جراثيم الحياة .. وقد حاول أن يمد له يد المعونة المجربة المدركة ؛ ولكن محاولته جاءت متأخرة ؛ فقد سبقه العفن والخبث والنفاق إلى تحويل قلب الصبي إلى صخر أصم لا تنفذ منه أو إليه عواطف الإنسان .. وكان يحبه فعلاً ؛ وقد استمد من هذا الحب أملاً في أن يستطيع يوماً – حتى بعد أن يتلف العفن أنسجة هذه الثمرة الفجة – أن ينفذ إلى نواتها ؛ ويعينها على أن تبني أنسجتها من جديد .. وقد خيل إليه أن هذه اللحظة – التي كانت مجرد أمل – قد حانت أخيراً ؛ فلم يسبق له أن رأى إلهامي منفعلاً هذا الانفعال ؛ غاضباً لمثُلٍ أخلاقيةٍ هذا الغضب .. بل لم يسبق لإلهامي – منذ حاصره العفن – أن عرض عليه مشكلة طالباً منه أن يبدي فيها رأيه .. فلم يشأ – وقد اطمأن إلى أنه ليس المقصود بهذه الغضبة – أن يفلت هذه الفرصة التي قد لا تتكرر ؛ فتشبث بها منتظراً أن ينتهي إلهامي من حديثه الثائر الهادر .. وهكذا عاد ينصت إليه وهو يقول :

– ينبغي أن تقتل هذه المرأة وأن يقتل أبوها أيضاً ؛ إن لم يكن جزاءً لهما على خيانتهما ؛ فوقاية لبلدي وديني من مؤامرتهما هما وأصحابهما الملحدين ..

وبدا لعلي بك أن إلهامي قد انتهى من الحديث ؛ فانحنى في أدبٍ قائلاً :

– مولاي .. إن عليَّ السمع والطاعة ؛ ولكنني أتساءل ؛ إذا أذنت لي ؛ هل قررت فعلاً أنهما يستحقان القتل .. ؟

وبدا على إلهامي شئ من الغضب ؛ وهم بأن ينفجر في تابعه ؛ ولكن علي بك أسرع يقول :

– سؤالي يا مولاي لا يهدف إلى شئ سوى حماية ضمير ذاتكم البهية من أي ندم في المستقبل ؛ فالقتل ليس عقاباً يمكن الرجوع فيه ؛ القتل إزهاق روح خلقها الله يا مولاي ؛ وسوف ترفع إليه شكواها منكم إذا كانت بريئة ..

– لوليتا وأمثالها أروح لا يسمع الله شكواها .. !

– وكيف نجزم بهذا يا مولاي .. ؟ هذا شئ خاضع لمشيئة الله وحده ؛ إن شاء جل وعلا استجاب لشكواها وإن شاء ردها ..

– أنا لا أخطئ .. !

قالها إلهامي في حدة جعلت علي بك يخاف أن يفسد عليه إحساسه بالتميز والسمو عن البشر كل محاولاته ؛ فانحنى في خضوعٍ شديدٍ ثم قال :

– أنا واثق من هذا يا مولاي ؛ حاشا لذاتكم البهية أن تخطئ في قرار اجتمعت لها كل المعلومات والحقائق المؤدية إليه .. فهل اجتمعت لذاتكم البهية كل هذه المعلومات والحقائق التي تبرر قتلها ؟

– إنها ملحدة .. ! .. لقد أكد لي لورد ستراتفورد أنها من السان سيمونيين الملحدين ..

– مولاي .. ألا يحتمل أن يكون لورد ستراتفورد مخطئاً ؟

– ستراتفورد لا يخطئ في مثل هذه الأمور .. إنه يعرف السان سيمونيين لأنه أوروبي مثلهم ..

– إذا كانت معرفة السان سيمونيين كافية للحكم الصائب عليهم ؛ فإنني أعرفهم أيضاً يا مولاي ؛ لقد عشت في أوروبا ؛ وفي باريس نفسها ؛ سبع سنوات ؛ في تلك البعثة التي أرسلها المغفور له جدكم العظيم ؛ ولقد التقيت بكثير من أتباع سان سيمون ؛ و قرأت كل كتبه ؛ وأؤكد لذاتكم البهية أنهم ليسوا ملحدين ..

– ماذا تعني ؟

– سان سيمون يا مولاي مفكر اشتراكي ؛ والاشتراكية لا تعني الإلحاد بالضرورة ؛ فهناك اشتراكيون مؤمنون وهناك اشتراكيون ملحدون ؛ إن هذه الاتجاهات تختلف باختلاف الشخص نفسه ..

وبدا على إلهامي أنه لا قبل له بمثل هذه المناقشة ؛ فقد أشاح بوجهه في ملل ؛ ولكن علي بك أسرع يقول ليثير اهتمامه :

– مولاي .. إذا كان كل ما يدعو إليه الاشتراكيون إلحاداً وكفراً ؛ فجدكم العظيم طبق كثيراً مما يدعون إليه .. !

فأحس إلهامي كأنما لدغته عقرب ؛ والتفت إلى علي بك وصاح به ثائراً :

– ماذا تقول ؟ جدي كان كافراً وملحداً ؟ !

– إذا طبقنا نفس القياس يا مولاي .. إن ستراتفورد وأمثاله من بناة الإمبراطورية البريطانية يتهمون الاشتراكيين بالكفر لأنهم يريدون القضاء على الملكية الخاصة ؛ فماذا فعل جدكم العظيم غير هذا ؟ .. ألم يجمع حجج الأرض من الفلاحين ويحرقها جاعلاً من الدولة – ممثلة في ذاته العلية – المالك الوحيد لجميع الأراضي ؟ أليس هذا إلغاء للملكية الخاصة يشبه إلى حد كبير ما يطالب به الاشتراكيون ؟

فَمَاذَا فَعَلَ جَدُّكُمُ العَظِيمِ غَيْرَ هَذَا ؟ .. أَلَمْ يَجْمَعَ حُجَجَ الأَرْضِ مِنَ الفَلَّاحِينَ وَيَحْرِقَهَا جَاعِلاً مِنَ الدَّوْلَةِ – مُمَثَّلَةً فِي ذَاتِهِ العَلِيَّةِ – المَالِكَ الوَحِيدِ لِجَمِيعِ الأَرَاضِي ؟ أَلَيْسَ هَذَا إِلْغَاءً لِلْمِلْكِيَّةِ الخَاصَّةِ يُشْبِهُ إِلَى حَدٍ كَبِيْرٍ مَا يُطَالِبُ بِهِ الاشْتِرَاكِيُّونَ ؟

فَمَاذَا فَعَلَ جَدُّكُمُ العَظِيمِ غَيْرَ هَذَا ؟ .. أَلَمْ يَجْمَعَ حُجَجَ الأَرْضِ مِنَ الفَلَّاحِينَ وَيَحْرِقَهَا جَاعِلاً مِنَ الدَّوْلَةِ – مُمَثَّلَةً فِي ذَاتِهِ العَلِيَّةِ – المَالِكَ الوَحِيدِ لِجَمِيعِ الأَرَاضِي ؟ أَلَيْسَ هَذَا إِلْغَاءً لِلْمِلْكِيَّةِ الخَاصَّةِ يُشْبِهُ إِلَى حَدٍ كَبِيْرٍ مَا يُطَالِبُ بِهِ الاشْتِرَاكِيُّونَ ؟

– ولكن .. جدي حج بيت الله الحرام .. مستحيل أن يكون كافراً وملحداً ..

– إذن ؛ فستراتفورد على خطأ يا مولاي والاشتراكيون ليسوا كفاراً وملحدين .. !

وأحس إلهامي بالحيرة إزاء هذا المنطق ؛ ولكن حيرته لم تطل ؛ فقد تخلص منها سريعاً ليقول :

– على أية حال .. سواء كانوا ملحدين أو غير ملحدين ؛ فقد باعني بوليفار ولوليتا لستراتفورد ؛ وقدما تقارير عن سهراتي وأقوال وأفعالي إليه .. وهذا ذنب يستحق وحده أن يقتلا بسببه ..

– مولاي ؛ لقد أثبت لسموكم أن ستراتفورد مخطئ في التهمة الأولى ؛ أليس من المحتمل أن يكون مخطئاً أيضاً في هذه التهمة الثانية ؟

– وكيف يكون مخطئاً والتقارير تقدم إليه شخصياً ؛ وهو الذي يدفع لهما ثمن هذه التقارير بنفسه ..

فابتسم علي بك قائلاً :

– وهل يفضح إنسانٌ رجلاً يقوم بخدمته ويخون أصدقاءه من أجله ؟

– ماذا تعني ؟

– أعني يا مولاي أن بوليفار ولوليتا لو كانا يعملان حقاً لحساب ستراتفورد ضد سموكم لما فضحهما أمامك ؛ إنه بذلك يحرم نفسه من خدماتهما التي لو صحت لكانت جليلة عظيمة القيمة له ..

وبدت الحيرة مرة أخرى على إلهامي وهو يقول :

– ولكن .. كيف .. كيف أفسر أنه يعلم كل ما أفعله في بيتهما ؟

– ربما كان هناك جاسوس يعمل عندهما ؛ خادماً أو .. ..

فقاطعه إلهامي :

– ليس عندهما خدم .. ثم إنهما يخليان بيتهما من أي مخلوق عندما أذهب إلى هناك .. أنت الذي تشرف على هذا بنفسك

– مولاي .. في الأمر سر على كل حال .. ولا يكشف الأسرار إلا بحثها ..

– فبماذا تشير عليَّ ..

– اقترح – إذا أذنتم لي سموكم – أن تناقشوا الأمر كله مع بوليفار ..

– بوليفار قواد وكذاب .. وسيحاول أن يخدعني ..

– لتستمع إلى أقواله على الأقل .. وبعد ذلك تقرر سموكم ما ترى ..

فأطرق إلهامي لحظة مفكراً ؛ ثم رفع رأسه قائلاً :

– إذن .. هيئ نفسك لنقوم بزيارة مفاجئة لبوليفار ..

وانطلق علي بك وهو يحس بسعادة كبيرة بعد أن استطاع أن ينفذ إلى قلب النواة التي يحيط بها العفن ؛ وأن ينقذ حياتين من براثن هذا الفتى الذي يراد له أن يكون طاغية أسود القلب كأبيه ..

** ** **إلهامي يواجه بوليفار والأخير يشكك في علي بك

– أنا أخونك يا مولاي .. ؟ !

قالها بوليفار وهو يضحك في أعماقه من هذا الفتى الذي جاءه يلتمس عنده تفسيراً لخيانته ويطالبه بتقديم الدليل على براءته منها .. وقد أدرك من حيرته واضطرابه أنه مستعد لتصديق أية أكذوبة يلقيها إليه .. عليه فقط أن يجيد سبكها وإلقاءها .. فأحنى رأسه كاشفاً عن عنقه وقال :

– هاك عنقي يا مولاي فاضربه بسيفك إن شككت في ولائي لحظة ..

وظل في إنحنائه إلى القدر الذي رآه كافيا لإثارة عطف إلهامي ؛ ثم رفع رأسه قائلاً :

– لم أكن أظن يا مولاي أن يأتي عليَّ يوم أسمع فيه بأذنيَّ أن سموكم تشك في إخلاصي لك وتفانيَّ في خدمتك ..

– فبم تفسر إذن ما قاله لي ستراتفورد ؟

وشعر بوليفار بالحقد على ستراتفورد الذي باعه لإلهامي بكلمة واحدة .. إنه هو نفسه قد باع ستراتفورد لرينين دي برسيفال ؛ ولكنه لم يكن يتصور أن يكون ستراتفورد قد باعه في نفس اللحظة لإلهامي .. على أنه تخلى في الحال عن هذا الحقد على ستراتفورد ؛ فهو أول من يعلم أنه عاجز عن الانتقام منه ؛ ووجه تفكيره إلى ناحية يستطيع أن يستفيد منها ؛ وهي استغلال هذا الموقف لإحكام سيطرته على إلهامي واكتساب ثقته وإبعاد واحد من أكبر من يثق فيهم إلهامي من حاشيته .. وتبلورت الخطة في ذهنه بسرعة ؛ فقال :

– مولاي .. استانبول مملوءة بالجواسيس ..

– ولكن علاقتي بابنتك لا يعلمها أحد سواك ..

– مولاي .. اسمح لي بأن أذكرك بأن تابعك علي بك يشاركني في العلم بهذه العلاقة ..

– علي بك .. ؟

قالها إلهامي في استنكار ..

– أتتهم علي بك يا بوليفار ؟

– عفواً يا مولاي .. أنا لا أتهم أحداً .. ولكنني أسمح لنفسي فقط بأن أذكر سموكم بأنني لست الوحيد الذي يعلم هذه العلاقة التي يشرفني أن تقوم بينكم وبين ابنتي ..

– علي بك لا يخونني .. أبداً .. !

– سموكم أدرى بتابعكم ..

– طبعاً .. علي بك من أشرف الرجال الذين يعملون في خدمتي ومن أشدهم إخلاصاً لي ..

– لا يجسر مثلي على أن يعترض على رأي تؤمنون به سموكم ؛ ولكن ولائي وإخلاصي يدفعني إلى أن أرجو سموكم رجاءً حاراً أن تعيدوا النظر في ولاء علي بك وإخلاصه ..

– أنا لا أسمح لك بأن تتحدث عن علي بك بهذه الطريقة ..

– إذن يسمح لي مولاي بأن أقوم بتجربة صغيرة ..

– وهي ؟

– هي أن تتكرموا وتعيدوا تمثيل ما حدث بالأمس

– ماذا تقصد بالضبط ؟

– بالأمس .. أسرفتم سموكم في الشراب حتى فقدتم الوعي .. معذرة لهذه الصراحة التي يغفرها لي إخلاصي لسموكم ..

– دع هذه الاعتذارات الآن وامض في حديثك ..

– واجتمعنا كلنا – لوليتا وعلي بك وأنا – نحاول أن نعيد سموكم إلى وعيه ؛ وعندئذٍ – ولا أدري لماذا – بدأ علي بك يتحدث عن سموكم حديثاً ليس من الولاء في شئ ..

– ماذا قال ؟

– كلا .. اسمح لي يا مولاي أن أعفي لساني من النطق بالألفاظ البذيئة التي قالها ؛ ولكن ؛ لو أعدتم سموكم تمثيل هذا الموقف الآن فسوف تسمعونها بلسانه هو ؛ وكل ما على سموكم أن تفعلوه هو أن تتظاهر بأنكم شربتم حتى فقدتم الوعي مرة أخرى ..

– هذا أمر هين ؛ ولكن لو اتضح أنك كاذب فسوف ..

فقاطعه بوليفار :

– لقد قدمت عنقي لسموكم لتضربوها بالسيف منذ لحظة ؛ وهي مازالت رهن أمركم ؛ تفضل يا مولاي إلى غرفة ابنتي الخاصة حتى تبدأ التجربة ..

** ** **تمثيل لكشف إخلاص علي بك

كان علي بك في موقعه يحرس الباب الخلفي لبيت بوليفار ؛ عندما فتح وناداه هذا قائلاً :

– أسرع يا بك ؛ فسيدك قد فقد الوعي ..

وقفز علي بك إلى داخل الحجرة فرأى لوليتا شبه عارية ؛ ورأى زجاجتي خمر فارغتين والثالثة فقدت أكثر من نصفها ؛ ففهم كل شئ ؛ وقال وهو ينحني على إلهامي فاحصاً :

– أسرعي يا سيدتي بمنشفة مبللة بالماء

فقال بوليفار وهو يشير إلى لوليتا بأن تمتثل لأمر علي بك :

– علي بك .. لقد سئمت كل هذا .. أكلما شرب سيدك كأساً أو كأسين يفقد الوعي ويسبب لي المشاكل ..

فقال علي بك ضاحكاً :

– لو كنت مكانك لحمدت الله على هذا ؛ فقد كان في نيته عندما جاء الليلة أن يقتلكما ..

فضحك بوليفار وهو يقول :

– بسبب هذه الدسيسة التي أثارها عبد الكاننج بيننا ؟ كلا يا عزيزي البك .. لقد صفينا المسألة بعد كلمتين اثنتين

فقال علي بك :

– هذا ما توقعته ؛ فلم اكن أتصور أبداً أن تكون أنت وابنتك جاسوسين للورد ستراتفورد .. ولكن بقي السؤال قائماً دون إجابة .. من هو الجاسوس الذي يبلغ ستراتفورد بزيارات سموه لبيتك ؟

وضاق بوليفار بهذا الاتجاه الذي اتخذه الحديث ؛ فعاد مسرعاً إلى حيث يريد :

– سيظهر هذا في الوقت المناسب ؛ ولكنني أحمد الله كما قلت أنت ؛ فلو كان سموه قد ورث الظلم والقسوة عن أبيه كما قلت أمس لما نجتني براءتي من سيفه ..

– بغير شك .. بغير شك يا مسيو بوليفار .. فإلهامي باشا لين العريكة وقابل للتفاهم والمناقشة ..

– ولو كان أبوه مكانه ؟

فضحك علي بك :

– لو كان أبوه مكانه لسمعت الآستانة كلها صراخك وأنت تجلد بالسياط .. !

– تماماً .. هذا ما سمعته عنه

– ما سمعته عنه يا مسيو بوليفار لا يصور إلا عشر معشار حقيقته ..

– هكذا .. ؟ .. فلعله إذن أشد ظلماً من جده محمد علي .. !

فضحك علي بك وهو يقول :

– المقارنة بينهما مستحيلة ! فكل منهما سفاح من لون خاص لا يشبه فيه الآخر .. !

– ولكن كلاً منهما سفاح .. !

– وسفاح رهيب يا مسيو بوليفار .. والحمد لله أن العرق ليس دساساً مع إلهامي باشا ..

وكف علي بك عن الكلام فجأة ؛ ونظر إلى إلهامي وهو ينهض جالساً ؛ يحدق إليه بنظرات ملتهبة ؛ فاسرع ينحني أمامه قائلاً :

– مولاي .. !

– اخرس أيها الكلب الحقير .. ! أتعض اليد التي أنعمت عليك وعلمتك وانتشلتك من أكواخ الفلاحين لتعيش في القصور .؟

وأحس علي بك بدماء الغضب تندفع في عروقه ؛ فرفع رأسه وقال محتجاً :

مولاي .. !

– اغرب عن وجهي أيها الكلب .. ! اغرب عن وجهي .. سأرسل بك إلى مصر ليتولى سمو أبي عقابك .. اغرب عن وجهي . !

ثم غادر الغرفة ؛ والبيت كله ؛ مسرعاً إلى قصره ..

ووقف علي بك ينظر إلى بوليفار الذي كان يرقبه بنظرات ثعلب ؛ ودخلت لوليتا وفي يدها المنشفة المبللة بالماء ؛ وسألت :

– أين الباشا .. ؟

فقال بوليفار ضاحكاً :

– لقد انتهت اللعبة يا عزيزتي .. ! .. انتهت اللعبة

وردت هذه الضحكات الوقحة علي بك إلى الحياة ؛ فقال لبوليفار في ازدراءٍ :

– حقاً لقد انتهت اللعبة ؛ ولقد أحسنت لعبها ..

– معذرة يا عزيزي البك .. إنها السياسة .. ولو كنت مكاني لفعلت نفس الشئ ..

– لا يا مسيو بوليفار ؛ فقد كنت مكانك منذ ساعتين ؛ ولكنني بذلت جهدي لأزيل غضب الباشا عليك .. كنت أَبْلَهَ .. أليس هذا رأيك .. ؟

فقال بوليفار وهو يشيح بوجهه في صفاقةٍ :

– أنا لا أهتم بتحليل تصرفات الناس يا بك

فقال علي بك في ازدراءٍ :

– صدقت ؛ فالجو العفن الذي تعيش فيه لا يترك لك وقتاً لفهم أي شئ نبيل .. !

وفتح الباب وخرج ..

وعندما لفح هواء البسفور الرطب جبينه ؛ ارتد إليه بعض هدوئه وصفاء ذهنه ؛ فأخذ يستعيد كل ما مر به .. وكان كل شئ يؤكد له أنه وضع نفسه في مأزق لا نجاة منه .. وهل هناك نجاة من سخط إلهامي وسخط عباس .. ؟ إن أقل ما ينتظره على أيديهما هو القتل .. ولكنه لم يجزع لهذه الفكرة كما كان يتصور ؛ فليقتله إلهامي أو فليرسله إلى عباس ليقتله ؛ ولكنه يحس بارتياح لما حدث ..

ووقف على شاطئ البسفور يستعيد حياته ؛ متأملاً فيما حفلت به من تناقضات .. لقد كان طفلاً حافياً عارياً منذ ثلاثين سنة ؛ يعيش في كوخ في إحدى قرى صعيد مصر .. يأكل هو وأهله "الحندويل" ؛ ويستعينون علي مضغه وابتلاعه بالماء العكر .. ثم انتزعه جنود الباشا من أحضان أمه ؛ وأدخلوه مدرسة ؛ وأرسلوه في بعثة ؛ فعاش في باريس سبع سنين ؛ ثم عاد إلى مصر ليصبح من كبار الموظفين ؛ يعيش في قصر ؛ ويلبس فاخر الثياب ؛ ويجري المال بين يديه بغير حساب ..

ولقد كان يظن أن ما صار إليه من ثراءٍ وسلطةٍ سوف يجعله أسعد مما كان أيام الجوع والعري ؛ ولكن هذا الظن تلاشى عقب عودته من أوروبا ؛ تلاشى في أول زيارة قام بها إلى قريته .. إنه يذكر تماماً تلك اللحظة التي دخل فيها بيتهم في القرية .. كان يلبس سترته الرسمية ؛ ويحمل إلى أمه قطعة من حرير باريس ؛ وإلى أبيه حذاء فاخراً لامعاً ؛ وإلى إخوته حلوى وطعاماً كثيراً .. و كان يتوق إلى الاستمتاع بالسعادة التي ستغمرهم جميعاً وهو يغرقهم بهداياه التي لم يروا مثلها في حياتهم .. ولقد سعدوا حقاً ؛ وسعدوا سعادة تفوق ما كان يقدر ؛ ولكنه لم يستمتع أبداً بهذه السعادة ..

عندما لفت أمه قطعة الحرير حول جسمها تقيسها ؛ رأى – لأول مرة في حياته – مدى النحول والضمور الذي يأكل جسدها الواهن .. وعندما مد أبوه ساقه ليضع فيها الحذاء اللامع رأى – لأول مرة – طبقات الطين التي التحمت بجلد قدميه فأماتت فيها كل إحساس ؛ ورأى تلك الشقوق التي خلفتها سنوات طويلة من الحفاء ؛ ومن السعي الدائب خلف رغيف "الحندويل" .. وعندما امتدت أيدي إخوته إلى الطعام والحلوى رأى – لأول مرة – في عيونهم جوع أجيال وأجيال من آبائه وأجداده ؛ عاشوا في هذا البيت ؛ وعلى هذه الأرض ؛ لا يجدون ما يقيم الأود أو يسد الرمق ..

فكيف كان من الممكن أن يستمتع بسعادتهم ؟

كانوا سعداء حقاً ؛ ولكنها سعادة الحرمان الذليل ؛ لا سعادة التملك الكريم .. !

ومنذ هذه اللحظة لا يذكر أنه استمتع بشئ مما كان يملك من ثراء وسلطة .. ولقد بذل لأهله ما وسعه البذل ؛ واستطاع أن ينقلهم من الكوخ القذر إلى بيت نظيف ؛ وأن يطعمهم اللحم والخضر والفاكهة ؛ وأن يلبسهم أحذية وثياباً نظيفة ؛ ولكن الإحساس بالراحة لم يدخل قلبه أبداً .. أبداً .. كان يشعر بأن على قلبه يرين ثقل كئيب يخنق فيه كل فرحة ؛ ويئد كل نشوة

ولكنه الليلة ؛ بعدما حدث بينه وبين إلهامي ؛ يحس بأن قلبه قد تخفف من هذا الثقل ؛ وهو سعيد بهذا ؛ رغم ما تهدده به إلهامي من عقابٍ قد يفقد فيه حياته ..

فليكن .. إنه أحمق ؛ ولكنه سعيد .. !

(13)

أخذ إلهامي باشا يدور في غرفته وبركان ثائر من الغضب يهدر في صدره .. جده العظيم وأبوه ظالمان سفاحان ؟ ومن الذي يصفهما بهذه الصفة ؟ عبد فلاح لا أصل له عريق ؛ ولا أسرة ينتمي إليها ؟ هل يفسد التعليم والسلطة أولئك الفلاحين فتبرز ما تجنه نفوسهم الوضيعة من خسة وخيانة ؟ كان ينبغي أن يطلق عليه الرصاص أو يحتز رقبته بالسيف في بيت بوليفار .. وهو لا يدري لماذا لم يفعل ذلك ؟ كيف لم تخطر له هذه الخاطرة ؟ إنها أقل ما تستحقه تلك الخيانة السافرة ؛ ولكن الفرصة لم تضع بعد

ومد يده فطرق الصنج ليدعو وصيفه الذي دخل مطرقاً في ذلةٍ ينتظر الأمر :

– احضر علي بك سريعاً ..

وانحنى الوصيف في أدب ؛ ثم انسحب ليرسل أحد الخدم يبحث عن علي بك ؛ و أخرج إلهامي غدارته وفتح خزانتها ليتأكد من حشوها .. ثم صوبها نحو الباب ليفرغها في صدر علي بك بمجرد أن يدخل الغرفة .. وانقضت لحظة قصيرة طرق بعدها الباب ؛ فصاح آمراً الطارق بالدخول و هو يحكم تصويب الغدارة ؛ ولكن الباب الذي فتح لم يقدم إليه صدر علي بك ؛ و إنما قدم الوصيف الذي عاد ينحني و يقول في أدب :

– سعادة درويش باشا ..

– أين علي بك ؟

– الخدم يبحثون عنه يا مولاي .. وسعادة درويش .....

– هل هرب الكلب ؟

و أثار هذا الوصف دهشة الوصيف المنحني ؛ فرفع عينيه إلى سيده ؛ وعندئذٍ رأى غدارةً تصوبها نحوه يدٌ يرعشها الغضبُ ؛ فامتقع وتراجع مذعوراً وهو يصرخ :

– مولاي .. مولاي ..

– أريد هذا الفلاح في الحال .. !

– حسن يا مولاي .. حسن يا مولاي ..!

ثم غادر الغرفة ؛ وهو يعدو لاهثاً .. وأحس إلهامي بالنشوة لمنظره المذعور ؛ إن أولئك العبيد جبناء يرتعدون لمجرد رؤية الغدارة ؛ وأخذ يتخيل ملتذاً منظر علي بك عندما يدخل فيجد الغدارة مسددة إلى صدره .. ينبغي عليه ألا يطلقها بمجرد دخوله ؛ وإنما يستمتع بمنظره المذعور لحظة قبل أن يقضي عليه .. وكلما طالت لحظة الذعر زاد تعذيبه ؛ نعم ؛ فالموت وحده ليس عذاباً ؛ ولكن خوف الموت هو العذاب الحق .. وخطرت له فكرة زادته تلذذاً ؛ فلاشك أن الوصيف المذعور – وقد أدرك ما ينتظر علي بك على يديه – لن يأتي به إليه محترماً مكرماً كما تقتضي مكانته في القصر ؛ بل إنه سيتشفى فيه ويتحين هذه الفرصة لإذلاله ؛ فهو يكرهه ويحتقره في أعماقه ؛ كل أتباع الأتراك يكرهون علي بك هذا الفلاح الحقير الذي رفعته أفضال جده إلى صفوفهم .. إنه لا يستبعد أن يصدر الوصيف أمراً بتكبيل علي بك بالسلاسل وجره على الأرض حتى يلقيه تحت قدميه ..

وهكذا أخذ إلهامي يتخيل – في لذة وحشية – منظر علي بك مقيداً بالسلاسل ؛ وجنود الحرس يسحبونه سحباً على الأرض ؛ والأغوات خلفه يشبعونه ركلاً وضرباً .. أليس هذا شيئاً أكثر إمتاعاً من إطلاق الرصاص عليه مباشرة ؟ ولماذا لا يفعلها ؟ لماذا لا يطيل عذابه قبل أن يقتله ؟

واستقر رأيه على ألا يطلق عليه الرصاص ؛ بل يصوب الغدارة إليه وهو مكبل بالقيود ؛ ثم يأمر الأغوات – الذين سيبتعدون عنه بمجرد دخوله – بأن يعودوا إلى ركله وضربه ؛ بل سيأمرهم بأن يضربوه بالسياط أمامه .. إنه بهذا يقتله مائة مرة .. مرة مع كل سوط ومرة في كل ركلة ..

ولكن إلهامي نسي ما يمكن أن يفعله الذعر في الوصيف الجبان ؛ فإنه ما كاد يغادر القاعة حتى أسرع إلى درويش باشا في السلاملك ليحتمي به ؛ وقد نسي تماماً في ذعره أمر علي بك ..

ولذلك فوجئ إلهامي بعلي بك ؛ يدفع الباب ثم يدخل دون استئذان ؛ مهملاً كل قواعد السلوك الواجب اتباعها نحو الذات البهية .. فاستشاط إلهامي غضباً وصاح به :

- لماذا لم تستأذن ؟

فنظر علي بك إلى الغدارة المصوبة نحوه ؛ ثم قال في سخرية :

- وهل سيمنع الاستئذان هذه الغدارة من أن تنطلق ؟

وزاد هدوء من غضب إلهامي ؛ فصرخ :

- أين وصيفي .. ؟ أين الأغوات ؟

فهز علي بك كتفيه في غير اكتراثٍ ؛ فعاد إلهامي يصرخ :

- تكلم .. أين هم ؟

- وأنى لي أن أعرف ؛ لقد جاءني أحد خدمك وقال لي إنك تريدني ؛ لم أر لا الوصيف ولا الأغوات ..

ثم تقدم إلى مقعد وثير فجلس عليه في هدوء ووضع ساقاً على ساق ؛ ثم نظر في تحدٍ إلى إلهامي الذي ألجمته هذه الجرأة ؛ فاخذ يحدق إليه بنظراتٍ زادها الاستفزاز التهاباً ؛ وصرخ به :

- هل أذنت لك بالجلوس ؟

فابتسم علي بك وقال وهو يطوح بساقه في الهواء :

- لا ..

- لماذا جلست إذن ؟

- لأنني أفضل أن أموت وأنا جالس

وأحس إلهامي باشا بقلق مبهم يجتاحه ، فإن هذه القحة لا تتفق مع ما رسمه خياله من ذعر وخوف يريد أن يتلذذ بهما .. إن هذا العبد الفلاح يطوح بساقه في الهواء ويبتسم في وجهه وكأنه جالس إلى صديق ودود ؛ لا مقدم على موت قدره له نصف إله .. وقال علي بك وهو لا يزال يبتسم :

- إني مصر يا باشا على أن أموت على هذا المقعد بالذات ؛ فهل تخاف أن تقتلني فيه ؟ هل تخشى أن يصبغ دمي حريره الفاخر بصبغة لا تزال تطالعك حمرتها كلما دخلت حجرتك أو غادرتها ؟

ولم يفهم إلهامي من هذه الجملة الطويلة إلا عبارة واحدة (تخاف أن تقتلني) وهل مثله يخاف ؟ إنه لم يخف في حياته جبابرة عتاة ، فهل يخاف هذا العبد الفلاح الذي لا يملك من أمر نفسه إلا ما يريده له هو ؟ ولكنها القحة التي حلت فيه فجأة

- أنا لا أخافك أيها الكلب ..

- لماذا لا تطلق النار إذن ؟ الغدارة في يدك ، وصدري أمامك مفتوح ..

حقاً ، لماذا لا يطلق النار؟ أية قوة تلك التي تمنع يده ؟ لعلها تلك النظرة الهادئة التي تطالعه من عينين سوداوين عميقتين ، أو لعلها تلك البسمة الهازئة التي تداعب شفتين مزمومتين في ازدراء .. أجل ، لابد أن تختفي تلك النظرة الهادئة لتحل محلها نظرة ذعر وهلع ؛ ولابد أن تكف تلكما الشفتان عن الابتسام الهازئ المزدري لتتوسلا وتبكيا وتستعطفا .. وهو يعرف كيف يصل به إلى ذلك ، إنه السوط ! ولقد فهم الآن لماذا يفضل الحاكمون السوط على السيف في معاملة أولئك الفلاحين .. من السهل على أي إنسان أن يكون شجاعاً أمام الموت ، خصوصاً إذا لم يكن ثمة أمل في النجاة ، ولكن المحك هو في تحمل الألم المستمر دون أمل في النجاة أيضاً ، والفلاحون لا يأبهون بالموت ولكنهم يركعون أمام الألم ..

ونحى الغدارة جانبا ليمسك بالسوط ، وهو يقول :

- قبل أن أقتلك سأمزق جلدك الخسيس ..

فازدادت البسمة اتساعا على الشفتين المزمومتين ، ثم انفرجتا لتقولا :

- آمنت الآن بأنك ابن أبيك حقاً ..

فقال إلهامي وهو يفرقع بالسوط في الهواء فوق رأسه :

- وسيقوى إيمانك بهذا مع كل ضربة سوط ..

ورفع ذراعه بالسوط ليهوي به عليه ؛ ولكن علي بك قال وهو لا يزال يبتسم :

- انتظر لحظة واحدة لأقول لك آخر كلمة أختم بها حياتي معك طوال هذه السنين ..

فتوقفت ذراعه بالسوط ، وقد اشتم في إشارته إلى رفقة السنين الطويلة تمهيداً للاستعطاف والاسترحام ، ولكن علي بك قضى على هذا الظن عندما قال :

- لقد خيبت آخر أمل طيب لي فيك .. عندما أردت قتلي بالغدارة قلت في نفسي : حفيد يغضب لمهانة لحقت بأبيه وجده ، وهذا رغم انحرافه إحساس شريف يمكن بشيء كثير من التغاضي أن أحترمه ، أما وقد استبدلت بالغدارة السوط فقد كشفت عن حقيقتك .. أنت لست شريفاً يثأر ، بل أنت جلاد يستمرئ التعذيب ..

فأسرع إلهامي يهوي بالسوط على العينين الهادئتين والوجه الباسم . وعندما ارتفع السوط لم يخلف تغييراً له وزن ، فباستثناء ذلك الخط الأحمر الذي امتد من أعلى الجبهة ماراً على الحاجب الأيمن ثم منحدراً على الخد ، لم يطرأ على الوجه جديد ، فلا زالت العينان السوداوان العميقتان تنظران إليه في هدوء ؛ ولازالت الشفتان المزمومتان ترسمان بسمة هازئة .. وعاد السوط يرتفع ويهوي ، ثم يرتفع ويهوي ، وتعددت الخطوط الحمراء وتقاطعت ، وبدأ الدم ينبجس منها قنوات رفيعة تنحدر على الوجه ثم تتساقط قطرات متتابعة على الصدر ، ولكن العينين لازالتا هادئتين ، وإن خالط هدوءهما ألم ، والشفتين المزمومتين لازالتا مبتسمتين وإن امتزجت ببسمتهما مرارة .. وعاد السوط يهوي ويرتفع ، ثم يهوي ويرتفع ، ومع كل ضربة أخذ هياج إلهامي يشتد ، وصياحه يرتفع :

- اصرخ .. اصرخ .. !

ولم يكن في نية علي بك أن يصرخ ، ولكن إصرار إلهامي على أن ينتزع من شفتيه صرخة زاده تصميماً على ألا يصرخ .. كان يحس أولاً بأنه لو صرخ فإن صرح الراحة الذي يسنده أمام التعذيب سوف ينهار . أما بعد أن أصر إلهامي هذا الإصرار المجنون على أن يصرخ فقد أحس بقضية أقوى من الراحة وأقوى من الموت تمنعه من أن يصرخ ، خيل إليه أن صرخاته ستحفر شقوقاً جديدة في قدمي أبيه ، وستغذى نحول الموت الزاحف إلى جسد أمه ، وستمد في عمر أجيال الحرمان التي تطل من عيني إخوته ، فصمم على ألا يصرخ حتى ولو مزق جلده شرائح ، حتى ولو كحت السوط لحمه عن عظمه.

- اصرخ .. اصرخ .. أيها الكلب .. !

ومع ارتفاع صيحات إلهامي المجنونة ، والتماع عينيه ببريق معتوه ، أحس علي بك بالراحة تمتد من قلبه وتسري في أطرافه حتى تصرفه عن الإحساس بألم السوط ..

- اصرخ .. اصرخ أيها الفلاح .. !

وتوارى وجه إلهامي المحموم أمام أشباح تراءت لعيني علي بك .. فقد رأى قدمين حافيتين تغطيهما طبقات فوق طبقات من التراب ، وتغور في لحمهما الميت شقوق سوداء كالحة ، ورأى جسداً ناحلاً يدب إليه ذبول الموت ، ورأى عيوناً يفتحها الحرمان مدهوشة مذهولة ..

- اصرخ .. لابد أن تصرخ ..

وبدأت طبقات التراب تتساقط عن القدمين الحافيتين وأخذت الشقوق تلتئم لتبرز مكانها عروق نابضة وعضلات مفتولة ، وبدأت لمسة الحياة الوردية تطرد ذبول الموت عن الجسد الناحل الضامر ، وانزاحت النظرة المدهوشة من العيون المحرومة لتحل محلها نظرة رضى وسعادة ..

- اصرخ .. لابد أن تصرخ .

وزادت بسمة علي بك اتساعاً.

- اصرخ .. إني آمرك .. !

وتراقصت البسمة على الشفتين ..

- إني آمرك .. آمرك بأن تصرخ .

وعادت البسمة تتراقص ..

- آمرك .. أنا آمرك .. أنا إبراهيم باشا إلهامي .. آمرك .. آمرك .. »

ولكن البسمة اللعينة لاتزال تتراقص ، والسوط لايزال يهوي ويرتفع ، وصياح إلهامي يعلو ويعلو:

- إني آمرك .. هذا أمر .. ستصرخ .. ستصرخ .. أنت ستصرخ لأني أمرتك .. أنت عبد وأنا ذات .. اصرخ .. إني آمرك بأن تصرخ .. آمرك .. لابد أن تصرخ لأني أمرتك .. اصرخ .. فأمري لابد أن ينفذ .. إني آمرك .. لا تحطم أوامري يا ستراقورد .. لا تحطم أوامري .. أرجوك ألا تحطم أوامري .. قل إنك ستصرخ .. قلها فقط .. قلها فقط يا ستراتفورد .. قل إنك تطيعني .. قل إنني ذات .. قل ياستراتفورد إنني ذات بهية .. أنا ذات بهية .. أنا .. أنا يا ستراتفورد .. أنا ..

وشعر علي بك بأن السوط لم يعد يهوي على وجهه ، ورن اسم ستراتفورد في أذنيه غريباً ناشزاً وسط دوامة الألم التي تعتصر رأسه ، فرفع يده ومسح في بطء قنوات الدم التي تسيل فوق عينيه ، ثم نظر ، فرأى على باب الحجرة حشداً من الخدم والأغوات والحرس ، وأمام الجميع وقف درويش باشا بشيخوخته الراعشة . وكانت أفواه الجميع فاغرة ، وعيونهم محدقة إلى بقعة على الأرض تحت قدميه ، فغالب الألم وأحنى رأسه ليطل إلى أسفل ، فرأى جسد إلهامي الضخم مكوماً على الأرض تحت قدميه ، ويديه تتشبثان بركبتيه اللتين تلوثتا بدمائه ، وكان يبكي بكاء ترتج له كتلة اللحم الغليظة فوق كتفيه وبينهما ، فأدرك أنه انتصر .. لقد انتصرت القدمان الحافيتان المشقوقتان ، وانتصر الجسد الناحل الضامر ، وانتصرت العيون المحرومة المدهوشة ، فابتسم ، ثم استسلم للألم الذي غالبه خلال هذا الوقت ، فغاب عن وعيه ..

** ** **

وتقدم درويش باشا إلى جسد إلهامي المكوم على الأرض ، فانحنى فوقه ، وأخذ يربت كتفه مردداً في عطف :

– يا ولدي .. قم يا ولدي .. قم معي ..

وفي بطء شديد أدار إلهامي رأسه ، فرأى درويش باشا منحنياً فوقه ، وخلفه عشرات الوجوه ، وجوه سمراء مصرية ، ووجوه سوداء زنجية ، ووجوه شقراء شركسية ، وفي كل هذه الوجوه عيون تحاصره بنظرات جامدة لا حياة فيها .. فأخذ إلهامي ينقل نظره من وجه إلى وجه في صمت ، وعاد درويش باشا ينحني فوقه محاولاً أن يرفعه من ذراعه وهو يقول :

– قم يا ولدي .. لقد انتهى كل شي .. قم .. !

فعاد يطرق أجل .. لقد انتهى كل شيء ، لقد أدرك أنه لم يعد، بل لم يكن، ذاتاً خلقت لتحكم بما وهبت من صفات التميز عن العبيد ، فها هو ذا عبد جالس إلى مقعد بينما هو راكع يتشبث بقدميه ، لقد أذله العبد ببسمة هادئة تقول : لا .. لم يكن يملك شيئاً إلا هذه البسمة ؛ بينما كان هو ممسكاً بغدارة وسوط وبقدرة على أن يهب الحياة والموت .. ومع ذلك ، فها هو ذا العبد على المقعد مغمض العينين في هدوء ، وهو راكع يتشبث بقدميه ويبكي .. العبد تغطي وجهه الدماء ، وهو تغطي وجهه الدموع ، والبسمة لازالت على الشفتين ، بينما الغدارة والسوط ملقيان على الأرض ..

واستجاب لمعاونة درويش باشا ليقوم ، فما كادت قدماه تستقيمان على الأرض ، حتى تراجعت الوجوه السمراء والسوداء والشقراء إلى الوراء ، وأطرقت العيون الجامدة إلى الأرض وفيها نظرة إجلال وتقديس..

– كاذبون .. كاذبون .. كلكم كاذبون .. كاذبون .. كلكم .. كلكم ..!

وتراجعت الوجوه في ذعر خارجة وهي تتصادم عند الباب لتفر من غضبة هو أول من يعرف ضعفها .. وخلت الحجرة إلا من وجه درويش باشا يطالعه بالنظرة الحانية المشفقة ، ثم تقدم يسنده قائلاً :

– اهدأ يا ولدي .. اهدأ .. لقد انتهى كل شئ ..

– نعم .. لقد انتهى كل شئ .. أنا أعرف أن كل شئ قد انتهى ، فلماذا تكذبون ؟ لماذا تخدعونني .. ؟ لماذا تكذبون ؟

– فيم يكذبونك يا باشا .. ؟ إن أحداً لم يتكلم .. إن لساناً لم ينطق ..

– عيونهم .. عيونهم تكذب علي .. أغلقوا عيونكم .. أغلقوها .. أغلقوها وإلا فقأتها لكم جميعاً .. سأفقأ عيونكم الكاذبة .. ولكن ..

وعاد ينهار على الأرض باكياً :

– لن أستطيع ؛ لن أستطيع أن أفقأ عيونهم ؛ أنا أعرف أنني لن أستطيع ؛ وهم يعرفون أيضاً ؛ ولذلك يكذبون .. يكذبون عليَّ

ثم غاب عن وعيه فلم يشعر بسواعد الرجال الذين استدعاهم درويش باشا ليحملوه إلى فراشه ..

(14) السلطان عبد المجيد يزور الهامي ثم يكشف درويش باشا للهامي ما خفي عليه

تنبه الهامي من إغمائه على أربع أيد ترفع رأسه في رفق من فوق الوسادة ، ويد أخرى تقطر في فمه سائلاً رطباً .. وبالتدريج بدأ يستعيد حواسه ، ويتذكر كل ما مر به ككابوس مفزع غير مفهوم تلف صوره بعضها بالبعض ، ثم تدور وتنقلب وتتراقص لتنفصل وجوهاً ممطوطة أو مكورة .. وجه السلطان كقناع الكرنفال ، ورق ملون ، في أعلاه فجوتان سوداوان بلا عينين ، وفي أسفله فجوة مستطيلة يبرز منها نابان أزرقان ، ووجه ستراتفورد كوجوه الأصنام التي تركها ملوك مصر القدماء ، حجر أبيض ناعم الملمس منحوت كوجه الإنسان ولكنه ليس بإنسان .. ووجه علي بك أسمر ممتقع كوجه تمثال رآه في باريس يتوسط نافورة ويتدفق الماء من عينيه وفمه ، ولكن ما يتدفق من عيني علي بك وفمه ليس ماء ، إنه سائل أحمر .. دافئ ..

دم .. دم !

دم .. ! دم .. !

وحدث هرج في القاعة ، وعادت اليد التي كانت تصب السائل الرطب في فمه تقرب القدح من شفته هامسة :

– اشرب يا مولاي .. اشرب .. !

وبدأت القطرات الباردة تتخلل شفتيه وتسري رطوبتها في لسانه وحلقه ، فيحس بها تطفئ لهباً كان يحرق جوفه ، وينطفئ الكابوس المزعج وتتوارى الوجوه الملتفة ببعضها ليرى وجوهاً أخرى يعرفها بالتدريج .. فهذا الذي يسقيه السائل الرطب هو طبيب السلطان ، وهذا الذي يمسك رأسه عن يمين هو درويش باشا ، وذلك الذي يرفعها يساراً هو وصيفه التركي .. وسمع صوتاً يسأل في همس هادئ :

– كيف حاله ؟

فأجاب الطبيب :

– زالت النوبة يا صاحب العظمة ..

السلطان أيضاً .. ؟ وأدار عينيه في بطءٍ نحو مصدر الهمس ، فرأى السلطان عبد المجيد يتطلع إليه باسماً .. نفس البسمة الشهيرة التي تخفي وراءها حقيقة ما يصطرع في صدره من عواطف وما يدور في رأسه من أفكار .. وعاد السلطان يسأل :

– وحالته ؟

– ستعود إلى طبيعتها خلال دقائق يا صاحب العظمة الشاهانية ..

ومال درويش باشا فوقه بوجهه العجوز يبتسم في رقة الشيوخ وقال له :

– صاحب العظمة الشاهانية هنا يا باشا .. ؟

فنظر إلهامي إلى الوجه الشيخ ، والتقت عيناه بعينين بيضت سوادهما السنون ، ولكنه لمح فيهما نشوة وسروراً لا يتفقان مع الرعشة التي تسري في صوته .. ومضى درويش باشا يقول :

– لقد جاءت ذاته الشاهانية منذ أبلغتها ما حدث ..

ذاته الشاهانية ..! هل هي ذات حقاً ..؟

– قل للذات الشاهانية شيئاً لتطمئنه على أنك بخير ..

ماذا يقول ؟ بل لماذا يقول أصلاً ؟ وحول عينيه عن الوجه العجوز في ملل ، وغادر السلطان مقعده وتقدم نحو فراشه فافسح له الجمع لينحني فوقه باسماً .. ورفع إلهامي عينيه مرة أخرى إلى وجه السلطان ، وخيل إليه أن العينين فجوتان خاليتان إلا من الظلام ، وأن الفم الذي يبتسم فجوة أخرى يبرز منها نابان أزرقان .. نفس وجه قناع الكرنفال .. ووجد نفسه يهمس :

– ورق .. ورق .. !

واتسعت بسمة السلطان الحنون وهز رأسه قائلاً في عطف :

– وهل هذا وقت الكتابة يا إلهامي .. ؟ انتظر حتى الصباح لتسترد صحتك أولاً ..

ووجد إلهامي نفسه يبتسم في سخرية .. كتابة .. ! ؟ وهل ظن أنه يطلب ورقاً ليكتب .. ؟!

واطمأن السلطان لهذه البسمة التي أساء فهم معناها ، وظن أن إلهامي قد عاد إلى حالته الطبيعية تماماً ، فقال في ارتياح :

– نعم .. اضحك يا فتى .. اضحك .. لقد أقلقتني عليك .. !

ثم جلس على طرف الفراش قائلاً :

– لماذا فعلت ذلك .. ؟ لماذا .. ؟

ولم يجب إلهامي ، فهو نفسه لا يعرف لماذا فعل ذلك ؟ لماذا جلد (علي بك) بالسوط ؟ بل لماذا أراد قتله ؟ هل إساءة علي بك تستحق ما فعل به ؟ وقبل أن يمضي في تساؤله تنبه إلى أنه قد أساء فهم سؤال السلطان ، فقد مضى عبد المجيد قائلاً :

– تريد عقاب تابعك ؟ هناك وسائل أخرى لذلك دون أن تجهد نفسك وتعرض صحتك للتلف .. لماذا لم تأمر الأغوات بجلده بدلاً من أن تجلده بنفسك ؟

وابتسم إلهامي مرة أخرى في سخرية أشد ، إنه لا يزال حسن الظن بالسلطان ..! ومضى السلطان يقول :

– ولماذا تلجأ إلى الجلد بالسوط ؟ هناك سجون فيها من وسائل التعذيب ما يفوق السوط مائة مرة ؟ على أية حال دع هذا الأمر لي حتى تكتمل خبرتك ، وإذا أردت عقاب أحد في المستقبل فأخبرني .. لتكن هذه تجربتك الأخيرة ..

الأخيرة .. ؟ بل إنها الأولى ! فلم يسبق له أن جلد أو أمر بجلد أحد ، كان يؤمن دائماً بأن الذات الحقيقية الأصيلة لا تحكم الناس بالسوط ، فهل لجوءه إلى هذه الوسيلة يعني أنه لم يعد ذاتاً حقيقية أصيلة ؟ هل تحول إلى ذات تحكم بالوراثة لا بالتميز ؟! بل إنه لم يكن ذاتاً في يوم من الأيام .. كان هذا الظن وهماً أجوف خلقه الغرور والنفاق ولم تدعمه الحقيقة أبداً ..

وعاد السلطان يقول :

– الحمد لله على أن الأزمة انتهت بسرعة ، فنم جيداً واسترح يومين أو ثلاثة حتى تعود إلى حالتك الطبيعية ، فإنني أعد لك مفاجأة سارة ستسعدك وتسعد أباك ..

وابتسم في إغراء :

– أتحب أن تعرفها الآن ..؟

ومال عليه هامساً

– لقد استقر رأيي على أن أجعلك ولي عهد مصر !.. ولكن لا تقل لأحد حتى أصدر الفرمان ..

وابتسم إلهامي في سخرية مرة أخرى .. فأي رأي هذا الذي استقر ؟ رأي السلطان أم رأي ستراتفورد ؟ إنه يعرف الحقيقة ، فقد كشفها له ستراتفورد من قبل ..

ومرة أخرى أساء السلطان فهم معنى الابتسامة ، فضحك قائلاً :

– ألم أقل لك إنه نبأ سار .. ؟ ولكن اسمع .. ستحتاج في هذا المنصب الجديد إلى قوة كبيرة وخبرة واسعة ، أما الخبرة فدع أمرها لي ، سألقنك كل خبرتي ، وأما القوة فأمرها في يدك ، استرخ ، ونم ، ولا تعرض نفسك لمثل هذه الأزمة مرة أخرى ..

ثم نهض واقفاً ، فأسرع من بالقاعة ينتظمون في صفين ، وانحنوا في إجلال وتقديس ، وقال السلطان :

– سأتركك الآن لتنام ، وأريد أن أطمئن في الصباح على أنك قد استرددت صحتك تماماً ..

ثم اتجه إلى الباب في خطو وقور دون أن يلتفت إلى تلك الأجسام التي انحنت حتى كادت جباهها تقارب الأرض ، ولكنه توقف فجأة والتفت إلى درويش باشا قائلاً : « درويش باشا ، يسرني ما بذلته من عناية فائقة واهتمام بالغ بإلهامي باشا ..

فاشتد انحناء درويش باشا وهو يقول :

– مولاي .. نحن عبيدك وأولياء إحسانك ..

– حسن .. لن ننسى لك هذا الولاء .. وصمت لحظة مفكراً ثم سأل :

– لماذا أعفيناك من منصب الصدارة ؟

– مولاي .. هذه إرادة شاهانية لا يستطيع أمثالي أن يدركوا حكمتها ..

– حسن .. حسن ..!

ثم غادر الغرفة مسرعاً ، وخلفه درويش باشا يهرول داعياً له بطول العمر ودوام المجد .. وما كاد يعود حتى أسرع الطبيب والوصيف يهنئانه في قلق شديد برضى السلطان وتعطفه عليه .. وظل إلهامي يرقبهما في سخرية ، وهو يعجب من هذا الاحترام المفاجئ ، الذي أحس به الطبيب والوصيف نحو درويش باشا ، إلا أن عجبه كان أشد عندما رأى ما أصاب درويش باشا نفسه من تغير ، فلم يعد ذلك الشيخ الطيب الذي أرعشت السنون أطرافه وبيضت عينيه الذابلتين ، وأحنت ظهره ، بل تحولت الطيبة إلى تكبر عات ، والتَمعت عيناه الذابلتان ببريق جشع ، وارتفع أنفه في شموخ لا يتفق مع تقوس ظهره .. لقد ولدت ذات جديدة أخرى بمجرد أن هز السلطان رأسه وقال :

– حسن.. حسن..

ومضت موجة الملق تقابلها موجة الكبرياء تتبادلان حيز الرؤية في عيني إلهامي ، حتى أومأ درويش باشا إلى الطبيب قائلاً :

– تستطيع الآن أن تنصرف ، فإنني سأبقى بجانب إلهامي باشا أرعاه ..

فانحنى الطبيب في أدب ، ثم غادر القاعة ، وأشار درويش باشا إلى الوصيف قائلاً :

– أما أنت ، فانتظر في الغرفة المجاورة فربما احتاج مولاك إليك ..

فأسرع الوصيف مغادراً الغرفة أيضاً .. وهكذا وجد إلهامى نفسه منفرداً مع درويش باشا ..

وأسرع درويش باشا يجلس في المقعد الذي كان يجلس فيه السلطان ، ونظر إلى إلهامي وقد زالت من وجهه كل مظاهر الكبرياء ، ثم ابتسم قائلاً :

– كيف الحال يا ولدي ؟

وأحس إلهامى بأن هذا السؤال لا يعنى حقيقة كلماته ، فإن عينى درويش باشا كانتا تحلمان بشيء آخر بعيد عن صحة إلهامى ، ربما كانتا تحلمان بالسلطة والصدارة .

وابتسم إلهامي في مرارة ساخرة وقال :

– هل أهنئك بمنصب الصدر الأعظم ؟

فضحك درويش باشا والتَمع بريق الجشع في عينيه ثم قال :

– لم يحن الوقت بعد يا ولدي .. فإن صاحب الجلالة الشاهانية لم يقل ذلك صراحة ..

– ولكنه ألمح إليه ..

– تماماً .. ولكن لا شئ مضمون حتى يصدر الفرمان ..

وضحك في سعادة ثم عاد يقول :

– عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. أتعرف يا ولدي كيف جاءت هذه الفرصة لأسترد عطف الذات الشاهانية ؟ لقد تشاجرنا في الصباح .. أتذكر ؟ وعندما خرجت من عندك وعدت إلى قصري أحسست بالندم على أنني أغضبتك وقررت أن أعود لأعتذر إليك ..

فابتسم إلهامي ساخراً وقال :

– كما اعتذر إلى ستراتفورد !

فتململ درويش باشا في مقعده وتلعثم قائلاً :

– قلت في نفسي : إلهامي باشا معذور ، فأنا الذي أثرته ، وأنا الذي ينبغي أن يسعى إليه ليصالحه ..

– بعد أن سعى إليَّ ستراتفورد !

فاشتد تلعثم درويش باشا وسكت لحظة ثم عاد يقول :

– على أية حال .. أنت ولدي .. والمغفور له جدك كان صديقي .. وأبوك صديقي .. وما حدث في الصباح كان خطأً لابد أن يزول .. وكان الوقت قد فات لألحق بك في مجلس الوكلاء ، فقلت لنفسي لو زرته في قصره لكان لهذه الزيارة وقع في نفسه أفضل .. وهكذا انتظرت حتى .. حتى ..

فقال إلهامي متمماً :

– عدت من عند ستراتفورد ..

– تماماً .. وجئت إلى القصر وانتظرت في السلاملك حتى تستقبلني ، فلما طالت غيبتك ، أحسست بالقلق ، وكان وصيفك أخبرني بأنك تريد عقاب تابعك علي بك ، وأن ...

وكان درويش باشا يحكي وكل خلجة في وجهه سعيدة بهذه المصادفات التي انتهت بتعطف السلطان عليه .. وأحس إلهامي بالملل فانصرف عنه إلى فكرة أثارها في ذهنه كلمات قالها درويش عرضاً (المغفور له جدك كان صديقي) .. وشيخوخة درويش باشا تقطع بأنه كان معاصراً لجده ، فعله يعرف من أخباره ما يجهله هو ، وما تعمد المحيطون به أن يخفوه عنه ، نعم ، فربما كان لدى درويش باشا تفسير لهاتين التهمتين اللتين ألصقتا بجده في يوم واحد .. فهو كان قناعا يتستر خلفه الذئب الفرنسي (قالها السلطان) ، وهو كان ظالماً مغتصباً (قالها علي بك) .. وهمَّ بأن يسأل درويش باشا عن الحقيقة ، ولكنه عاد يتردد ، فهل مثل درويش باشا يقول الحقيقة ؟ إنه لا يقول إلا ما يحقق له منفعة بغض النظر عن علاقته بالحقيقة .. وعاد ينصت إلى درويش باشا في ملل ، ولكن ما سمع منه أثار اهتمامه فجأة ، فقد طرق درويش باشا – دون أن يدري – نفس الموضوع الذي تردد في أن يسأله عنه .. كان درويش باشا يقول :

– ومن عجيب المصادفات يا ولدي أنني عزلت من الصدارة العظمى بسبب جدك ، وهذا أنا سأعود إليها بسببك أنت ، الحفيد يصلح ما أفسد الجد ..

فقال إلهامي :

– ولكنك كنت صديقاً لجدي ، فكيف تسبب في عزلك من منصب الصدارة ؟

فأسرع درويش يقول :

– لم يقصد جدك أن يعزلني ، ولكن صداقتنا كانت سبباً غير مباشر في هذا العزل ، فقد جاريته كصديق في صداقته للفرنسيين ، وبذلك أثرت غضب ستراتفورد فعزلني .

– وهل كان جدي صديقاً للفرنسيين يا دولة الباشا ؟

– طبعاً .. كان صديقاً لهم شديد الثقة فيهم ، وقد رفعته صداقته لهم إلى عرش مصر ، بينما كادت ثقته بهم تفقده هذا العرش.

فتظاهر إلهامي بالاهتمام وسأل :

– هذه أنباء جديدة عليّ يا دولة الباشا ، فهل زدتني تفصيلاً ؟

فاضطجع درويش باشا في مقعده وشردت عيناه اللتان بيضتهما السنون ، مسترجعاً ماضياً بعيداً يحاول أن يعيد الحياة إلى أحداثه التي أصبحت ذكريات ، ثم قال :

– على ما أذكر .. كان ذلك منذ أكثر من خمسين سنة .. وكنت أيامها ضابطاً صغيراً ذهبت مع الجيش السلطاني لطرد الفرنسيين من مصر ، وكذلك كان جدك ضابطاً في الفرقة الألبانية التي يقودها طاهر باشا .. وقد ربطت بيننا الصداقة الوثيقة في تلك الأيام .. وكنا نكره الانجليز .. أنت تعرف أنه كانت معنا بعض الفرق الإنجليزية في هذه الحرب .. كنا نكرههم ، جدك وأنا كنا نكرههم كراهية شديدة ، كانوا يتحدون أوامر السلطان ولهذا كرهناهم .. أذكر أن حسين باشا القبطان قرر أن يقضي على البكوات المماليك ، فأعد لهم كميناً ، وكنت أنا أحد الضباط الذين نفذوا هذا الكمين .. كان كميناً بارعاً وقد نفذ بدقة كبيرة .. وقد سقط البكوات المماليك فيه كالفئران ، وكدنا نقضي عليهم قضاءً تاماً لولا أن الإنجليز تدخلوا وهددوا بأن يحاربونا لإطلاق سراحهم .. تصور يا ولدي ، لقد أفسدوا علينا كل تدبيرنا ، ولو لم يتدخلوا لكنا ذبحنا المماليك كما ذبحهم جدك بعد ذلك بسنوات .. جدك لم يبتكر هذه الفكرة ، وإنما أعاد تنفيذ فكرتنا القديمة بعد أن أدخل عليها تعديلات ليتحاشى الأخطاء التي وقعنا فيها ، فمثلاً .. نحن استدرجنا المماليك ثم قبضنا عليهم ، وكان هذا خطأً .. كان القبض عليهم خطأً كبيراً .. إذ هيأ الوقت للإنجليز ليتدخلوا ، أما جدك ، فقد استدرجهم ثم ذبحهم على الفور ، وهذا لم يترك للإنجليز أية فرصة للتدخل .. كان

يمكنهم أن يحتجوا طبعاً ولكن الاحتجاج لا يرد الحياة إلى البكوات المماليك .. كان جدك رجلاً عظيماً يا ولدي .. يستحق كل ما وصل إليه من مجد بل وأكثر منه .

وأحس إلهامي بأن درويش باشا قد شرد تماماً عن الموضوع الذي يهمه ، فقال ليُعيده إليه :

– ولكنك لم تخبرني كيف كان جدي صديقاً للفرنسيين ..! .. فابتسم الوجه العجوز وقال :

– نعم ، تماما يا ولدي ، لم أخبرك بقصة جدك مع الفرنسيين .. اعذرني يا باشا .. فإن هذه ذكريات شبابي ، وهي تستدرجني في الحديث .. حسن .. كان في مصر قنصل لفرنسا اسمه .. اسمه ماتيو .. ما .. تيولسبس .. دي لسبس .. نعم .. ماتيو دلسبس .. اسمه ماتيودلسبس .. كان مسيو دلسبس هذا رجلاً رقيقاً ظريفاً ، ولهذا كان صديقاً لجدك ..

وفجأة أغرق في الضحك ، فسأله إلهامي منزعجاً :

– ماذا يضحكك يا دولة الباشا ..؟

– تضحكني هذه الصداقة التي كانت بين جدك وبين مسيو ماتيودلسبس ..

– وماذا فيها يثير الضحك ؟

– تعارفهما ، تعارفهما يا باشا .. لقد تعارفا بطريقة كان يمكن أن تجعل من جدك لصاً يلقى في السجون .. أقام مسيو دلسبس حفلة في قنصلية فرنسا ، ودعا إليها الكثيرين من العظماء والباشوات والقواد ، كان جدك أقلهم مركزاً حينئذ ، كان ضابطاً صغيراً كما تعرف ، وقد جاء إلى الحفلة لابساً لباسه العسكري ذا السراويل الواسعة المنتفخة .. كان هو الوحيد الذي يلبس السراويل المنتفخة .. وفي نهاية الحفلة ضاعت الملاعق والشوك والسكاكين .. وكانت من الفضة الخالصة .. فقالوا إن أحد المدعوين هو الذي سرقها ، واتجهت شبهات ماتيودلسبس إلى جدك ، فإن مركزه الصغير وفقره المعروف يمكن أن يغرياه بالسرقة ، ثم سراويله المنتفخة .. كانت أفضل مكان يخبئ فيه الشوك والملاعق الفضية .. وأصبح مركز جدك حرجاً ، دي لسبس سوف يبلغ أغا مستحفظان بالطبع ، وأغا مستحفظان سوف يقبض على جدك ويستنطقه على آلة التعذيب حتى يعترف ، ثم يلقيه في السجن .. تصور ..!

وعاد يغرق في الضحك ، بينما سأل إلهامي في لهفة :

– ثم .. ؟

– ثم اكتشفت الأدوات الفضية في القنصلية نفسها ، كان أحد الخدم قد وضعها في مكان ثم نسيه .. وأسرع دلسبس يعتذر إلى جدك اعتذاراً حاراً ، ومن يومها توثقت بينهما الصداقة ..

وتريث حتى التقط أنفاسه التي أجهدها الضحك الشديد ثم مضى يقول :

– كانت هذه الصداقة فاتحة خير على جدك ، فقد وجد فيه الفرنسيون الرجل الذي يبحثون عنه ليقاوموا به محمد بك الألفي رجل الإنجليز .. فتساءل إلهامي في اهتمام :

– ماذا ؟

– محمد بك الألفي ، ألم تسمع عنه ؟

– لا ..

– كان كبير البكوات المماليك في ذلك العهد ، وقد تحالف مع الإنجليز ليساعدوه على حكم مصر في مقابل أن يكون خاضعاً لنفوذهم ..

وأحس إلهامي بمرارة شديدة ، فإن ما يقصه عليه درويش باشا ليس إلا صورة قديمة العهد لما حدث اليوم بينه وبين ستراتفورد . إنهم يريدون أن يجعلوا منه (ألفي بك) جديداً ، وإن لم يصرح له ستراتفورد بذلك .. ولكن الحديث عن خبرته وتجاربه التي يضعها في خدمته ليست إلا تمهيداً لوصاية إنجليزية عليه .. هذا واضح .. بل إنه دفعه بهذه الخبرة والتجارب إلى أن يكره السان سيمونيين ، وهم فرنسيون ، وأن يتعصب ضد مشروعهم عن قناة السويس ، وهو مشروع يخدم – بداهة – مصالح فرنسا .. لقد بدأ ستراتفورد يبسط نفوذ إنجلترا عليه منذ أول لحظة .. تماماً كالألفي بك ، يساعدونه على حكم مصر في مقابل أن يكون خاضعاً لنفوذهم .. وعاد ينصت إلى درويش باشا وهو يقول :

– والحق يا باشا أن جدك كان بالنسبة للفرنسيين معجزة ألقتها الأقدار في أيديهم ، فقد كانوا يعلمون باتفاق الألفي بك مع الإنجليز ، وكانوا يخشون أن يبلغ هذا الاتفاق أهدافه ، ولم يكونوا في وضع يسمح لهم بمقاومته بالقوة العسكرية بعد هذه التجربة الفاشلة التي قاموا بها لاحتلال مصر .. فلم يكن أمامهم من سبيل إلا أن يقاوموا الخطة الانجليزية بنفس الطريقة .. رجل يتفقون معه ، فيرفعونه إلى حكم مصر في مقابل أن يمكن لنفوذهم فيها .. ولم يكن من السهل عليهم أن يجدوا مثل هذا الرجل بعد أن

أثاروا عداء الجميع بإقدامهم على غزو مصر ، ولكن جدك كان أبعد نظراً من الجميع ، فقد أدرك أن عداء الفرنسيين يجب أن ينتهي بخروج آخر جندي من جنودهم ، ولذلك لم يتردد في مصادقة ماتيو دلسبس.

وصمت درويش باشا ليلتقط أنفاسه من جديد ، فقال إلهامي :

– ولكن يا دولة الباشا .. إن هذه الصداقة لا تعني أبداً أن الفرنسيين هم الذين طالبوا السلطان بتعيينه .. إن المصريين هم الذين طلبوا ذلك ، وهم الذين أعلنوا الثورة وحاربوا في سبيل الاستجابة لرغبتهم .. لقد حاصروا ..

فقاطعه درويش باشا ضاحكاً :

– يا ولدي .. يا ولدي .. وهل تظن أن ثورتهم كانت هي السبب في استجابة السلطان لرغبتهم ؟ ألم يكن في استطاعة فرقة أو فرقتين من الجيش الشاهاني أن تقضي على هذه الثورة ؟

– ولماذا إذن لم يحاول السلطان القضاء على ثورتهم بالقوة ؟

– لأنني حلت دون ذلك ..

– أنت ؟

– نعم .. أنا ..

– ولكنك كنت كما تقول ضابطاً صغيراً وقتها ..!

فضحك درويش باشا قائلاً :

– كلا يا باشا .. كنت ضابطاً صغيراً عندما كان جدك ضابطاً صغيراً ، ولكن الأحداث التي رفعته إلى الصف الأول في مصر ، رفعتني أيضاً إلى الصف الأول في الآستانة ، لقد تركت مصر ، بل تركت الجيش الشاهاني والتحقت بالوظائف حتى أصبحت من أعوان محمد باشا السلحدار ، وكان هو الصدر الأعظم وقتها .. كنت ذا نفوذ كبير في الآستانة في نفس الوقت الذي طالب فيه الفلاحون المصريون بتعيين جدك والياً على بلادهم ..

– حسن .. ثم ..؟

– استدعاني الصدر الأعظم وقال لي : إنك عشت في مصر سنة وبعض سنة ، فلعلك أقدر الجميع على إبداء الرأي في هذه المشكلة .. قلت : وهل خلق محمد علي مشكلة ؟ فقال : بل خلقتها حكومة فرنسا ، فمنذ مدة وسفيرها هنا يلح علي في أن أستصدر من السلطان سليم خان فرماناً بتولية محمد علي على مصر ، وأنا لا أميل إلى هذا الرجل كما تعرف ، فهو دساس مشاغب طماع ، ولكن السفير الفرنسي جاءني اليوم وقدم إلي إنذاراً في صورة نصيحة بإرضاء مطالب المصريين وتعيين محمد علي والياً عليهم ، وقال إن حكومته تعتبر تنفيذ هذا عاملاً هاماً في تقوية العلاقات بينها وبين الباب العالي .. عندما سمعت هذا من الصدر الأعظم أدركت أن المرحلة الأخيرة من الاتفاق بين جدك وبين فرنسا قد حلت ، وسألني الصدر الأعظم إن كان في استطاعتي أن أفسر له سر اهتمام فرنسا الكبير بمحمد علي ، فشرحت له ما أعرف ، دون أن أخبره طبعاً بأن محمد علي صديقي وأنه كذلك صديق لفرنسا ، ولكنني قلت له إن فرنسا تسعى إلى مساعدة هذا الرجل على الوصول إلى الحكم حتى تأسره بفضلها عليه فيستجيب لكل طلباتها ويحقق لها مصالحها .. وبهذا أديت واجبي نحو الصدر الأعظم ولم أخن واجبي نحو صديقي .. أليس كذلك ؟ ..

وضحك ؛ فتكلف إلهامي الابتسام وهز رأسه مؤمناً ، فمضى درويش باشا يقول :

– على أية حال ، لقد كان الصدر الأعظم ذكياً فقد قال : ليس في دنيا السياسة شئ اسمه الاعتراف بالفضل ، لابد أن هناك اتفاقاً بين فرنسا وهذا الرجل مثل الاتفاق الذي بين انجلترا ومحمد الألفي بك .. السلحدر باشا كان رجلاً نادر الذكاء يا باشا .. لقد تعلمت على يديه الكثير مما أفادني في حياتي السياسية ، وإن كنت لم أصل يوماً إلى مستواه في بعد النظر والتنبؤ بالأحداث قبل أن تقع ، ورسم الخطط للاستفادة منها .. تصور ، لقد تنبأ بكل ما صار إليه جدك ورسم الخطة للاستفادة منه ثم للقضاء عليه قبل أن يصبح خطراً يهدد الدولة العلية ، ونجحت خطته لولا أن خلفه لم يحسن التصرف فأفسد كل شئ .. يا لهذا الرجل ..! كان داهية أريباً في السياسة ، حالت دسائس الحاسدين دون أن تستفيد السلطنة منه .. حسن .. لقد استطردت كالعادة .. معذرة يا ولدي فأنا معجب بالسلحدر وأدين له بالكثير.. لنعد إلى ما كنا فيه.. لقد كتب تقريراً رفعه للسلطان سليم خان الثالث .. هذا التقرير حجة في دنيا السياسة .. فبعد أن عرض على الأعتاب الشاهانية تصارع إنجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر ، واختيار كل من الدولتين رجلاً توجهه وتسيطر عليه ، قال رحمه الله إن الدولة العلية لا تستطيع أن تتحدى الدولتين الكبريين معاً وإلا اتحدتا ضدها ، ومن ثم فعليها أن تضرب إحداهما بالأخرى ، فتقوى من نفوذ الدولة الضعيفة نسبياً لتضعف من نفوذ الدولة القوية ، وكان النفوذ الإنجليزي قد قوى بعد تعاونها معنا في طرد الجيش الفرنسي من مصر ، فالمصلحة تقتضي أن نقوى النفوذ الفرنسي المتضائل ليحد من النفوذ الانجليزي المتزايد ، وهكذا رجحت كفة جدك كفة محمد بك الألفي ، وتحولت كل عناصر الضعف في موقفه إلى عناصر قوة ، فمطالبة المصريين بتعيينه بعد أن كانت تحدياً للإرادة الشاهانية أصبحت

مبرراً يقال للإنجليز إذا احتجوا على هذا التعيين .. وضعف أنصاره بالنسبة لأنصار الألفي بك أصبح مبرراً لمناصرته ضد البكوات المماليك ، أذكر أن تقرير الصدر الأعظم قال بالحرف : – لو عينا محمد الألفي حاكماً على مصر لاشتدت قوته عما هي عليه الآن ، وتعذر علينا – خصوصاً وإنجلترا تؤيده – أن نتخلص منه ، أما لو عينا محمد علي والياً فإننا نخلق به قوة جديدة تكفي لأن تقضي على قوة الألفي بك دون أن تحرجنا مع الانجليز .. ولكنها لن تكون من الضخامة بحيث يستعصى علينا التخلص منها في الوقت المناسب ، فمحمد علي لا أعوان له إلا المصريون العزل من السلاح ، بينما وراء الألفي بك جيش من فرسان المماليك المتمرسين بالقتال ..

ومضى درويش باشا يحكي مستطرداً حيناً ، ضاحكاً حيناً آخر ، ولكن إلهامي كان قد انصرف عن حديثه إلى أفكار سوداء تعصف بآخر ما تبقى لديه من قيم .. بذكرى جده العظيم .. تلك الذات المتميزة التي سادت لأنها خلقت للسيادة والحكم ، لقد كانت آخر ما يتشبث به كلما ألقمت ذاته حجراً يخرس ثقتها بنفسها ، لقد كان يقول لنفسه : أنا حفيد تلك الذات العظيمة ووارث صفائها وتميزها .. وها هو ذا درويش باشا قد كشف له بما لا يدع فرصة للشك حقيقة هذه الصفات وذلك التميز .. إن الصفة الوحيدة التي رفعته إلى العرش كانت خضوعه للنفوذ الفرنسي ، وتميزه الوحيد عن غيره هو إيمانه المبكر بفائدة مصادقة فرنسا ، فلم تكن فيه ميزات تورث ولا صفات يعتد بها ، اللهم إلا إذا شاء أن يؤمن بفائدة مصادقة ستراتفورد وأن يخضع للنفوذ الإنجليزي ..!

لقد تحطمت أسطورة جده ؛ وقد عرف الآن أن السلطان لم يظلمه عندما قال إنه كان مخلب قط للسياسة الفرنسية ؛ فلماذا لا يكون علي بك صادقاً عندما قال إنه كان ظالماً مغتصباً ؟ هل يبعُدُ على من جعل الأجانب يتوجونه على العرش أن يغتصب حقوق المستظلين بهذا العرش ؟

وهمّ بأن يسأل (درويش باشا) عن هذا الاتهام الجديد ، ولكنه استبعد أن يكون لديه علم به ، فهو بعيد في الآستانة لا يعرف من أمور الفلاحين شيئاً له قيمة .. لماذا لا يسأل (علي بك) نفسه ؟ أجل .. لماذا لا يسأل (علي بك) ؟ ولكن .. هل علي بك في حالة تسمح له – بعد هذا التعذيب الذي أنزله به – بأن يتكلم ؟ إن أحداً طبعاً لم يفكر في علاج جروحه ، بل لابد أنهم قيدوه بالسلاسل وألقوه في قبو القصر انتظاراً لما يأمر به فيه .. حسن .. إنه سيأمرهم ولكن بعلاجه وتهيئة سبل الراحة له .. والتفت إلى درويش باشا الذي كان لا يزال يحكي سعيداً ذكريات شبابه ، وقاطعه قائلاً :

– يا دولة الباشا ، أرجو أن تأمر بإحضار طبيب يعالج جروح علي بك ..

فحدق إليه درويش باشا في دهشة وقال :

– علي بك..؟

ثم ضحك في سعادة البلهاء وقال :

– علي بك خلف لك طول العمر..!

فانتفض إلهامي جالساً وهتف من أعماقه :

– مات ..؟!!

– وشبع موتاً .. هل كنت تظن أن جلالة السلطان يسمح له بدقيقة واحدة على ظهر الدنيا بعد ما أصابك بسببه ..؟ لقد أمر عندما حضر بأن يقيدوه ويضعوه في غرارة ثم يلقوا به في قاع البسفور ..

فقفز إلهامي من الفراش وهو يصرخ :

– كلا .. كلا .. لا تقتلوه .. اتركوه .. اتركوه ..!

فنظر إليه درويش باشا في دهشة شديدة من هذه الثورة التي لا معنى لها ، ثم قال في هدوء :

– يتركون من يا باشا .. ؟ لقد انتهى الأمر .. إنهم أخذوه إلى البسفور منذ ساعتين ..

وجمد إلهامي يحدق ذاهلاً في وجه درويش باشا الذي جعدته الشيخوخة وبسطت تجاعيده السعادة ، وأخذ يتمتم :

– الكرنفال قتله .. قناع الكرنفال .. قتله ..! .. فجوتان فيهما ظلام .. وفجوة فيها أنياب .. أنياب ..!

وأسرع درويش باشا إليه مشفقاً عليه من هذا الجنون ، ولكن إلهامي دفعه بيده دفعةً قويةً ، ثم انكفأ على الفراشِ يبكي ..

(15)لطيف يحمل جثة عزيز للبسفور وحواره مع العم بكر

ما كاد الليل يقارب الانتصاف حتى دخل الخادم كاظم على لطيف بك معلناً أن العربة والسائق ينتظران أمام الباب ، فقام وارتدى ثيابه على عجل ثم أشار إلى الحقيبة قائلاً للخادم :

– هيا لننقل هذه للعربة ..

ثم تقدم ليعين الخادم على حملها ، ولكن كاظم قال :

– كلا يا سيدي .. عفواً .. سأحملها وحدي.

– ولكنها ثقيلة يا كاظم ..!

– ليست ثقيلة على كتفى كاظم .. لقد حملت مثلها عشرات المرات ..

فجفل لطيف قائلاً :

– آه .. هل كان سيدك ينقل مثل هذه الحقائب كثيراً ؟

فقال الخادم وهو يرفع الحقيبة إلى كتفه بسهولة :

– ليس كثيراً بمعنى الكلمة .. كل شهر أو ثلاثة أسابيع واحدة ..

فابتسم لطيف قائلاً :

– أي حوالي اثنتي عشرة حقيبة في السنة ..

وكان هذا يعني اثنتي عشرة جثة في السنة .. الحق إن تجارة عزيز في السموم كانت رائجة ..!

وقال كاظم وهو يتقدم (لطيف) إلى السلم :

– تقريباً يا سيدي .. اثنتا عشرة أو خمس عشرة ..

فقال لطيف :

– وهل تعلم ماذا تحوي هذه الحقائب ..؟

– وأنى لي أن أعلم ؟ إنني لا أحب أن أتطفل على أسرار سعادته .. كل ما أعلم أنه كان يشتري الحقيبة جديدة ، وبعد يوم أو يومين يقول لي :

– أحضر عمك كجك يا كاظم .. فأحضره ..

– ومن عمك كجك هذا ؟ ..

– سائق العربة يا سيدي ..

– وهل هو الذي أحضرته الآن ؟

– طبعاً يا سيدي ..

فابتسم لطيف ودعا من أعماق قلبه لعزيز بالرحمة ؛ فإنه سهل له الأمور بطريقة لم يكن يتوقعها .. لقد ظل يفكر في الطريقة التي يتبعها ليبعد كل شبهة من نفس السائق ، وقرر أن يأمره بالذهاب به وبالحقيبة إلى أحد الشوارع القريبة من البسفور ، ويتظاهر بأنه دخل بالحقيبة إلى أحد البيوت ، ثم يعود بعد ابتعاد العربة ، ويتسلل بالحقيبة نحو شاطئ البسفور .. وكانت هذه الخطة متعبة ، وفيها احتمال لأن يصادفه أحد وهو يحمل الحقيبة .. ولكن عزيزاً قد وفر عليه هذه المتاعب بم عَوَّدَ الخادم والسائق .. فلا شك في أن العم كجك هذا يعرف ما يجب عليه أن يفعل .. فليترك له أن يتصرف من نفسه على هدى ما عَوَّدَهُ عزيز ..

وكانا قد وصلا إلى العربة ، وحاول لطيف أن يرى ملامح العم كجك القابع في مقعده ، ولكن الظلام لم يبد له منه إلا شعراً أشيب وقامة منحنية .. فصعد لطيف بك إلى المقعد الخلفي ووضع كاظم الحقيبة تحت قدميه .. وعندما تم كل شئ دس لطيف جنيهاً في يد كاظم فحاول أن يتمنع قائلاً :

– كفى يا سيدي .. لقد غمرتني بفضلك.

ولكنه دس الجنيه في عبه ثم قال للسائق :

– هيا يا عم كجك ، وكن طيباً مع البك ، إنه أخو عزيز بك ..!

فقال العم كجك وهو يستدير في بطء في مقعده ليفحص لطيف بك بعينيه الكليلتين :

– على عيني ..!

إلا أنه ما كاد ينظر إلى لطيف حتى عبس فجأة وقال :

– ما هذا يا بك ؟

فانتفض لطيف في ذعر .. هل هناك شئ آثار شبهة ؟ إن كل شئ قد سار حتى الآن على ما يرام .. فهل غفل عن شئ ..؟ وتلعثم قائلاً :

– ماذا هناك يا عم كجك ؟

– أتريد أن تذهب بالحقيبة وأنت في هذه الثياب ؟

ولم يفهم لطيف ما يعنيه فقال مستفسراً :

– وما عيب هذه الثياب ؟

– عيبها..؟

وضحك ساخراً وهو يقول في صوت أجش ..

– يظهر أن هذه أول مرة تنقل فيها مثل هذه الحقيبة ..!.. ألم يعلمك عزيز بك ؟

ثم نادى على الخادم الذي كان يقف أمام باب البيت وقال له :

– خذ البك يا ولد وأعطه ملابس الجندرمة التي يلبسها سيدك كلما خرج في عربتي ..

وفهم لطيف كل شئ .. يبدو أن عزيزاً رحمه الله كان يتنكر في ملابس الجندرمة كلما خرج ليلقي بجثة في البسفور .. وكان هذا احتياطاً ضرورياً ؛ فإنه وهو في ثياب الجندرمة يأمن أي تطفل أو اعتراض .. سيظن كل من يراه أنه من رجال السلطان ينفذ أمر السلطان !

فقفز من العربة وأسرع إلى البيت حيث ارتدى الثياب التي أحضرها له كاظم ، وعندما عاد نظر إليه العم كجك وفحصه فحص خبير ثم قال :

– الآن نستطيع أن نذهب ..

ورفع سوطه وفرقع به فوق ظهر حصانه الهزيل .. وبعد أن ابتعدت العربة قليلاً سأل العم كجك فجأة :

– الجسر أم الزاوية ؟

ولم يدر لطيف بم يجيب ! فلا شك في أن هذه أسماء مواضع تعود أن يذهب إليها عزيز بالجثث ، ولم يكن يعرف عنها شيئاً .. ولكن التردد كان كفيلاً بأن يثير شكوك العم كجك فقال في سرعة :

– الجسر ..

وفرقع السوط مرة أخرى فأسرع الحصان الهزيل بالعربة مخترقاً الشوارع المظلمة الخالية إلا من بعض رجال الجندرمة تلوح أشباحهم للعين مستترة بالجدران .. وصمت العم كجك قليلاً ثم قال :

– إن قلبي غير مطمئن إلى الجسر هذه الليلة .. أحس بأن خطراً ينتظرنا هناك !

فرفع لطيف عينيه يتأمل هذا الرجل العجوز .. كان واضحاً من جلسته وتكاسله ومن الحشرجة المرتعشة التي تخالط صوته أنه عجوز يضع رجلاً في القبر وأخرى في الطريق إليه .. وعجب من أمره .. من الواضح تماماً أنه يعلم أن في الحقيبة جثة ، وأنه نقل عشرات من الجثث لعزيز ، فأي شئ يدفعه إلى الاشتراك في هذه الجرائم وهو على وشك أن يلقى ربه ؟ وعاد العم كجك يقول:

– أمصمم على الجسر ؟ إن قلبي لا يخطئ ..

فهز لطيف رأسه في عجب ثم قال :

– كما تشاء .. إلى الزاوية إذن ..

فقال العم كجك في ارتياح :

– هذا أفضل .. ألم يخبرك عزيز بك بما حدث لنا آخر مرة ذهبنا فيها إلى الجسر ؟

ولكن العم كجك لم ينتظر الإجابة على سؤاله وأردفه بسؤال آخر :

– على فكرة .. ماذا حدث لعزيز بك ؟

كان السؤال مفاجئاً وغير متوقع .. وتخيل للطيف لحظة أن هذا الرجل العجوز يعلم أكثر مما يظهر ، ولكنه لا يعلم على أية حال بأنه قتل عزيزاً ، فهذا سر لا يعلمه أحد غيره ، فقال مراوغاً :

– وماذا تظن أنه قد حدث له ؟

فرفع الرجل بسوطه في الهواء ليحث الحصان الذي استرخى في سيره ثم سأل :

– هل مات ؟

وأحس لطيف بعد هذا السؤال الجديد الذي لا يقل مباغتة عن سؤاله السابق بأنه في دوامة من الحيرة المذهلة والخوف المبهم ألقاه فيها هذا الشيخ الفاني .. ولم يدر بم يجيب ! فقد شعر بأنه عاجز عن أن يكذب ، وهو في نفس الوقت لا يستطيع أن يعترف بالحقيقة .. ولكن العم كجك أنقذه من حيرته إذ مضى يقول :

– قلبي يحدثني بأن شراً أصابه .. فهل مات ؟

واطمأن لطيف إلى أن الشيخ إنما يرجم بالغيب فقال بسرعة :

– كلا .. كلا ..!

ولكن العم كجك قال في إصرار :

– إن قلبي لا يخطئ ..!

فقال لطيف في إصرار أشد :

– ولكنه أخطأ هذه المرة !!

فهز العم كجك رأسه قائلاً :

– أبداً .. إنه مات .. لقد رأيت جنازته بعد الظهر ..

– رأيتها ؟

وهم بأن يضحك من هذا الشيخ المخرف ، ولكن العم كجك قال :

– نعم .. وحملت نعشه بنفسي ..

– في الحلم طبعاً ؟

– كلا .. كنت يقظان .. كنت مضطجعاً بجوار عربتي أتظلل في القيلولة ، عندما رأيت جنازته .. لم أعرف أنها جنازة عزيز بك إلا عندما حملت النعش .. بمجرد أن وضعته على كتفي أحس قلبي بأنه نعش عزيز بك .. وقلبي لا يخطئ.

فقال لطيف وقد أحس بأنه يتصبب عرقاً أمام هذا الشيخ المتنبئ :

– أنت تتوهم أشياء كثيرة يا عم كجك.

فضحك العجوز في صوت أجش ثم قال :

– وكيف تتأكد أنني الواهم ..؟.. لماذا لا تكون أنت الذي تتوهم ؟

– لقد رأيت عزيزاً بعيني بعد الظهر ..

– العين خداعة يا ولدي .. أما القلب فلا يخطئ أبداً ..

وخيم صمت ثقيل على لطيف .. وخيل إليه أن العم كجك قد يفتح فمه في أية لحظة ليقول له إنه قتل عزيزاً بالسم .. وأحس برغبة مجنونة تدفعه إلى أن يقفز من العربة ويطلق ساقيه للريح بعيداًعن هذا الجو الغامض الذي لا يفهمه .. و أخذت هذه الرغبة تستبد به .. فليهرب .. و ليحدث ما يحدث .. ستكتشف الجثة و سيوجه إليه الاتهام .. ليكن .. إنه يفضل هذا المصير على ذلك الرعب الذي يثيره هذا الشيخ الغامض حوله ..

وألقى العم كجك بقنبلة جديدة – أو ما خيل إلى لطيف أنها كذلك – عندما فاجأه باسمه :

– لقد ذهبنا إلى الجسر منذ أسبوعين يا لطيف بك ..

وقفز لطيف من مقعده فاصطدمت رأسه بسقف العربة ؛ و التفت العم كجك إليه وسأله في غير اكتراث :

– مالك ؟ .. أأنت خائف ؟

– كيف عرفت اسمي ؟ .. كيف عرفته ؟

ففرقع الشيخ بسوطه في الهواء يستحث حصانه الأعجف دون أن يجيب ؛ فصال لطيف به :

– لا تقل قلبك حدثك باسمي .. لا تقل هذا .. !

فقال العم كجك دون أن يعبأ بثورته :

– يبدو أن أعصابك لا تحتمل هذه المهمة ..

ثم هز كتفيه في غير اكتراث ؛ وقال :

– أتفزع إلى هذه الحد لأن تحت قدميك جثة قتيل ؟ .. ماذا ستفعل إذن لو فاجأك رجال السلطان كما فاجأوا عزيز بك منذ أسبوعي ؟

ولم يعبأ لطيف برجال السلطان ؛ وعاد يصيح :

– لابد أن أعلم كيف عرفت اسمي .. لابد أن أعلم .. أتسمعني .. ؟ لابد أن أعلم ؟

فقال العم كجك في نبرة غاضبة :

– لا تصرخ هكذا ؛ وإلا لفت إلينا الأنظار .. أتريد أن تضبط متلبساً بالجثة تحت قدميك ؟

– كيف عرفت اسمي ؟

– من كاظم .. أهذا غريب ؟ .. عندما أخبري أنني سأنقل حقيبة مع واحد غير سيده كان طبيعياً أن أسأله عن اسمك ..

وسقط لطيف في مقعده وهو يتنهد بارتياح .. لقد انفعل وثار بالرجل دون سبب إلا أعصابه المضطربة .. كان من الممكن أن يستنتج أنه عرف اسمه من الغلام ؛ لولا ذلك القلق الذي يستبد به ..

ماذا دهاه ؟ أين صفاء عقله ؟ أيكون لذلك الكابوس الرهيب الذي رآه عندما أغفى في بيت عزيز أثر في اضطراب أعصابه ؟ أم أن اضطراب أعصابه هو الذي جعله يرى هذا الكابوس .. ؟ .. سواء أكان هذا أم ذاك ؛ فينبغي أن يتخلص سريعاً من هذا الاضطراب ؛ فإنه لا يزال في وسط الخطر ؛ وأية خطة طائشة – كالتي هم بارتكابها الآن – كفيلة بإفساد كل شئ .. أجل .. ينبغي أن يتماسك حتى يحسن مواجهة الأخطار .. فها هو ذا العم كجك ينبئه بأن ثمة احتمالاً لخطر عند البسفور ..

وانتظر حتى هدأ اضطرابه ثم قال للشيخ :

– معذرة يا عم كجك ؛ فإنني – كما قلت لك – أقوم بهذه المهمة لأول مرة ..

فقال الشيخ في هدوءٍ :

– هذا واضح يا بك ؛ و لكنك ستتعود عليها في المستقبل حتى تصبح مثلي ؛ ما الفرق بين أن أحمل رجلاً حياً أو رجلاً ميتاً ؟ .. لا شئ .. المسافة واحدة و ثقل الجسدين واحد ؛ و لكن أجر الميت أكبر .. إنني أتقاضى من عزيز بك مجيدياً في نقل الميت ؛ بينما أجري خمسة قروش في نقل الحي ..

فقال لطيف :

– نقل الموتى أربح لك بغير شك ..

– أربح في الدنيا وفي الآخرة يا بك .. في الدنيا أكسب مجيدياً ؛ وفي الآخرة أكسب مغفرة الله سبحانه وتعالى ..

– وهل يغفر لك الله هذا العمل ؟

– وهل أنا الذي قتلت ؟ .. على العكس .. إنني أعمل على دفن مسلم ؛ وإكرام الميت دفنه كما تعلم ..

– تدفنه في قاع البسفور ؟

– أليس هذا أفضل من ترك جثته تتعفن ؟

وكان هذا الجدل الغريب قد أعان لطيفاً على أن يبتعد عن أوهامه لحظات .. فهدأت نفسه وعاوده اطمئنانه ؛ وبدأ ذهنه يصفو ؛ وكان العم كجك لا يزال يتحدث :

– ثم .. لا تؤاخذني يا بك .. عندما أنقل بعربتي رجلاً حياً فأنا لا أدري إلى أين أساعده على الوصول .. ربما كان ذاهباً ليسكر أو ليفسق ؛ وبذلك تركبني معصية مساعدته على المعصية .. أما الميت فأنا واثق أنه غير ذاهب ليرتكب معصية ..

فضحك لطيف ثم سأله :

– لم تقل لي ماذا حدث لك أنت وعزيز عند الجسر منذ أسبوعين ..

– آه .. لقد قاطعتني و أنا أهم بإخبارك ..

وصمت لحظة ثم عاد يقول :

– منذ أسبوعين ذهبنا إلى الجسر ومعنا جثة مثل هذه التي تحت قدميك .. وقد أنزلت عزيز بك بجوار الجسر كالعادة ؛ ولم يكن هناك أي بادرة لخطر ؛ كان الشارع خالياً مظلماً ؛ فحمل عزيز بك الحقيبة وانحدر إلى البحر ليرميها هناك ؛ وابتعدت أنا بالعربة إلى شارع جانبي حى لا يلفت وقوفي الأنظار ؛ ووقفت هناك أنتظر عزيز بك حتى يفرغ من إلقاء الجثة في الماء ويرجع لأعود به إلى بيته .. وفجأة سمعت خطوات تجري نحو العربة ؛ ثم رأيت عزيز بك يقفز فيها صارخاً بي : أسرع .. أسرع بالفرار .. ولم أفهم ماذا حدث ؛ إلا أنني رأيت رجالاً يجرون نحونا ؛ فصرخت بنقولا وضربته ..

– ومن نقولا هذا ؟

– الحصان .. حصاني اسمه نقولا على اسم ملك المسكوف .. ضربته بالسوط فانطلق يجري بالعربة ؛ وعندما شاهد الرجال أننا نهرب ضربونا بالرصاص ؛ انظر خلفك تجد ثقباً مرتوقاً .. أنا رتقته طبعاً بعد أن فررنا ..

– ولكن ما الذي جعل هؤلاء الرجال يجرون خلف عزيز بك ؟

– كانوا رجال السلطان ..

– الجندرمة ؟

– كلا .. ليسوا من الجندرمة .. كانوا من حرس السلطان قلت لك .. !

– وماذا جاء بهم إلى الجسر ؟

– سوء حظ عزيز بك ؛ فإن السلطان ليلتها كان قد أمر بإلقاء أحد الحكام في البسفور ؛ فأرسل من يختطفه ويأتي به إلى الجسر ؛ وكان هؤلاء الرجال في انتظاره بقارب ليحملوه إلى داخل البحر ؛ فلما وصل عزيز بك ونزل بالحقيبة ظنوا أنه الرجل الذي ينتظرون ؛ فخرجوا إليه ليتسلموا الحقيبة ؛ ولكن منظرهم وهم في ملابس حرس السلطان أفزع عزيز بك ؛ فقذف بالحقيبة في الماء ثم انطلق يجري عائداً نحو عربتي فعرفوا أنه قاتل لحسابه وأرادوا القبض عليه .. كأن القاتل ينبغي أن يكون السلطان وحده !

فضحك لطيف لهذه الفكاهة غير المقصودة ؛ ثم قال :

– ولكنهم يقولون إن السلطان إذا أراد إغراق أحد استدرجه إلى قصره المطل على البسفور ثم قذف به من هناك ..

ففقرع العم كجك بسوطه وهو يقول :

– كان زمان يا بك .. ! أما الآن بعد أن عرف الناس هذه الطريقة فقد أصبحوا يرفضون قبول دعوة السلطان إلى قصره الذي على البسفور .. فما يكاد الرجل يتسلم دعوة السلطان حتى يعرف ما ينتظره هناك فيهرب .. ولذلك عدل السلطان عن هذه الطريقة .. إنه الآن يرسل رجاله يتربصون بمن يريد التخلص منه ؛ فيختطفونه من بيته أو من الشارع ؛ ثم يحضرونه إلى الجسر أو إلى الزاوية ..

فقال لطيف في قلق :

– ترى هل نجد هناك بعضهم الليلة ؟

فقال العم كجك :

– عند الزاوية ؟ .. لا ؛ ولكن من المحتمل أن يكونوا عند الجسر .. لا تخف يا بك .. قلبي يحدثني بأن الزاوية مأمونة هذه الليلة.

وكانت العربة قد خرجت إلى شاطئ البسفور .. وهبت نسمة رطبة مشبعة بماء البحر مست جبين لطيف بك ؛ فخففت رطوبتها من إحساسه بالقلق ؛ وأخذ يتطلع إلى الجانبين محاولاً بعينيه المدربتين أن يكتشف ما يريب .. ولكن كل ما حوله كان ساكناً مظلماً .. فملأ رئتيه من هواء البحر ثم اضطجع في مقعده صامتاً ..

وبعد قليل توقفت العربة وقال العم كجك :

– ها هي ذي الزاوية على يمينك ..

فغادر لطيف العربة وانحنى يحمل الحقيبة ؛ وأخذ العم كجك يرقبه حتى رفعها بين ذراعيه ثم قال له في صوت هامس ضاع وسط هدير الموج في البحر :

– أتعرف الطريق أم أصفه لك ؟

فرد لطيف في صوت هامس أيضاً :

– أليس هذا هو البحر ؟ .. إنه لا يحتاج إلى وصف ..

فقال العجوز معترضاً :

– كلا .. كلا .. أتريد أن تعيد الأمواج الجثة إلى الشاطئ ؟ هناك موضع خاص تلقى فيه أمثال هذه الأشياء فيجرفها التيار .. سأصفه لك ..

فأخذ لطيف يصغي إليه متململاً ؛ وهو يخشى أن يفاجئهما أحد ؛ ومضى العم كجك يصف ويشير بيديه أن انزل من هنا ثم انحرف بعد عشرين خطوة إلى .. .. إلخ .. وانقضت لحظات خالها لطيف دهراً ؛ والعجوز لا يكف عن الشرح في صوت هادئ متمهل كأنه لا يحمل جثة بين يديه ؛ و يقف في عرض الطريق .. وكان كلما لاحظ قلق لطيف و تململه قطع شرحه ليقول في هدوء :

– لا تخف فالمكان خال .. اطمئن .. قلبي يحدثني بأن الليلة ستفوت على خير ..

وعندما انتهى من شرحه واطمأن إلى أن لطيفاً وعي الطريق جيداً قال له :

– والآن سأنتظرك بالعربة في أول هذا الشارع ..

وأشار بيده إلى بقعة أشد ظلاماً من غيرها ..

– فاذهب ثم عد سريعاً ؛ ولكن لا تخف فلن يفاجئك أحد ..

وانطلق لطيف بالحقيبة ينحدر إلى البحر ؛ وسمع قرقعة العجلات وحوافر الحصان الأعجف يجذبها مبتعداً في بطءٍ .. وألقى نظرة سريعة على الشاطئ ليطمئن إلى أن أحداً لا يقترب في تلك اللحظة ؛ ثم أخذ ينزل منحدر الشاطئ في حذر متلمساً مواطئ قدميه بين الأحجار والضخور .. مستعيناً بالنجوم التي تخفق باهتة في السماء فوق البسفور ؛ وتمد عينه التي ألفت الظلام بوهم من النور لا يكاد يبين خلاله شئ .. وكانت الحقيبة الثقيلة التي ينوء بحملها تجعل من هذا الهبوط عذاباً رهيباً ؛ ففي كل خطوة خطر الانزلاق على حجر أملس أو السقوط مع حجر مقلقل يميد ؛ حتى خطر له أن يقذف بالحقيبة كيفما اتفق .. فليردها الموج إلى الشاطئ أو لا يردها ؛ ولكنه ينبغي أن يتخلص منها قبل أن يهوي معها على الصخور أو في الماء ..

وفجأة جمد في مكانه وحبس أنفاسه وود لو يخرس نبضات قلبه ؛ فقد التقطت أذنه المدربة صوت أنفاس تتردد بالقرب منه .. هو ليس وحيداً في هذا المكان ؛ هناك شخص آخر يراه ؛ وهو عاجز عن رؤيته ؛ ولم يطل جموده ذاك ؛ فقد سمع صوتاً يهمس :

– أهذا أنت ؟ .. لماذا تأخرت ؟

أهذا الهامس في الظلام كان ينتظره ؟ .. هذا محال قطعاً .. لابد أنه كان ينتظر شخصاً آخر وخدعه الظلام فحسبه إياه .. وخشي لطيف أن يتكلم فيكشفه صوته ؛ وفكر في الفرار لولا أن أية حركة طائشة يأتي بها قد تهوي به فوق الصخور ؛ وعاد الصوت يهمس وقد ازداد اقتراباً :

– أهو حي أم ميت ؟

ولمعت الحقيقة فجأة في ذهن لطيف بعد هذا السؤال ؛ لابد أن هذا الهامس في الظلام من رجال السلطان ينتظر ضحية من ضحاياه .. نفس المفاجأة التي أخبره العم كجك بأنها حدثت لعزيز .. وجعله هذا يوقن بأن أية محاولة للفرار أو خطأ في التعامل مع رجال السلطان سيعرضانه لنيران غداراتهم .. إن سترة الجندرمة التي يرتديها كفيلة بأن تكسبه ثقتهم إذا أحسن استغلالها ؛ وهو خير من يحسن ذلك ..

وكان الرجل قد اقترب منه حتى ميز جرمه ؛ ثم شاهد آخر بجواره ؛ فانتظر حتى أصبحا أمامه ثم قال في لهجة آمرة :

– أتضيعان الوقت في الكلام وأنا احمل الحقيبة ؟

وكان لهذه اللهجة الآمرة أثرها المنشود ؛ فقد تقدما يرفعانها عن كتفه ؛ وقال الرجل الأول مكرراً سؤاله :

– أو حي أم ميت ؟

فقال لطيف في جفاء :

– وكيف أعرف ؟ هل تتصور أنني سألت عظمة السلطان ؟

وأدرك الرجلان أن هذا الضابط شرس الخلق لا يحب تجاذب الحديث في أثناء العمل ؛ فحملا الحقيبة ثم سارا أمامه منحدرين إلى الماء ؛ حيث وجد زورقاً ينتظر ؛ ووضعا الحقيبة في الزروق ثم قفزا إليه وقال له أولهما :

– هيا بنا ..

ولم يكن في نية لطيف أن يركب معهما ؛ فيكفيه أنه خدعهما حتى هذه اللحظة ؛ وهو لا يضمن ما بعدها ؛ ولذلك قال في غلظة وجفوة :

– اذهبا أنتما .. لقد حملت الجثة وحدي من هناك إلى هنا ..

فدفع الرجل القارب بالمجداف وهو يقول في ضيق :

– إذن ؛ انتظرنا وحدك في الظلام عسى أن تختطفك شياطين البحر ..

واطمأن لطيف إلى أن الأزمة انتهت بسلام .. ولكنه آثر أن يؤيد سلوكه السابق فصاح بالرجل الذي ابتعد بالقارب :

– اخرس أيها الكلب .. سأؤدبك حين تعود ..

وبلغت أذنيه ضحكة ساخرة كانت أجمل ضحكة سمعها في حياته .. فاستدار عائداً يصعد المنحر إلى الشارع وهو يبتسم ارتياحاً .. لقد انتهى كل شئ على ما يرام ؛ وليس أمامه إلا أن يعود إلى بيت عزيز فيخلع ثياب الجندرمة هذه ويسترد ثيابه وأوراقه – التي اغتصبها من خزانة عزيز – ثم يعود إلى بيته لينام حتى الصباح .. وفي الصباح يغادر استانبول إلى غير رجعة .. يتركها وراءه بقصورها التي ضاقت بالجواسيس المبتدئين ؛ وبسلطانها الذي يزمع أن يسد مدخل البسفور بجثث رعاياه ..

ولكن السلطان فيما يبدو لم يشأ أن تكون هذه اللحظة هي نهاية علاقته به ؛ فما كاد يصل إلى أعلى الشاطئ حتى رأى عربة فاخرة تقترب ؛ ودله صوت عجلاتها الهادئة ووقع حوافر جيادها الأربعة على أنها عربة رجل ثري .. وتوقفت العربة في نفس الموضع الذي توقفت فيه من قبل عربة العم كجك ؛ ثم أطل منها رأس يتلفت حواليه في الظلام كأنما يبحث عن أحد يتوقع أن ينتظره هناك .. وخطر للطيف بك أن راكب العربة ربما كان يبحث عن الرجال الذين أخذوا منه جثة عزيز .. وتأكد ظنه هذا عندما فتح باب العربة ونزل منها رجلان يحملان بين أيديهما جسماً طويلاً .. هي إذن العربة التي تحمل ضحية السلطان .. ! .. فانزوى بين الصخور على الشاطئ حتى لا يراه الرجلان ؛ وأخذ يتخيل ما سوف يحدث عندما يعود الرجلان بالقارب فيفاجآن بجثة جديدة .. وطرب للجزع الذي سيصيبهما ؛ وللسخط الذي سيصبانه على رأسه .. لقد تغفل السلطان واستغل رجاله في التخلص من جثة عزيز .. واحد من رعية السلطان تغفل السلطان مرة .. !!

على أن أنة خافتة تسللت إلى أذنيه جعلت أفكاره تتجه اتجاهاً آخر ؛ فقد دلته هذه الأنة على أن الضحية لاتزال فيها حياة ؛ وتذكر سؤال الرجل الذي أخذ منه جثة عزيز إن كان حياً أو ميتاً .. فإذا كانت هذه الضحية حية فإن تغفله السلطان يكون أشد وأنكى ؛ واحد من رعية السلطان انتزع من بين مخالب السلطان فريسته .. ! .. واستهوته هذه الفكرة فلم يتردد في تنفيذها ؛ وبرز من منحدر الشاطئ متجهاً صوب العربة .. فما كاد الرجلان يريانه حتى صاح به أولهما في صوت آمر :

– أهذا أنت ؟ .. لماذا تأخرت ؟ ..

وابتسم لطيف في الظلام .. نفس السؤال الذي بدأه به رجل السلطان الآخر في أسفل المنحدر :

– كنت أتأكد من أن الزورق مربوط جيداً إلى الشاطئ ..

– إذن أسرع واحمل هذا الخنزير لتريحني من وجهه ..

وبدا من حدته أنه يعرف الضحية ويكرهها ؛ وزاد هذا في تلذذ لطيف بإنقاذها من يده ؛ فانحنى يحمل الجسم الذي ألقى به إلى الأرض ؛ فوجد غرارة يصدر عنها هذا الأنين الخافت ؛ فرفعها بين ذراعيه ثم انحدر مرة أخرى إلى الشاطئ حتى اختفى عن عيني الرجلين .. وانقضت لحظة سمع بعدها فرقعة العجلات الهادئة وصوت حوافر الجياد الأربعة وهي تبتعد .. فأسرع يشق الغرارة بخنجره ؛ ثم قطع الحبال التي حول معصمي الضحية وساقيه ؛ ورفع الحجر الذي يثقل رجليه ؛ وانحنى متلهفاً إلى رؤية وجه الرجل .. وعلى ضوء النجوم الشاحب استطاع أن يرى ملامح لم تطمسها الجروح ولا الدماء التي تجمدت فوقها ؛ إنها ملامح رآها منذ ليلة واحدة .. رآها أمس عندما أطلقت النار على الرجال الذين كانوا يطاردونه ؛ فهتف في دهشة :

– من .. ؟ .. علي بك تابع إبراهيم باشا .. ؟!

وسيطر على دهشته في سرعة فلم يكن الموقف يسمح له بلحظة يضيعها .. كان الشارع هادئاً حقاً بعد أن ابتعدت عربة جلادي السلطان ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن الخطر قد زال تماماً ؛ فلو قد عاد الرجلان اللذان ذهبا بجثة عزيز ورأيا بين يديه هذه الجثة المضروبة ضرباً كاد يفقدها حياتها ؛ لكلفه ذلك حياته هو .. ومن ثم حمل علي بك المغمى عليه وأسرع يعدو نحو عربة العم كجك ؛ الذي نظر إلى حمله في دهشةٍ – ربما للمرة الأولى أبدى دهشته لشئ هذه الليلة – وقال :

– ما هذا ؟ .. رجل .. !

فهتف به لطيف بك وهو يلقي بحمله في العربة ويصعد إليها خلفه :

– أسرع إن أردت أن تفوت ليلتنا على خير ..

ففرقع العم كجك بسوطه فوق رأس حصانه الهزيل الذي بدأ يتحرك في تثاقل ؛ وأخذ العجوز يهمهم :

– الطف اللهم بنا .. هذه أول مرة أعود فيها بجثة من البحر ..

صحا إلهامي في الصباح وهو يحس بصداع يفتك برأسه وبثقل كئيب يجثم على صدره ..

ومضى يستعرض في خياله أحداث اليوم المنقضي ؛ لقاءه بستراتفورد وولاية العهد ؛ وتلك الأقوال الرهيبة التي سمعها عن جده محمد علي ؛ ثم ذلك الصراع المرير بينه وبين علي بك ليجعله يصرخ ؛ وهزيمته أمام إصراره ؛ وتلك السحنة العجوز التي أمضت ساعات الليل بجوار فراشه تفضح له خرافة ذات جده العلية وأخيراً مصرع علي بك الذي ألقي إليه ببساطة كأنما هذا شئ يسره

وتساءل : لماذا لم يُسَرَّ بمصرع علي بك ؟ .. لماذا جزع هذا الجزع الذي جعله ينفجر باكياً في جنون ؟ ألم يكن علي بك عدوه الذي ركع أمامه يستعطفه ليصرخ ؟ أليس مقتله انتقاماً لهذا الموقف المهين الذي قاده إليه .. ؟ ولم تبدد هذه الأسئلة شيئاً من الثقل الذي يجثم على صدره .. نعم .. إن علي بك قتل ؛ ولكنه انتصر .. ! .. لن يعرف إلهامي بعد اليوم ذلك الإحساس الذي كان يجعل لحياته طعماً حلواً .. لن يؤمن بعدما حدث بينهما بأنه ذات متميزة خلقت لتحكم .. سوف يحيطه الآخرون حقاً بكل ما يؤيد هذه الخرافة ولكنه لن يصدقهم منذ اليوم .. كلهم كاذبون متملقون ؛ كلهم يركعون أمامه وفي أعماقهم سخرية به ؛ جباههم تخضع ولكن عيونهم تهزأ ؛ ألسنتهم تنطق بعكس ما تنطوي عليه ضمائرهم .. ! .. ولقد كانوا دائماً هكذا دون أن يدري .. وأحس بخجل أسود وهو يتذكر تلك السنوات التي قضاها أعمى بين هؤلاء الناس ؛ وتحت وهم الذات المتميزة ..

ماذا كانوا يقولون عنه وراء ظهره ؟ إنه لن يعرف أبداً ؛ وإن كان من الواضح أنه هزؤ منه وسخرية به .. الوحيد الذي قال له في صراحة ما كان يقوله وراء ظهره هو علي بك .. علي بك الذي قتله الكرنفال .. لقد كشف له علي بك حقيقة نفسه .. إنه إنسان ضعيف مغرور مخدوع .. إنه أضعف من أن ينظر حتى في عيون أولئك المنافقين الذين يحيطون به ؛ بل إنه أصبح واحداً منهم .. إن قبوله ولاية العهد جعله منافقاً مثلهم ..

ألم يكن يعرف وستراتفورد يلقي إليه بالنبأ أنه إنما يشتريه بهذا المنصب ؟ .. ألم يكن يكرهه ؛ ومع ذلك ابتسم في وجهه وأبدى له امتنانه وشكره ؟ .. إنه أيضاً يقول بلسانه غير ما ينطوي عليه ضميره .. لقد باع في تلك اللحظة كل شجاعته وإيمانه بهذا المنصب الذي انتزعه ستراتفورد من عم أبيه .. وهو لم يبعهما لستراتفورد فحسب بل باعهما لكل إنسان في الأرض .. إنه منذ قبل ولاية العهد لن يعيش إلا منافقاً بين منافقين .. وحقيراً بين حقراء .. الأدنى منه ينافقونه فيحتقرهم ؛ وهو ينافق الأعلين فيحتقرونه ..

سوف ينافقه رجال الحاشية وكبار الدولة ويوهمونه أنه إِلَهٌ عليه أن يقول للشئ كن فيكون .. وهو بدوره سوف ينافق ستراتفورد ويوهمه بأنه إله ؛ وخلال ذلك كله عليه أن يحكم مصر .. فهل يستطيع أن يحكمها حقاً دون أن يلجأ إلى السوط والخنجر ؟

وفهم في تلك اللحظة لماذا يحكم السلطان ويحكم أبوه بالسوط والخنجر .. إنهما لا يملكان إلا أن يفعلا ذلك ؛ لا لأنهما ليسا ذاتين متميزتين فحسب ؛ بل لأنهما عبدين ذليلين يستعبدهما المنافقون حولهما ؛ ويستعبدهما ستراتفورد أو غير ستراتفورد من رجال السياسة الأقوياء .. وهذا هو المصير الذي ينتظره ..

وفي تلك اللحظة دخل عليه السلطان .. كان قد أقبل ليطمئن عليه قبل أن تشغله أعباء الدولة ؛ ولما رآه هادئاً بدا عليه السرور ؛ فجلس بجوار فراشه وقال :

– كنت واثقاً من أن شبابك وقوتك ستمكنانك من اجتياز محنة الأمس بسلام .. ولا أخفي عليك .. لقد خفت أن تصاب بالجنون .. !

ولم يجب إلهامي ! .. فقد دفعته عبارة السلطان إلى أن يتساءل إن كان لم يصب بالجنون حقاً ؟ إن الأفكار التي تدور في رأسه لو طبقت عليها مقاييس السلطان لكانت أفكار مجنون فعلاً ..

ومضى السلطان يقول :

– ولكن كل شئ انتهى الآن ؛ وأنت لا تحتاج إلا إلى رحلة إلى أوروبا تستريح فيها وتهدئ أعصابك ؛ نعم ؛ رحلة إلى أوروبا تبعدك عن جو العمل سوف ترد إليك صحتك لقد أمرت بإعداد كل شئ ؛ وسوف تسافر مع زوجتك خلال يومين على الأكثر

ولم يجب إلهامي مرة أخرى ؛ كان يتساءل أيضاً إن كانت الرحلة إلى أوروبا سوف تفيده حقاً كما يقول السلطان ؟ نعم .. إنها سوف تبعده عن هذا الجو المسموم بالنظرات الجوفاء التي تبدي الخضوع وتضمر السخرية .. هناك في أوروبا سوف يعيش أسابيع بين رجال لا يعاملونه كذات بهية ؛ خصوصاً إذا ذهب دون حاشية وأتباع ..

وعاد السلطان يقول :

– وبضعة أسابيع في أوروبا سوف تهئ لي الجو لأصدر فرمان نقل ولاية العهد إليك ..

ودهش السلطان لأنه لم يبدُ عليه أي سرور ؛ ولم يلثم يده داعياً له بطول البقاء .. ولكنه أغضى عن هذا الجحود ورده إلى أنه لا يزال مرهقاً من أحداث الأمس ؛ فمضى يقول :

– إصدار الفرمان سوف يستغرق وقتاً ؛ فأنت تعرف أن نظام وراثة العرش في مصر تضمنه معاهدة دولية ؛ وتغيير هذا النظام سوف يورطني في مشكلات مع الدول الموقعة على هذه المعاهدة ؛ ولهذا ينبغي أن .....

وتكلم إلهامي لأول مرة :

– مولاي .. لا داعي لأن تتورط عظمتكم في مشكلات بسبب هذا الأمر ..

– ماذا تعني يا إلهامي ؟

– أعني يا مولاي أنني أعتذر عن قبول عرش مصر ..

– ماذا ؟

ولأول مرة منذ عرف إلهامي السلطان رأى وجهه يفصح عما يصطرع في صدره ؛ فقد سقط قناع الجمود عن وجهه ؛ واتسعت عيناه في ذهول ؛ وهب واقفاً وهو يقول في غضب :

– هل جننت ؟

ولم يجب إلهامي ..

– هل جننت يا إلهامي لترفض عرش مصر ؟

ولم يجب إلهامي مرة أخرى ..

– نعم .. لابد أنك جننت .. لقد صح ما توقعته وأصابتك أحداث الأمس بالجنون .. !

– مولاي .. إنني عاقل تماماً .. أؤكد لعظمتك أنني في كامل عقلي .. ولهذا أرفض عرش مصر ..

– ولماذا أيها الأحمق ؟

– لأنني لا أستطيع أن أحكم .. أنا أعجز من أن أكون حاكماً يا مولاي ..

– أنت مجنون .. ! ومن الذي طلب إليك أن تحكم ؟ كل ما عليك هو أن تجلس على العرش فحسب ..

– وهذا ما لا أستطيعه ؛ إما أن أحكم فعلاً ؛ وإما أن أترك الأمر كله . لا أستطيع يا مولاي أن أكون قناعاً لستراتفورد أو لغيره

وأخذ السلطان يحدق إليه لحظة ؛ وبدا عليه أنه أخذ يفهم .. وبدأت ابتسامة هادئة تزيح أمامها مظاهر الغضب عن وجهه ؛ ثم جلس وقد استعاد هدوءه ؛ وانقضت دقائق قبل أن يتكلم ثانية :

– يبدو أنك لا تزال تكره ستراتفورد

وهز إلهامي رأسه نافياً .. فلم يعبأ السلطان بنفيه ؛ ومضى يقول :

– ولكنني شرحت لك مرة أن السياسة لا تعرف الكره أو الحب .. السياسة لا تعرف إلا المصلحة .. !

– وما مصلحتي في هذا الأمر يا مولاي ؟

فضحك السلطان وقال :

– مصلحتك أنك ستكون والياً .. يتحرك الرجال بإشارة من أصبعك ..

– لا يعنيني كثيراً يا مولاي أن يتحرك الرجال بإشارة من أصبعي ..

ومضى السلطان غير ملقٍ بالاً إلى مقاطعته :

– وسوف تكون ثروة مصر كلها تحت يدك ..

– عندي من الثروة ما يكفيني يا مولاي ..

وكان السلطان لا يزال يتكلم كأنما لم يسمع اعتراضات إلهامي :

– الحق أن سؤالك غريب لا يصدر عن رجل عاقل ..! ما مصلحتك في أن تكون والياً على مصر !؟ هل يرفض عاقل أن يشغل أعلى منصب في بلاده ؟ بل أعلى منصب في السلطنة بعد السلطان والصدر الأعظم ؟ لابد أن أحداث الأمس أثرت على عقلك فعلاً .. ! .. سوف أعتبر اعتذارك هذا كأن لم يكن .. أنا لم أسمع اعتذارك يا إلهامي .. نعم .. لابد أن أترك لك فرصة للتفكير .. وأنا واثق أن رحلتك إلى أوروبا ستعيد إليك صوابك ..

– مولاي .. لا أظن أنني سأغير موقفي حتى لو عشت في أوروبا سنةً كاملةً .. بصراحةٍ يا مولاي .. لقد فكرتُ في هذا الأمرِ كثيراً هذا الصباحِ .. أتعرف يا مولاي ماذا أتمنى الآنَ ؟ إنني أريدُ أن أكونَ رجلاً حراً .. رجلاً بسيطاً ولكنه حر .. لقد تأكدتُ

يا مولاي أن المناصبَ تسلبني حريتي .. وأن المجالَ الوحيدَ الذي يمكنني أن أمارسَ فيه هذه الحرية هو الحياة العادية .. لا أريد أن أستعبدَ أحداً .. ولا أن أكونَ عبداً لاحدٍ .. يُخيلَ إلي يا مولاي أن الجنةَ ليست جنة إلا لأنَّ الإنسانَ فيها سيكون حراً ؛ ليستْ له أطماعٌ يُسخِر الآخرينَ لتحقيقها .. ولنْ يكونَ أداةً مسخرةً لتحقيقِ أطماعِ الآخرينَ .. هذه هي السعادةُ التي كشفتها ليَ أحداثُ الأمسِ يا مولاي .. ولهذا أرفضُ عرشَ مصرَ ..

فأغرق السلطان في الضحك ؛ وربت على كتف إلهامي ثم نهض واقفاً ؛ وقال :

– لنرجئ الحديث حتى تعود من أوروبا .. سأعد هذا الاعتذار غير قائم حتى تسترد عافيتك تماماً ..

ثم غادر الحجرة .. وأخذ إلهامي ينصت إلى قعقعة السلاح وصياح الحراس بتحية السلطان ؛ ثم إلى صوت مركبته وهي تبتعد وسط ضجة الموكب الكبير .. ثم ابتسم وقال لنفسه :

– زيف .. زيف وكذب .. !

ومضى يتخيل نفسه رجلاً عادياً ؛ يخرج بلا موكب ودون أن يتخفى ؛ ويسير بين أناس نظراتهم لا تحيطه برهبة مصطنعة ولا بإجلال زائف .. من يكرهه يقول له إنه يكرهه ؛ ومن يحبه تشع عيناه بدفء الحب ..

وفتح الباب ودخلت زوجته بوجهها الطفلي الساذج ؛ ورأى في عينيها للمرة الأولى ذلك الشعاع الدافئ الذي كان يتخيله في عيون الناس ؛ فمد يداً مرتجفةً تمسك بيدها الدافئة المستسلمة :

وقالت منيرة في انبهار :

– طلب مني أبي أن أقنعك بقبول عرش مصر

فابتسم إلهامي ولم يجب ؛ فجلست بجواره على الفراش وهي تقول :

– مالنا وللعرش ..!

فأحاطها إلهامي بذراعيه ؛ ودفن وجهه في شعرها ..

(17)

أحس لطيف بك في الصباح بأن وجود علي بك في بيته يمثل عقبة لم يفكر فيها حينما أنقذه من بين أيدي رجال السلطان .. لقد اندفع إلى هذا العمل أولاً حتى لا يكتشف رجال السلطان أنهم ألقوا في البسفور بجثة أخرى هو مسؤل عن موتها .. ثم لما تعرف على وجه علي بك خيل إليه أن الأقدار لم تلق به في طريقه مرتين عبثاً ؛ وأنه لابد سيكون له شأن معه .. ولم يكن الوقت ليتسع حينئذٍ ليمعن في التفكير فاندفع إلى حمله وتهريبه إلى بيته استجابة لأول خاطر .. وقد بذل جهده لإسعافه فغسل له جروحه وضمدها .. وأفاق علي بك لحظة وأخذ يهرف بكلام غير متسق ؛ ولكنه فهم منه أن سيده غضب عليه .. وكان التعب قد هدَّ قوى لطيف بك فلم يحاول أن يستخلص من علي بك تفصيلات محنته ؛ وقام مرجئاً كل شئ إلى الصباح الذي سيرد إليه نشاطه ؛ ويهيئ في نفس الوقت لعلي بك فرصة يستعيد فيها قواه فيستطيع أن يتكلم ..

ولكنه بعد أن استيقظ في الصباح وفكر في الأمر من جديد اكتشف أنه عقبة تعرقل خططه التي وضعها وسار في تنفيذها بنجاح ؛ حتى استقامت له سبل السفر إلى مصر برسالة الأميرة نازلي .. وكان كل شئ قد أعد ليسافر هذا الصباح .. وينبغي أن يسافر فعلاً هذا الصباح لأن بقاءه في الآستانة يوماً أو أياماً يعرضه لأن يكتشف ستراتفورد أنه لا يزال حياً .. وقد يثير هذا الكشف الشكوك حول اختفاء عزيز بك ؛ وربما أدت هذه الشكوك إلى اكتشاف جريمته .. ينبغي إذاً أن يسافر هذا الصباح ؛ ولكنه لا يستطيع أن يسافر ويترك علي بك في بيته مريضاً جريحاً فاقداً قواه الجسمية والعقلية معاً ؛ معرضاً لأنظار الجيران وأسماعهم ؛ فربما يدفعهم الفضول إلى تقصي حقيقة هذا الغريب المريض في بيت رجل سافر .. وإذا اهتدوا إلى حقيقته فقد ضاع علي بك وضاع هو معه ؛ إذ سوف يؤدي هذا إلى أن يكتشف ستراتفورد أنه لم يقتل ؛ ومن ثم يطارده رجاله قبل أن يصل إلى مصر .. هذا فضلاً عن أن السلطان لن يغفر له استنقاذه علي بك من يده ؛ نعم ؛ إنه إن ترك علي بك في بيته وسافر يكون كمن ترك دعوة لستراتفورد وللسلطان لاغتياله ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن ينقل علي بك من البيت دون أن يلفت إليه الأنظار

وحالة علي بك لا تسمح له بأن يغادر البيت وحده .. وهو إن استطاع أن ينزل الدرج فهو ساقط لا محالة أمام باب بيته من الإعياء ؛ ومن ثم يسلمه المارة إلى الجندرمة حيث ينكشف كل شئ ..

وبدت له المشكلة أعصى من أن تحل .. إلا إذا .. !

ولكن نظرة إلى علي بك المستغرق في النوم نفت سريعاً هذه الفكرة عن ذهنه .. نعم ؛ إن قتله حل للمشكلة ؛ فهو يستطيع أن يقتله ثم يسافر بعد أن يكلف كاظم والعم كجك بأن يحملا جثته في الليل ويتخلصا منها .. ولكن كيف يقتله وهو الذي ألقت به المقادير في طريقه لينقذه ؟ وهل كانت الأقدار تعبث عندما نسجت بينهما هذه الوشائج عشية سفره إلى مصر ؟

وتقلب علي بك في فراشه وتأوه ؛ فتأمله لطيف بك متمعناً ؛ ثم هز كتفيه في استسلام وقال في نفسه :

– ليكن ما يكون ؛ ولكنني سأنتظر حتى يفيق ونتحدث ..

وهكذا ترك علي بك نائماً واضطجع على مقعد بجوار فراشه ينتظر حتى يفيق .. وأخذ يستعرض أحداث البارحة محاولاً أن يستخلص منها معالم تهديه إلى ما يخبئه له المستقبل في مهمته بمصر ؛ وتساءل إن كان لاستراتفورد في مصر نظام محكم للجاسوسية كهذا الذي له في الآستانة ؛ لم يستبعد ذلك ؛ بل رجحه ؛ مشفقاً مما يمكن أن يحدث عندما يبلغ ستراتفورد أنه لم يقتل ؛ وأن رسالة للبرنسيسة وصلت لأخيها سالمة ..

وليس ثمة مهرب من أن يبلغه ذلك مادام سيرسل جاسوساً زائفاً برسالة زائفة .. وسوف يلتقي به عند محمد سعيد باشا ويكشف حقيقته .. وحينئذٍ لابد أن يعلم ستراتفورد بالأمر عن طريق جواسيسه هناك .. ولابد من أن يعمل على الانتقام منه ؛ وهو لا يخشى جواسيس ستراتفورد ؛ ولكن اطمئنانه سيزداد لو استطاع أن يعرفهم أو يعرف شيئاً من أساليبهم قبل أن يصطدم بهم في مصر .. وهنا تذكر تلك الأوراق التي أخذها من بيت عزيز بك ليفحصها فيما بعد .. وتساءل إن كان سيجد فيها شيئاً يفيده ؛ فقام إليها يقرأها متفحصاً ..

وكانت الورقة الأولى قائمة بخمسة وعشرين اسماً ؛ أخذ لطيف يستعرضها فعرف منها سبعة أسماء كلهم من محترفي التجسس ؛ فلم يشك في أن الباقين أيضاً كذلك .. ولعل هذه الورقة تضم أسماء تلك الجماعة التي يعمل عزيز على رأسها في خدمة ستراتفورد .. ينبغي إذن أن يحفظ بقية الأسماء احتياطاً للمستقبل ؛ فربما التقت خطوات واحد منهم بخطواته .. وابتدأ ينقل الأسماء الجديدة ولكنه عدل عن ذلك ؛ نعم .. لماذا لا يحتفظ بالورقة كلها ؛ ويقدمها لمحمد سعيد باشا في مصر تأكيداً لقدرته على محاربة جواسيس أعدائه ؟ .. سيقول له :

– إنني أضع هذه الورقة بين يدي سموكم نموذجاً لما يمكن أن أقوم به في خدمتكم .. إن أراد سموكم أن يقضي على هؤلاء الجواسيس فما عليه إلا أن يصدر إليَّ أمره ..

وضحك لطيف وهو يتخيل دهشة سعيد عندما يجد أعوان عدوه بين يديه بمثل هذه السهولة .. ربما يمنعه وقار الإمارة أن يحتضنه ويقبله ؛ ولكنه سيمنحه ثقته وسيمنحه معها أكياساً و أكياساً من الذهب ..

ومضى يقلب أوراق الكراسة في سرعة ؛ وقلب صفحات وصفحات ؛ وكلها لا تحوي إلا أسماء ضحايا وتاريخ موتهم .. وأخذ يحصي سريعاً .. ثلاثون .. خمس وأربعون .. ستون .. خمس وسبعون .. تسعون .. يبدو أن عزيزاً كان سفاحاً .. ! وقلب الورقة

؛ نعم .. إنها الورقة الأخيرة ولم تكتمل سطورها بعد : سبعة أسماء فقط .. ووقعت عينه على آخر اسم فارتجف .. كان اسمه هو وأمامه تاريخ أول أمس .. وكلمة أخرى جعلت أساريره تنفرج .. كانت كلمة "سلطان" ..

إذن ؛ فسلطان هو الذي كلف عزيز باغتياله ؟ ولقد أنبأه عزيز وهو يحتضر أن ستراتفورد هو الذي أمره بذلك .. أيكون السلطان رمزاً لستراتفورد .. بغير شك هو ستراتفورد .. ألا يطلق عليه اسم السلطان ستراتفورد أو عبد الكاننج ؟ .. وأسرعت أصابع لطيف في انفعال تقلب الأوراق بحثاً عن اسم السلطان ؛ فوجده أمام ستة وعشرين اسماً .. ستراتفورد قتل ستة و عشرين رجلاً ..! ولم يصدق للوهلة الأولى ؛ أيمكن أن ينقلب سفير دولة عظمى إلى مثل هذا السفاح ؟ .. إلا أن دهشة لطيف لم تمنعه من الإحساس بالفرح ؛ لقد وضع يده على سر يستطيع به أن يقضي على سمعة ستراتفورد ويحطم به حياته السياسية .. يكفيه أن ينشر هذه الأسماء في إحدى الصحف الأوروبية فتقوم فضيحة تكون فيها نهاية ستراتفورد .. وسوف يهدده بذلك في اللحظة المناسبة ؛ وهو واثق من أنه سيخضع لتهديده ..

وطوى لطيف بك الكراسة ووضعها في جيبه في عناية ؛ فهي السلاح الذي سُيكتب له به النصر على ستراتفورد ..

وتنبه لطيف على صوت يصدر من علي بك النائم على الفراش ؛ فالتفت إليه .. كان قد استيقظ وفتح عينيه ؛ وأخذ يتطلع إلى ما حوله بنظرات تدل على أنه يعي تماماً ما يحيط به .. وأحس لطيف بك بالارتياح لذلك ؛ فقد كان يخشى أن تؤثر المحنة على عقله وذاكرته ؛ مما يضيف عبئاً جديداً إلى الأعباء التي ألقيت عليه عندما أنقذه ؛ ولكن نظرته الثابتة الواعية تنبئ عن أنه سوف يتماثل سريعاً للشفاء .. فقام إليه باسماً وقال :

– هيه .. كيف الحال ؟

فنظر إليه علي بك وبدا عليه أنه يبذل جدهاً كبيراً ليتذكر أين رآه من قبل ؛ ثم جلس في فراشه ؛ ودلت حركته السريعة تلك على أن جسمه أيضاً ليس مصاباً إلى الحد الذي حسبه لطيف بك ؛فقال له :

– يبدو أن النوم أعاد إليك جزءاً كبيراً من قواك

فقال علي بك متسائلاً :

– أين أنا ؟

فضحك لطيف بك و قال :

– أنت في بيتي يا علي بك فاطمئن ..

فعاد علي بك ينظر حوله يتفحص المكان ثم قال :

– في بيتك ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟ إن آخر ما أذكره قبل أن أفقد الوعي هو أنني كنت أوضع في غرارة ؟ ..

فقاطعه لطيف ضاحكاً :

– ليلقى بك في البسفور .. أليس كذلك ؟

– تماماً .. فما الذي حدث حتى أفيق فأجد نفسي هنا ؟

فأخذ لطيف بك يقص عليه في سرعة كل ما فعله لإنقاذه ؛ ولكنه أخفى عليه شيئاً واحداً ؛ هو السبب الحقيقي لوجوده على شاطئ البسفور في نفس اللحظة التي وصلت فيها عربة السلطان .. ثم قال له :

– إن كان عدوك شخصاً غير السلطان ؛ ففي استطاعتي أن أساعدك في انتقامك ..

ولكن علي بك ظل صامتاً ؛ فعاد لطيف بك يقول :

– ينبغي أن تطمئن إلي ؛ وثق بي ؛ وإنقاذك من موت مؤكد أمر به السلطان يدلك على أنني أهل لثقتك ..

فنظر علي بك إليه ؛ ومرة أخرى بدا عليه أنه يحاول أن يتذكر شيئاً ؛ ثم قال أخيراً :

– ألم نتقابل من قبل ؟

– طبعاً ؛ ألم تعرفني حتى الآن ؟ لقد التقينا منذ يومين وقلت لك ولإلهامي باشا إنني أرجو ألا تجهلا شخصيتي .. لطيف بك ..

فأشرق وجه علي بك وقال :

– أنت الذي أنقذناه من اللصوص في أزقة الآستانة ..

– هو أنا يا سيدي ..

فقال علي وقد بدا عليه الإطمئنان :

– لماذا لم تقل هذا من أول الأمر ؟ لقد حسبتك أحد أولئك المغامرين الذين يتصيدون الفرص ..

فنظر إليه لطيف في حذر وقال :

– وهل يضايقك أن أكون كذلك ؟

– لا يضايقني طبعاً ؛ ولكن معناه أن كل ما بيننا سينتهي بعد أن أدفع لك المكافأة ..

– مكافأة ؟

قالها لطيف ضاحكاً ..

– لو كنتَ مغامراً أفاقاً فأنت لم تنقذني طبعاً إلا طمعاً في الحصول على مكافأة ؛ ولكن أن تنقلني رداً لجميل سابق فهذا أمر مختلف ..

– لقد أنقذتك يا سيدي لأنك أنقذت حياتي ؛ هي حياة بحياة كما ترى ..

فقام علي بك إليه وصافحه في حرارة وهو يقول :

– فلنكن أصدقاء إذن ..

– ليس أحب إليَّ من ذلك ..

وعاد علي بك يجلس في مقعده وقال :

– وليس ثمة ما يمنع من أن تعرف كل شئ ..

وأخذ يقص عليه ما حدث بينه و بين إلهامي حتى لحظة تقييده ووضعه في الغرارة ؛ واختتم قصته قائلاً :

– ومن هنا فإن عدوي الذي ينبغي أن أنتقم منه هو إلهامي نفسه لا السلطان ! فالسلطان فعل بي ما فعل إرضاءً لهذا الصبي المجنون ..

وصمت علي بك منتظراً أن يسمع تعليق لطيف على قصته ؛ ولكن لطيف بك لم يعلق بشئ ؛ فقد كان مأخوذاً بفكرة انبثقت في ذهنه عندما سمع من علي بك أن فرمان نقل ولاية العهد من سعيد إلى إلهامي يوشك أن يصدر .. لقد أدرك لحظتها لماذا ألقت المقادير بعلي بك في طريقه ؛ بل بدا له الأمر متشابكاً أكثر من ذلك ! فلو لم يلتق بعزيز وسافر إلى مصر لأصيب بصدمة فادحة عندما يفاجأ هو والرجل الذي يعلق الآمال على خدمته بهذا الفرمان الذي يجرده من العرش .. أما وقد التقى بعزيز وقتله

وحاز أوراقه تلك الخطيرة ؛ وأما وقد التقى بعلي بك وأنقذ حياته وضمنه إلى جانبه وجانب سعيد باشا ؛ فإن هذا الفرمان لم يصدر ؛ نعم ؛ فإن الأسرار التي تضمها أوراق عزيز ؛ مضافة إلى الأسرار التي يعرفها علي بك كفيلة بأن ترغم ستراتفورد على أن يتراجع عن خطته ؛ وهي كفيلة أيضاً بأن تلوث سمعة إلهامي بما يجعله غير أهل دينياً وسياسياً لولاية العرش ..

إنه سيخوض في سبيل ذلك معركة خطيرة ؛ ولكنه كفء لها ؛ وإذا ما انتصر – وسوف ينتصر – وأرغم ستراتفورد على أن يبتلع مشروعه ؛ وعرى إلهامي أمام الناس ؛ فإن سعيد باشا لن ينسى له هذا الفضل طول حياته ؛ و لن يتردد في أن يغدق عليه المال والجاه ما يغنيه إلى آخر الدهر ..

واستغرقته هذه الأفكار فلم يعقب على قصة علي بك ؛ ولاحظ علي بك هذا الاستغراق فسأله :

– أتفكر في شئ ؟

وانتبه لطيف ؛ فنظر إلى علي بك كما ينظر الإنسان إلى كنز هبط عليه من السماء .. نعم ؛ إنه بتعاونه معه سيهيئ له فرصة العمر .. ولكن هل يضمن تعاونه ؟ إنه وثق به حقاً واطمأن إليه ؛ ولكنه فعل ذلك معتقداً أنه رجل كريم أنقذ حياته رداً لجميل سابق .. ولو عرف أنه مغامر ممن يتحينون الفرص كما وصفه فقد يتغير موقفه ..

ولكن لطيف بك لم يتردد أمام هذه العقبة .. فليكن علي بك من أولئك الحمقى الذين يتمسكون بالأساليب الشريفة المستقيمة ؛ ولكنه حاقد على إلهامي ؛ وبذلك يلتقي طريقاهما .. فلتختلف الأساليب مادامت تؤدي إلى غاية واحدة .. لا يهم ..! فنظر إليه جاداً وقال :

– اسمع يا علي بك .. إنني مغامر ممن يتحينون الفرص كما ظننت أولاً .. أنا جاسوس محترف ..

وارتسمت دهشة ممزوجة بخوف على وجه علي بك ؛ ولكن لطيف بك أشار إليه مهدئاً ومضى يقول :

– ولكن اطمئن ؛ فأنا لم أستنقذك من بين يدي السلطان طمعاً في المكافأة ؛ كذلك لا أنوي أن أستغل القصة التي سمعتها منك استغلالاً يعرضك للضرر ؛ ولكن تصادف – وأؤكد لك أنها مصادفة – أنني أعمل الآن في خدمة شخص هو عدو طبيعي لإلهامي باشا ؛ ومن هنا فإن أهدافنا تتحد .. إن هذا الشخص قوي وقادر على أن ينتقم لك من إلهامي ؛ ولن أزعم أنه سيفعل ذلك حباً فيك ؛ ولكن محافظة على مصلحته .. فما رأيك لو تعاونت معنا ؟

وصمت علي بك بعد أن أدرك أنه أفضى بأسرار خطيرة إلى شخص يحترف بيع الأسرار ؛ ولم يطمئنه كثيراً ما قاله لطيف عن اتحاد هدفيهما ؛ فإنه لا يحب التجسس والجواسيس ؛ بل إنه ليتقزز منهما .. ولاحظ لطيف تردده فقال له :

– من حقك طبعاً أن ترفض ثم تمضي في طريقك مطمئناً إلى أنني لن أسبب لك أي ضرر بما سمعته منك ..بل تستطيع أن تثق في أنني سأنساه كأنني لم أسمعه إذا ما طلبت مني ذلك .. ولكن .. فكر قليلاً بعيداً عن مفاهيم الشرف الخاطئة .. هل أنت وحدك قادر وحدك على الانتقام من إلهامي باشا ؟

وحاول علي بك أن يتكلم .. ولكن لطيف بك لم يترك له فرصة للكلام ؛ فقد تابع حديثه :

– تستطيع طبعاً أن تترصد له في الظلام وتطلق عليه النار ؛ أو أن تستأجر من يقوم لك بهذا ؛ ولكن ماذا لو فشلت ؟ وماذا لو نجحت وقبض عليك ؟ ألا تعلم أنهم سيعذبونك أضعاف ما عذبك إلهامي قبل أن يعدموك ؟ هل سمعت عن الخازوق يا علي بك ؟

فقال علي بك في إصرار :

– أنت لم تترك لي فرصة للكلام .. أنا لم أفكر في قتل إلهامي باشا ؛ فالقتل راحة وأنا لا أريد له أن يستريح .. !

– و فيم فكرت إذن ؟

– سأنغص عليه حياته ؛ سأفضحه في كل مكان ؛ لا في مصر فحسب ؛ بل في أوروبا أيضاً ؛ سأرسل بفضائحه إلى الصحف في فرنسا والنمسا وإلى بلاد الإنجليز والروس ..

فهتف لطيف بك مقاطعاً في حماس :

– نحن متفقان إذن .. أنا لا أريد منك أكثر من هذا ..

– لكنك جاسوس محترف ؛ وأنا .....

فقاطعه لطيف :

– الجاسوس يا سيدي ليس دائماً غير شريف .. لا تظن أنني ومن أعمل في خدمته سنعمل في الظلام ؛ كلا يا سيدي .. إننا سنعمل في النور الساطع لأن هذا هو طريقنا الوحيد إذا أردنا أن نمنع إلهامي من ولاية العهد ..

– وما دخل ولاية العهد في الأمر ؟

– إنها الأمر كله .. فالرجل الذي أعمل في خدمته هو ولي العهد الحالي ..

– من ؟ سعيد باشا ؟

– نعم ..

و تهلل وجه علي بك ؛ فإن خطته التي فكر فيها منذ لحظة كانت تعتمد على تأييد محمد سعيد باشا ؛ لقد اعتزم أن يرحل إلى مصر فوراً ويقابل سعيد باشا ويطلعه على مؤامرة انتزاع ولاية العهد منه ؛ ثم يستعين بأمواله واتصالاته على نشر فضائح إلهامي .. وها هو ذا لطيف بك يعلن له أنه يعمل في خدمة سعيد باشا نفسه ؛ فليس هناك ما يدعو لرفض التعاون معه ؛ على أن يبتعد بنفسه عن التآمر والتجسس .. فقال للطيف :

– لو أنبأتني من أول الأمر بأنك تعمل في خدمة سعيد باشا ...

فقاطعه لطيف ضاحكاً :

– لتغير الموقف .. هذه ثاني مرة يا علي بك تقول لي لو أنبأتني من أول الأمر ..

فضحك علي بك وقال :

– يبدو أنني حذر أكثر مما ينبغي .. على أية حال أنا في خدمتك .. فهلا أنبأتني بالتفاصيل .. !

ففكر لطيف لحظة قبل أن يقول :

– أريد أن أكون صريحاً معك ؛ فلا أخدعك وأزعم أنني أعمل فعلاً في خدمة سعيد باشا ؛ ولكنني مسافر إلى مصر لأعمل في خدمته ..

وأخذ يقص عليه أنباء المهمة التي كلفته بها الأميرة زهرة باشا ؛ ثم عرض عليه نماذج من الأسرار التي وجدها في أوراق عزيز ؛ وختم كلامه قائلاً :

– ومن هذا ترى يا علي بك أن سعيد باشا سيرحب بي وبك كل الترحيب ..

فقال علي بك وهو ينهض واقفاً :

– إلى مصر إذن ..

فقال لطيف بك :

– ستسافر بعد أن تسترد قواك ..

فقال علي في إصرارٍ :

– بل نسافر اليوم ؛ فينبغي أن ندرك سعيد باشا قبل أن يصدر الفرمان ..

– ولكن صحتك لا ....

فقاطعه علي بك :

– صحتي تسمح بأن أهد جبلاً بكفي .. ! .. لا تنس يا لطيف بك أنني فلاح ..

فحدق لطيف بك إليه في دهشةٍ وهتف :

– أنت فلاح ؛ حسبتك من الأناءود أو الشركس ..

– أنا فلاح ابن فلاح .. ويكفي أن أضع على وجهي بعض الضمادات لتخفي هذه الجروح ؛ ولكن لا تخش شيئاً على صحتي من السفر

فنهض لطيف واقفاً في حماسٍ وقال :

– إذن .. انتظرني هنا ساعة حتى أحصل لك على تصريح السفر .. وسوف ندرك السفينة قبل الظهر ..

فقال علي بك وهو يتحسس ثيابه التي مزقتها السياط :

– لا تنس أيضاً أن تدبر لي ثوباً أسافر فيه ..

(18)

قال ستراتفورد للسلطان ساخطاً :

– هذا الطفل مجنون يريد أن يغير خريطة العالم .. !

فقال السلطان هادئاً :

– يا عزيزي .. أنت تجعل من الحبة قبة .. ! فالأمر لا يعدو ....

فقاطعه ستراتفورد محتداً :

– لا .. إن رفضه ولاية العهد فضيحة عالمية .. فضيحة لي ولدولتي .. وفضيحة لعظمتك قبل كل شئ .. !

فضحك السلطان وقال :

– وما الذي يجعلها فضيحة عالمية .. ؟ إنه مجرد كلام جرى بيني وبينه ؛ ولا أحسبه سيذيعه على الناس ..

– الناس يا صاحب العظمة لابد أن يعلموا بالأمر عندما يصدر الفرمان فيمتنع ..

فقاطعه السلطان :

– لن يمتنع عندما يصدر الفرمان ؛ أو بتعبير أدق لن يصدر الفرمان إلا بعد أن يتراجع عن موقفه ..

ثم ابتسم قائلاً :

– ومن هنا يا عزيزي تستطيع أن تطمئن إلى أنه لن تحدث الفضيحة التي تخشاها ..

فأطرق ستراتفورد مفكراً لحظة ثم قال :

– ولكن .. هل عظمتك مطمئن إلى أنه سيعدل عن الرفض ؟

– أنا واثق من ذلك يا عزيزي ستراتفورد ؛ إن رفضه ولاية العهد صادر من تفكير مضطرب نتيجة للمتاعب التي مرت به أمس .. ولا تنس أنه لا يزال صبياً غضاً طري العود .. وأنا واثق من أنه سيدرك سخف موقفه عندما يهدأ ويستعيد عقْلُهُ صَفَاءَهُ ..

– ومتى تتوقع عظمتك أن يحدث هذا ؟

– بعد أن يقضي في أوروبا أسبوعاً أو أسبوعين ..

– إذن فعظمتك تقترح أن يؤجل صدور الفرمان أسبوعاً أو أسبوعين ؟

– بغير شك يا عزيزي .. سنرجئ الأمر كله حتى يعود من أوروبا أو يرسل إليَّ بعدوله عن الرفض .. إنه سيسافر غداً ؛ وسآمر بعض رجال الحاشية الذين سيصاحبونه بأن يزينوا له الأمر ويغروه بقبوله .. اطمئن يا عزيزي .. وثق بأن عبد المجيد غير نائمٍ ..

فنهض ستراتفورد مستأذناً في الانصراف وهو يقول :

– ينبغي إذن أن أبرق بهذا التأجيل إلى وزارة الخارجية البريطانية ..

(19) لطيف وعلي للإسكندرية

ما كادت السفينة تتحرك بعلي بك ولطيف بك في طريقها إلى الإسكندرية حتى أصيب علي بك بنوبة من دوار البحر ؛ عصفت بما تبقى له من قوة بعد تلك الليلة القاسية .. فاضطر إلى أن يلازم قمرته واضطر لطيف بك إلى أن يلازمه ليطببه من ناحية ؛ وليأمن من ناحية أخرى ألا يزل لسانه في نوبة خطرفة أمام أحد البحارة فتتكشف أسرارهما .. وقد استرد علي بك قواه في آخر ليلة لهما في البحر ؛ فاستطاع أن يجلس في الفراش وأن يتناول طعامه بنفسه ..

وقال له لطيف بك :

– الحمد لله أن تم شفاؤك الليلة ؛ فغداً تدخل السفينة الإسكندرية ..

فابتسم علي بك ونظر إليه في امتنان وقال :

– لقد سببت لك متاعب كثيرة يا لطيف بك ..

فضحك لطيف وقال :

– من حسن حظي وحظك أن هذا المرض انتظر عليك حتى ركبنا السفينة ؛ ولو قد أصابك ونحن في الآستانة لاضطررت إلى أن أواجه بالإضافة إلى مرضك جواسيس ستراتفورد ومؤامراتهم ..

وابتسم :

– وجواسيس عظمة السلطان أيضاً ؛ فإنقاذي إياك وضعني مرة أخرى في صف أعدائه ..

فابتسم علي بك وسأله :

– مرة أخرى ؟ وهل سبق لك أن عاديت السلطان قبل هذه المرة ؟

– أوه .. وكاد رجاله أن يلقوا بجثتي في البسفور ..

وأخذ يقص عليه ذلك الجزء من ماضيه الذي ارتبط فيه بمصطفى باشا ؛ وانتهى بعد خنقه إلى أن أصبح طريد رجال السلطان .. واستمع إليه علي بك في دهشة وإعجاب ؛ فلما انتهى قال له :

– إن حياتك عجيبة حقاً يا لطيف بك ؛ ومسلية أيضاً ..

فضحك لطيف وقال :

– مسلية لك وأنت تسمعها ؛ أما لو عشتها حقيقة لوجدتها رهيبة خطيرة ؛ فلا يمكن أن يحس المرء بالتسلية وهو يتعرض في كل خطوة للموت يا بك ..

فقال علي بك :

– ولكنك أثبت أنك أذكى من رجال السلطان جميعاً .. !

فابتسم لطيف بك في سرور ؛ فهذا رأيه في نفسه ؛ ومضى علي بك يقول :

– إن ما أعجب له حقاً هو أن رجلاً له مثل مواهبك ؛ ومثل طيبتك ...

وهم لطيف بأن يضحك ساخراً من وصفه بالطيبة ؛ ولكنه تذكر أن علي بك لم ير منه حتى هذه اللحظة إلا هذا الجانب ؛ فكتم ضحكته بينما تابع علي بك كلامه :

– لماذا ينفق حياته وجهوده في الجاسوسية ؟ لماذا لا تنفقها في شئ أكثر جدوى وأجلب للخير لك ولبلدك ؟

– مثل ؟

– مثل السياسة .. لماذا لا تشتغل بالسياسة ؟ إن إخلاصك وطيبتك مضافين إلى ذكائك وشجاعتك يمكن أن يجعلا منك سياسياً لامعاً مشهوراً ..

فضحك لطيف بك مسروراً وقال :

– ليست الشهرة مطلبي يا بك .. إن غايتي هي الذهب .. الثروة .. القوة ..!

– السياسة تحقق لك ذلك بالإضافة إلى الشهرة يا لطيف بك ..

فابتسم لطيف وآثر الصمت ؛ فلم يكن من مصلحته أن يكشف لعلي بك بقية جوانب شخصيته .. وأساء علي بك فهم هذا الصمت ؛ وظنه اقتناعاً أو اقتراباً من الاقتناع ؛ فمضى يقول في شئ من الحماس :

– ثم إن الخلافة محتاجة إلى مثل مواهبك لتقضي على ما تفشى فيها من فساد وانحلال .. أتعرف يا لطيف بك أنه لو كان لدى الدولة العلية ساسة من أمثالك لما انحدرت إلى هذا المستوى من الضعف ؛ ولما سيطر عليها الأجانب .. إن المسؤل عن فساد الدولة هو غباء ساستها وجبنهم ..

فهز لطيف بك رأسه نافياً وقال :

– لا يا علي بك .. إن غباء الساسة وجبنهم ليسا إلا مظهراً من مظاهر هذا الفساد .. إن الدولة الآن في طور الانحلال .. لقد استنفدت قوتها خلال القرون الماضية ؛ وانحدرت الآن إلى الشيخوخة .. هذه سنة الكون في الدول جميعاً ..

فقال علي بك في حماس :

– ولكن لو هيئ لها رجال من أمثالك لاستعادت شبابها وقوتها ..

فضحك لطيف بك وقال :

– أمثالي ؟ .. إن أمثالي أذكى من أن يبددوا جهدهم وقوتهم في شئ لا جدوى منه .. إن ذكاءنا وإخلاصنا كما تقول لن يغيرا شيئاً من الأمر الواقع .. لن يوقفا سير الزمن ولن يغيرا سنة الكون .. كل ما يمكن أن يناله أمثالي لو اشتغلوا بالسياسة هو الخيبة والهزيمة .. إن الفساد أكبر وأرسخ قدماً من أن يقضي عليه ذكاء رجل وإخلاصه .. !

– ألست متشائماً في هذا الرأي يا لطيف بك ؟

فضحك لطيف قائلاً :

– إن الأذكياء يا بك هم أول من يتعلق بالسفينة في أول رحلتها ؛ وهم أيضاً أول من يقفزون منها وهي تغرق .. أما المثاليون الأغبياء فلا يصعدون للسفينة إلا بعد أن يطمئنوا إلى أن الجميع ركبوا واستراحوا ؛ كذلك لا يغادرونها وهي تغرق إلا بعد أن يطمئنوا إلى أن الجميع قد غادروها ؛ ولذلك ترحل السفينة غالباً وتنسى المثاليين ؛ وإذا غرقت فغالباً ما تفوتهم فرصة النجاة فيغرقون معها ..

فهز علي بك رأسه متحيراً وقال :

– لم أفهم تماماً ما تعني .. !

– الدول كالسفن يا بك ؛ في نشوئها تكون المناصب الكبيرة مغنماً يبادر إليه الأذكياء أمثالي ؛ أما في طور انحلالها وضعفها فتكون المناصب الكبيرة غرماً يبادر الأذكياء أمثالي إلى الهرب منه .. أفهمت ما أعني يا بك ؟

فقال علي بك مستنكراً :

– إذا هرب الأذكياء وبلادهم تغرق فمن يتصدى إذن لإنقاذها ؟

– المثاليون الأغبياء يا بك ..

– إذن ؟

– إن مثلي لا يسعى الآن لمنصب ؛ إنما همه أن يستنقذ لنفسه أكبر قدر يستطيعه من كنوز السفينة ..

ثم قال وهو ينهي الحديث :

– ولكننا تحدثنا كثيراً هذه الليلة ؛ ويحسن أن تنام الآن حتى تصحو غداً نشيطاً .. أنسيت أننا سندخل الإسكندرية في الغد وأمامنا هناك أعمال هامة ؟

فرقد علي بك وأحكم لطيف بك حوله الغطاء ؛ ثم أطفأ القنديل وذهب بدوره على فراشه .. ولم تمض دقائق حتى صدر منه شخير هادئ ينبئ عن نوم عميق لا يعرفه إلا ذوو القلوب الخالية .. أما علي بك فقد أرقته لحظة تلك الأفكار المفزعة عن الأذكياء والمثاليين وعن الدول في نشأتها وفي انحلالها .. ولكن سرعان ما غالبه النوم فغلبه ؛ وأطبق جفنيه وهو لا يزال يحلم بالأذكاء والمثاليين ..

وكان البحر وادعاً ؛ والريح رقيقاً يدفع السفينة في رقة فتنزلق على صفحة الماء في هدوء وثباب .. وليس ثمة صوت سوى أغنية رتيبة يشدو بها ملاح مغترب ؛ ألفاظها تتحدث عن شوق حائر ؛ وموسيقاها اصطفاق الموجات على جدران السفينة ؛ وإيقاعها صرير أخشاب الصواري كلما ملأت الريح أكف القلاع ..

وعندما استيقظ في الصباح كانت الشمس قد غزت قمرته بشعاع دافئ ذكره بشمس قريته الساطعة ؛ فأدرك أن السفينة كادت تدخل ميناء الإسكندرية .. وتجمعت في قلبه أشواق شهور أمضاها مغترباً : فتحامل على نفسه وغادر قمرته إلى سطح المركب لترشف عيناه منظر أرض آبائه وأجداده وهي تمتد من بعيد من أقصى المشرق إلى اقصى المغرب ؛ وليرسل قلبه طائراً إلى أقصى الجنوب حيث تربض قريته الخضراء ؛ وعلى السطح كان الركاب قد اجتمعوا عند مقدمة السفينة ؛ أقلهم مدفوع بالحنين إلى وطن يعود إليه عبر البحر ؛ وأكثرهم مدفوع بالفضول إلى رؤية بلاد يجيء إليها لأول مرة ؛ وإن كان قد سمع عنها كثيراً ما جعله يربط بينها وبين مدن ألف ليلة المسحورة .. كنوز لا تنفد ملقاة في الطريق ؛ وأصحابها مسحورون شاخصون بأبصارهم إلى الفراغ لا يدرون بشيء مما يدور حولهم ؛ وأحس علي بك بأنه يريد أن يقدم بلاده لصديقه لطيف بك ؛ كان في نفسه حب وشوق أكبر من أن يحتملهما ؛ فأراد أن يتخفف منهما بالحديث إلى لطيف بك ؛ فأخذ يبحث عنه بين الركاب المتجمعين عند المقدمة ؛ ولكنه لم يجده ؛ فدار دورة على السطح يفتش عليه عبثاً حتى رجع إلى المقدمة من الناحية الأخرى ؛ ورأى أحد البحار الموكلين بخدمة الركاب فسأله :

– ألم ترى لطيف بك .. ؟

فأشار البحار إلى رجلٍ متكئٍ على حاجز السفينة ؛ وقال :

– ها هو أمامك يا سيدي ..

ولم يكن الرجل هو لطيف فقال علي بك للبحار :

– اقصد لطيف بك فوزي الذي ركب معي من الآستانة ..

فقال البحار في شيء من نفاذ الصبر :

– لا اعرف الذي ركب معك أو ركب مع غيرك ؛ ولكنني أعرف أن هذا هو لطيف بيك فوزي الذي ركب من الآستانة ..

ثم ابتعد قبل أن يتمكن علي بك من أن يوضح له خطأه ؛ فاقترب من الرجل ونظر إلى وجهه ؛ لم يكن هو صاحبه لطيف بغير شك فقال في نفسه :

– تشابه الأسماء غريب ؛ كلاهما اسمه لطيف بك فوزي ..

ثم هز كتفيه غير مكترث وانضم إلى جمع الركاب عند المقدمة .. وبدأت معالم الإسكندرية تتضح من بعيد ؛ ها هي الميناء تفتح ذراعيها للقادمين ؛ والمنارة السامقة تلوح لهم مرحبةً بأيد خلقها الوهم ؛ وها هو قصر رأس التين تبرق قبته الكبرى في ضوء الشمس ؛ وعلى مسافة منه قبة قصر أصغر هو قصر البرنس محمد سعيد ؛ وعلى مسافة أخرى تتزاحم بيوت أهل الإسكندرية ؛ وفي الطرف الآخر تعلو الطابية فوق ربوة ؛ كأنما تتطلع إلى القادمين في شك وتحفز .. وتنهد علي بك في مرارة ؛ فهو يعرف أن الطابية هذه الأيام تكاد تكون اسماً على غير مسمىً ؛ بعد أن حل عباس باشا الجيش المصري وفرق قواته .. وأخذ يذكر – أسيان – أيام صباه عندما كانت تذاع عليهم في المدرسة أنباء الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الجنود الفلاحون ؛ وكيف كانوا يخرجون من الفصول ليصطفوا صفوفاً وينشدوا الأناشيد ويدعوا لولي النعم بطول العمر ودوام النصر .. كانت قلوبهم الصغيرة أيامها تطفر في صدورهم حماسة وفرحاً ؛ ورغم ما كانوا يقاسونه من ظلم وفقر تحت حكم ولي النعم هذا فإن فرحة النصر كانت أكبر ؛ ثم إنهم كانوا يصدقون ما كان يقال لهم من أن هذا الظلم والفقر ليس سوى ضرورة مؤقتة تفرضها الحروب وأن أمامهم خيراً كثيراً بعد أن يتحقق النصر الأخير .. نعم لقد كانت أياماً عظيمةً رغم كل شيء ؛ ولقد انقضت أمجادها ولم ينقض ظلمها وفقرها ؛ بل رسخ وتغلغل على يد طاغية أسود القلب اسمه عباس ؛ يفكر بصوته ويتكلم بصوته ؛ بل ويضحك بصوته ؛ ثم يراد لهما أن يمعنا في التغلغل والرسوخ على يد ابنه إلهامي الذي لم تخطئه الوراثة ..! كل هذا لن يكون أبداً ؛ وسوف يمنع علي بك انتقال العرش إليه ؛ حتى لو بذل في ذلك حياته ..

وكان لابد أن يستعد علي بك ويعد حاجاته القليله ليغادر السفينة التي سترسوا على رصيف الميناء خلال نصف ساعة على الأكثر .. فعاد إلى قمرته وهو يرجو أن يجد لطيف بك هناك ليعد حاجته هو الآخر ؛ وتحقق رجاؤه فقد كان هناك حقاً ؛ ولكنه لم يكن مشغولاً بإعداد حاجاته ؛ بل كان مستلقياً على فراشه يدخن غليونه وقد التمعت عيناه ببريق غريب ؛ ويبدو أن التفكير كان يستغرق حواسه فلم ينتبه لدخول علي بك ؛ أو أنه تنبه ولكنه لم يهتم ؛ فقال له علي بك :

– أين كنت ؟ لقد قلبت السفينة بحثاً عنك ..

– كنت أقوم أقوم بمهمة صغيرة ..

وانتظر علي بك أن يزيده توضيحاً ؛ ولكنه صمت ؛ فأدرك أنه لا يريد إطلاعه على حقيقة هذه المهمه ؛ فقال وهو يتناول الحقيبة الصغيرة التي تزود بها قبل ركوب السفينة :

– أتعرف يا لطيف بك أن في السفينة رجلاً آخر له نفس اسمك ؛ لطيف بيك فوزي .. فقال لطيف وقد اشتد بريق عينيه :

– هل رأيته وتحدثت إليه ؟

فقال علي بك :

– رأيته فعلاً ؛ ولكنني لم أتحدث إليه ؛ فإنني لا أعرفه ..

– ولكنني أعرفه ..

– رجحت ذلك ؛ فهو أيضً من الآستانة ..

فضحك لطيف في نشوة ومضى قائلاً :

– أعرفه معرفة جيدة ؛ ولقد كنت في قمرته وأنت تقلب الفينة بحثاً عني ..

فقال علي بك في شئ من الدهشة :

– كنت في قمرته ؟ ولكنه كان واقفاً على السطح ..

فقاطعه لطيف بك في مرح :

– طبعاً ؛ وإلا فكيف تريدني أن أتسلل إلى قمرته وأفتش أمتعته ؟

– تتسلل ؟

– أحسبتني دخلت قمرته بناء على دعوة منه ؟

فقال علي بك وقد تشابكت الأمور في عقله تشابكاً أربكه :

– لست أفهم عنك اليوم كلمة واحدة ..

– اجلس لأفهمك يا عزيزي .. نعم ؛ ينبغي أن تفهم كل شئ مادمنا نقوم بعمل مشترك ..

وأخذ يقص عليه في اختصار ذلك الجانب الذي يتصل بمحاولات ستراتفورد اغتياله ؛ والحصول على رسالة الأميرة نازلي إلى سعيد باشا ؛ وكيف أنه استطاع أن يخدعه ويوهمه أنه مات ؛ فارسل ستراتفورد جاسوسا آخر ينتحل اسمه ويحمل رسالة مزيفة لسعيد باشا فيها من التوجيهات والتعليمات ما لو نفذه سعيد لأطاح بسمعته بين الدول التي تضمن معاهدة سنة 1840 ؛ وحرص لطيف في أثناء سرده على إخفاء قتله عزيزاً ؛ فقد كان لا يزال غير مطمئن إلى أن علي بك سيقر أسلوب سفك الدماء الذي لجأ إليه ؛ فلما انتهى قال علي بك في ذهول :

– معنى هذا أن لطيف بك فوزي الآخر ليس اسمه لطيفاً .. ؟

– إنه ينتحل هذا الاسم .. أما اسمه الحقيقي فهو عصمت كمال ..

فضحك علي بك مستمتعاً بهذه اللعبة ؛ وقال :

– إذن ؛ فهناك رسولان يحملان اسماً واحداً في طريقهما الآن إلى محمد سعيد باشا ؛ أحدهما يحمل رسالة من أخته زهرة باشا ؛ والثاني يحمل رسالة زيفها ستراتفورد على زهرة باشا ..

فشاركه لطيف بك الضحك ؛ وقال :

– فتخيل موقف سعيد باشا عندما يتقدم إليه الرسولان ؟

– نعم .. سيكون عليه أن يميز بين الحقيقي منهما وبين المزيف ؛ وهذه مهمة صعبة ..

فقال لطيف وهو يعتدل في جلسته :

– سنجعلها سهلة ؛ أنا وأنت سنعينه على هذا التمييز ؛ كل ما علينا هو أن أسبق عصمت كمال في مقابلة سعيد باشا بوقت كاف ؛ وهذا يعني أن تعمل أنت على تعطيله ..

– أنا ؟!

– نعم .. لابد من هذا ..

– ولكنني ..

فقاطعه لطيف :

– ولكنك لا تعرف .. حسن ؛ ستتعلم ؛ لقد وافقت على أن تزج بنفسك في مشاكل الجواسيس فينبغي أن تتعلم أساليبهم ؛ سأوضح لك كيف يمكنك أن تعطل عصمت كمال ..

وصمت لحظه ريثما أعاد إشعال غليونه ثم قال ..

– أنت مصري ؛ وهو تركي يحضر إلى مصر للمرة الأولى ؛ ففي استطاعتك أن تستغل إحساسه بالغربة من ناحية ؛ وما اشتهر عنكم كمصريين من كرم من ناحية أخرى ؛ فتدعوه إلى أن ينزل معك في أفخم خانات الإسكندرية .. وسوف يقبل دعوتك لأنه غريب لا يعرف المدينة ؛ وفي الخان ادعه إلى الغداء ؛ ثم قدم إليه كأساً من الخمر ؛ والكأس يتلوها كأس وكأس ؛ حتى يفقد اتزانه ؛ هذا سهل .. قد يعتذر عن الشراب إذا ما أحس بالدوار ؛ ولكن معرفتي به تجعلني واثقاً من أن اعتذاره سيكون واهياً ؛ وشيء من الإلحاح منك سيقضي على تردده .. المهم ألا تتركه إلا وهو يترنح ..

فقال علي بك ؛ وقد اتضحت له الخطة :

– وطبيعي ألا يذهب لمقابله سمو ولي العهد وهو سكران ؛ فهمت .. ولكن هناك مشكله أخرى فأنا غير معتاد على الخمر ولا شك في أنني سأترنح قبله بزمن طويل .. وعندئذ ..

فقاطعه لطيف قائلاً ..

– يا عزيزي هذا شيء سهل .. ! .. اشرب كاساً واسكب كاساً تحت الخوان ؛ أهذه مشكله تؤرقك ؟! ..

فضحك علي بك وقال :

– حسن .. سأبذل جهدي ..

– وعلى أيه حال لو حدث ما يفسد خطتنا فعليك أن ترسل لي رقعة صغيرة عند ابن عمي قدري بك ؛ سأعطيك عنوان بيته ؛ فأرسل رقعة فيها كلمة "ذهب" ؛ وأنا سأفهم وأتصرف .. فقط أرسلها قبل الساعة العشرين ..

– اطمئن ؛ لن أدعه يفيق من الخمر قبل صباح الغد ..

– هذا وقت كاف ؛ فإنني سأذهب إلى قصر الباشا في الساعة العشرين ؛ ولا أحتاج إلى أكثر من ساعة أقص فيها عليه كل ما حدث ؛ فإذا حضر عصمت كمال ولو بعد ساعة واحدة فسوف يجد في انتظاره استقبالاً مثيراً ..

– ولكن ماذا يحدث لو عجزت عن إقناع ولي العهد بأنك الرسول الحقيقي ؟

فضحك لطيف قائلاً :

– لن أقنعه بشئ .. سأترك عصمت يقنعه بنفسه ؛ إنه يعتقد الآن أن الأسماك أكلت جثتي في البسفور ؛ فتخيل ما سيصيبه من ذعر عندما يدخل إلى سعيد باشا فيجدني جالساً بجواره أرحب به ؟ إنني أعتمد على هذه المفاجأة حتى أجعله ينهار ويعترف بكل شئ ..

فقال علي بك و هو ينهض واقفاً :

– اطمئن إذن إلى أنه لن يذهب إلى قصر ولي العهد قبل الصباح ؛ ولكن هذا يقتضي أن أبدأ بالتعرف به منذ اللحظة ..

فوق لطيف بك و صافحه متمنياً له التوفيق ؛ ثم أعطاه بضعة دنانير قائلاً :

– ستحتاج إلى هذه الدنانير ثمناً للطعام والشراب .. وسوف أتصل بك في الصباح لأخبرك بما حدث ؛ وأصحبك إلى قصر سعيد باشا لأقدمك إليه ..

ولم يبذل علي بك جهداً كبيراً في اصطياد عصمت كمال ؛ وإنما هي بضع كلمات قليلة عن الإسكندرية ألقاها كأنما يحدث نفسه وهو واقف عند سياج المركب بجواره ؛ سأله بعده عصمت :

– يبدو أنك تحب الإسكندرية يا بك .. !

– أحبها .. ؟! .. لقد أنفقت فيها أسعد لحظات شبابي .. !

وأعقب هذه العبارة بآهةِ تحسرٍ على ما فات ؛ وبسمة تذكر لتلك الأوقات لم يخف معناها على عصمت .. فاقترب حتى كاد يلتصق به و همس في أذنه :

– تنبئ زفرتك بأن شبابك لم يكن مغلفاً بالفضيلة يا بك .. !

فضحك علي بك صادقاً هذه المرة لأن عصمت كمال قد ابتلع الطعم الذي ألقاه إليه وقال :

– الشباب لذة يا بك .. !

فازداد عصمت التصاقاً به ؛ وخفت همسة في أذنه حتى لا يسمعها ثالث :

– سمعت أن بعض أحياء الإسكندرية تنافس مرسيليا في اللذة .. !

فقال علي بك في سخرية :

–إن كنت تقصد تلك اللذة التجارية التي تقدم للمسافرين والعابرين في المراكب فإنك إذن تظلم الإسكندرية ..

– تعني أن .....

– يا سيدي العزيز .. الإسكندرية لا تكشف عن نفسها إلا لمن عاش فيها حقاً .. أما أولئك المسافرون والعابرون ؛ فإنها لا تقدم إليهم سوى قشرة تافهة يتقن بعض اليهود تزويقها ؛ فيخيل إليهم أنها – ولا شئ سواها – هي اللذة .. كلا يا عزيزي .. الإسكندرية أعمق من ذلك غوراً ؛ سلني أنا عنها ..

وكان عصمت كمال قد استغرقته هذه التلميحات إلى خفايا الإسكندرية استغراقاً جعل علي بك يطمئن وهو يخطو الخطوة التالية :

– ولكننا لم نتعارف حتى الآن .. !

فقال عصمت كمال في سرعة زلقة :

– أنا عصمت ..

ثم أمسك وقد تنبه إلى زلة لسانه ؛ وبذل علي بك جهداً كبيراً ليئد البسمة التي تريد أن ترتسم على شفتيه ؛ ونظر إلى عصمت جاداً منتظراً بقية الاسم ؛ وتردد عصمت لحظة ثم قال :

– اسمي لطيف .. لطيف بك فوزي ..

– لطيف بك .. أو عصمت بك ..؟

كان السؤال محرجاً لعصمت ؛ وخشي علي بك أن يفسد عليه ما بذل من جهد في اكتساب ثقته ؛ وتمنى لو أمسك لسانه عنه ولم يطعه .. وفكر عصمت لحظة قبل أن يقول :

– الحقيقة أن اسمي لطيف بك فوزي .. ولكن خاصة الأصدقاء يدللونني باسم عصمت ..

– أرجو أن يتاح لي في يوم قريب أن أكون من خاصة أصدقائك لأناديك باسم عصمت ؛ فهو – وصدقني يا لطيف بك – اسم محبب لدي ..

ولم يتنبه عصمت إلى ما يكمن وراء نبراته من تعريض فقال :

– يسعدني ذلك يا بك ؛ وإن كنت أرجو أن تناديني الآن باسمي الحقيقي .. لطيف بك فوزي .. وذلك لأسباب خاصة ..

فقال علي بك و هو ينحني في أدب :

– كما تشاء يا لطيف بك ؛ واسمح لي أن أقدم إليك نفسي .. علي بك وهبة ..

فرفع صمت كمال عينيه إليه في دهشة يخالطها مستخفياً شئ من الازدراء ؛ و سأل :

– مصري ؟!

ولم يكن هذا الازدراء جديداً على أذني علي بك ؛ فقد تعوده من كل من لقيهم في الآستانة من أتراك وجراكسة ؛ فهم يعاملونه باحترام شديد من حيث أنه أحد أفراد حاشية سمو البرنس إلهامي باشا ؛ ثم يفجعون – يبدو ذلك في عيونهم و نبراتهم – عندما يكتشفون أنه مصري فلاح ؛ ولعلهم يسبون في سرهم محمد علي الذي أرسل من أبناء الفلاحين بعثات إلى أوروبا ؛ ثم قلدهم – على قلة – مناصب كانت خالصة للأتراك والجركس ؛ لم يفاجأ علي بك إذن بنبرة الازدراء في صوت عصمت كمال وهو يسأله

– مصري ؟

ووجد لذة خبيثة في أن يغيظه ؛ فقال ضاحكاً :

– بل وفلاح من نسل فلاحين يا لطيف بك ؛ على أن هذا لا ينفي أنني خبير بملاذ الإسكندرية ..

وتغاضى عصمت كمال بدوره عن ازدرائه لهذا الفلاح ؛ وانصرف بحواسه كلها إلى محاولة جره إلى أن يكشف له عن مواطن اللذة الخفية في الإسكندرية .. ومن ثم لم يجد علي بك مشقة في أن يربطه به ؛ فيلازمه كظله وهما يغادران المركب ؛ ثم يصطحبه إلى الخان الذي اتفق مع لطيف بك على أن ينزل فيه .. وقد أصر علي بك – دون معارضة جادة من عصمت – على أن

يكون هو المضيف طوال هذا اليوم ؛ فدعاه إلى غداء دسم وحرص على أن يضع أمامه زجاجة خمر فرنسي معتق ؛ شربها عصمت دون تراخ ؛ ثم نام بعد أن وعده علي بك بسهرة حمراء يدبر لها في حذق بالاتفاق مع صاحب الخان ..

(20) لطيف يذهب للأمير فيعتقله شكيب بك

لما جاوزت الساعة العشرين ولم يتلق لطيف التحذير التي اتفق مع علي بك على إرساله ؛ اطمأن إلى أنه نجح في إغراء عصمت كمال بالإغراق في الخمر ؛ وأن الخطة التي رسمها غدت ناضجة للتنفيذ ؛ فتأهب لمغادرة بيت ابن عمه قدري بك إلى قصر محمد سعيد في القباري ؛ ولكن قدري قال له ناصحاً :

– لو كنت مكانك يا لطيف لما أملت خيراً كثيراً في محمد سعيد هذا .. ولأخذت رسالة أخته وسلمتها إلى سمو الوالي عباس باشا

فنظر إليه لطيف في إنكار وهتف :

– عباس باشا ..؟

– نعم .. إنه في قصره ببنها ؛ ولو سافرت الآن لوصلت هناك قبل الصباح ..

فقال لطيف :

– أتحرضني على خيانة مخدومتي ؟

فضحك قدري وقال ساخراً :

– لطيف ؟ أهي المرة الأولى التي تفعل فيها هذا ؟ أم ستزعم أنك تغيرت ؟ ..

فشاركه لطيف في الضحك قائلاً :

– معذرة ؛ نسيت أنك ابن عمي وتعرفني جيداً ؛ ولكنني لا أريد أن أسلم الرسالة إلى عباس باشا ؛ لأنني أطمع في الكثير إذا ما التحقت بخدمة محمد سعيد باشا ..

– عباس باشا لن ينسى لك هذه الخدمة .. !

– نعم .. أنا معك سيشكرني ؛ ويمنحني عشرة دنانير .. !!

– أنا أضمن لك مائة على الأقل ..

فضحك لطيف وقال :

– مائة ؟ .. إنني أطمع يا عزيزي في الألوف ؛ إن محمد سعيد باشا هو الصيد الذي انتظرته سنوات لأجني من ورائه كنوزاً لا تنفد

فهز قدري رأسه نافياً وقال :

– إن محمد سعيد ليس هو الرجل الذي تتصور ؛ إنه ضعيف .. !

– هذا أفضل ؛ فكلما كان ضعيفاً سهلت عليَّ السيطرة عليه ..

– أنت واهم .. فهو ليس كفئا للمعارك التي تريد أن تزج به فيها ..

– سيكون كفئاً لها وأنا خلفه .. !

– أنت لا تعرفه ؛ إنني قابلته أكثر من مرة ؛ كما سمعت عنه الكثير ؛ أتعرف ماذا أتوقع أن يقول لك بعد أن يسمع قصتك ؟ .. سيقول لك في ملل : علام كل هذا ؟ أنا لا أريد منهم شيئاً .. فلماذا لا يتركونني مستريحاً ؟ عد برسالتك إلى أختي وقل لها إنني لا أريد أن أتورط معها في مشاكلها .. ثم يصيح طالباً طبقاً من المكرونة يهدئ أعصابه ..

فأغرق لطيف في الضحك وقال :

– إن صحت هذه الصورة التي صورته بها فهو رجل خفيف الظل .. !

– وخفيف القلب أيضاً ..

فنهض لطيف واقفاً وقال وهو يحكم وضع طربوشه على رأسه :

– لم يحدث منذ تشاجر قابيل وهابيل أن رفض إنسان القتال في سبيل العرش ؛ مهما كان خفيف القلب ..

ثم تناول عصاه التي أخفى في داخلها رسالة الأميرة نازلي ؛ واتجه نحو الباب ؛ ولكن قدري استوقفه مرة أخرى ليقول له بعد تردد

– لطيف .. أنت ابن عمي ولا تحب أن ينزل بي ضرر ؛ أليس كذلك ؟

فنظر لطيف إليه في دهشة خفيفة ؛ بينما اقترب منه قدري قائلاً :

– أنت تعرف أنني موظف في الجمرك ؛ ولو علم جواسيس سمو الوالي أن ابن عمي النازل في ضيافتي هو رسول عدو الباشا اللدود ..

فقاطعه لطيف ضاحكاً :

– لا تكن أحمق يا قدري بك .. ! إن جواسيس عباس وستراتفورد والسلطان نفسه يعتقدون الآن أنني جثة ملقاة في أعماق البسفور ..

– هذا حسن .. ولكن بعد أن تقابل سعيد باشا ويشيع الأمر ..

– لن يشيع ؛ اطمئن من هذه الناحية ؛ فألف باء التجسس تقضي بأن تبقى مهمتي ؛ بل ووجودي نفسه ؛ سراً .. تستطيع أن تطمئن إلى أن ضرراً لن ينالك من ناحيتي .. بل إنني سأذكر لك قرابتك وضيافتي عندما يصبح مخدومي والياً على هذه البلاد .. والآن .. هل تستطيع أن تصف لي الطريق إلى قصر سعيد باشا في القباري ؟

** ** **

خرج لطيف إلى الطريق يطوح بعصاه في ثقة ؛ وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها ليل الإسكندرية ؛ كان القمر بدراً فالليلة كانت الرابعة عشرة من شوال ؛ والضوء الفضي ينسكب من السماء دون أن يعوقه عائق من غمام أو ضباب فيغمر كل شيء ؛ البيوت والأشجار والناس ؛ حتى الأكوام والبرك التي انتثرت في الطرقات كانت تلمع تحت الضوء الفضي .. لم يكن ثمة شيء يمكن أن يستخفي تحت هذا الانسكاب الغامر ؛ كانت الأشياء بلا ظلال وبلا غموض ؛ أنصاب لامعة تبرق فحسب ؛ حتى الزوايا والأركان بدت واضحة مكشوفة للعين والقلب .. وما قصر الضوء المنسكب عن إبدائه عُلقت فيه قناديل قامت مقام الضوء المنسكب .. ولم تكن نفوس الناس أقل وضوحاً من مدينتهم ؛ فقد غمرها النور الفضي فتكشفت في ضحكات طلقة صريحة ؛ أو في كلمات عالية واضحة لا تحتاج الأذن إلى التنصت إليها ؛ ولا العقل إلى تأويلها ..

وأحس لطيف فجأة بأنه غريب حقاً ؛ وعاجز حقاً .. إنه لا يستطيع أن يعيش في هذا الوضوح المكشوف حتى في الليل .. أين هذا من ليل الآستانة الذي يحميه من النور المنسكب غمام الشتاء وضباب الصيف ؟ .. وأين هؤلاء الناس من أهل الآستانة الذين لا يسيرون إلا تسللاً ؛ ولا يتحدثون إلا همساً ؛ ولا يضحكون إلا ليخفوا حقدهم أو رعبهم ؟ .. هناك كان يستطيع أن يثق بأنه سيد ثعالب الليل ؛ أما هنا فلا ليل ولا ثعالب .. وأحس لطيف لأول مرة بأنه حائر .. لا يعرف تماماً ماذا ينبغي أن

يفعل .. لو كان حوله ظلام دامس لألقى بنفسه فيه دون خوف أو تردد ؛ ولكن هذا الضوء الغامر وتلك الضحكات التي يطلقها المارة حوله أثارت في قلبه خوفاً غامضاً ؛ فلو كان هناك عدو يتبعه لما استطاع أن يضلله ويفر منه وسط هذا الوضوح المكشوف .. إنه سيراه حقاً ؛ ولكنها رؤية لا تغني عنه شيئاً ؛ وزاده قلقاً أن كل من يمر به يتطلع إلى وجهه ضاحكاً ويقول :

– السلام عليكم يا جندي .. !

ثم يمضي في سبيله دون أن ينتظر رد السلام .. أيمكن أن يكون بين هؤلاء عدو له رصده عباس أو ستراتفورد ليراقبه أو ليغتاله ؟ .. وضحك من مخاوفه الحمقاء ؛ فإن عباس وستراتفورد يظنانه الآن في قاع البسفور ؛ فكيف يخشى أن يطلق أحدهما خلفه جاسوساً يراقبه أو يغتاله ؟ .. ولو قد حدث ما يجعلهما يعرفان أنه حي وأنه وصل إلى الإسكندرية ؛ فمن المستحيل أن يكون جاسوسهما واحداً من هؤلاء الذين يضحكون في وجهه و يحيونه بلقب "جندي" .. إن مخاوفه حمق أكثر منها حرصاً ..

وتوقف أمامه رجلان فرغا تواً من ضحكهما وقال له أحدهما :

– مالك يا جندي ؟ هل ضللت الطريق ؟

فقال لطيف في سرعة دهش لها :

– أريد أن أذهب إلى القباري ..

لو كان في الآستانة وألقى عليه عابر سبيل هذا السؤال لأجابه إجابة تبعد عن الحقيقة بعد ما بين السماء والأرض .. أما هنا فقد انطلق لسانه بالحقيقة واضحة مكشوفة ككل شئ يحيط به .. وضحك الرجل الثاني وقال :

– لماذا لا تستأجر عربة وتريح نفسك ؟

– عربة .. ؟ فكرة .. ! ولكن أين أجد عربة .. ؟

– للعربات موقف معلوم في الميدان الذي على يسارك .. سر من هنا تصل إليه .. وهناك ستجد مائة عربة وعربة ..

وانطلق الرجلان يواصلان حديثاً كان قد انقطع بينهما ؛ وخلفا لطيف بك يبتسم من مبالغتهما .. مائة عربة وعربة .. !! عندما وصف له قدري بك الطريق إلى القباري قال له : اذهب إلى الميدان فربما وجدت هناك عربة .. عربة واحدة لا مائة عربة وعربة

وأخذ لطيف يدب في الطريق نحو الميدان تعلو قامته القصيرة مع نتوءات الأرض ؛ وتهبط مع منخفضاتها ؛ وتنحرف يمنة ويسرة لتتجنب برك الماء التي تجمعت من نفايات البيوت ..

وفي الميدان وجد عربة ذكرته هي وسائقها العجوز – لسبب لا يدريه – بعربة الموت في الآستانة وسائقها العم كجك .. وعندما فرقع العجوز بسوطه فوق الجواد الهزيل فتحامل يجرجر سيقانه الأربع في بطء وضعف ؛ أدرك لطيف سبب تذكره العم كجك وعربته السوداء ؛ فهدوء العجوز وثقته بألا شئ يستحق أي شئ كانت هي نفس السمة الواضحة في العم كجك ؛ وصرير العجلتين الذي ينبئ عن صدأ عريق في محوريهما هو نفس صرير عربة الموت في الآستانة .. وعندما التفت السائق العجوز إليه يسأله : إلى أين يا جندي ؟ .. طالعه وجه العم كجك في سحنته المجعدة ولحيته البيضاء الشعثاء وثنيتيه السوداوين ؛ اللتين أبقت عليهما سنون أطبقت الفكين بعد أن أودت بما بينهما من أسنان .. وأحس لطيف بألفة نحو الرجل الذي حمل إليه رائحة من جو الآستانة الذي افتقده في هذا البلد الواضح المكشوف ؛ فقال له :

– ما اسمك يا شيخ ؟

فقال العجوز وهو يصيخ إليه بأذنه :

– قلت إلى أين ؟

فضحك لطيف وقال في صوت أعلى بعد أن أدرك أن الرجل شبه أصم :

– إلى القباري يا شيخ ؛ ولكنني سألتك عن اسمك ..!

ولكنه لم يتلق مرة أخرى جواباً ؛ فقد اعتدل العجوز في مقعده وأخذ يستحث – بلا جدوى – جواده الهزيل العجوز .. ومضت العربة تترنح ثقيلة فوق نتوءات الطريق ومنخفضاته ؛ وجسد لطيف بك يترنح معها ؛ بين بيوت تتقارب جدرانها حيناً وتنفسح حيناً آخر لتفسح بينها مكاناً لأحد الأكوام .. ومع زحف العربة بدأ عدد البيوت يقل وعدد الأكوام يزداد ؛ حتى خيل للطيف أنه لا يسير إلا بين أكوام فقط .. وكان من العبث أن يحاول سؤال السائق الأصم ؛ فلزم الصمت ؛ وتشبث بمقعده محاولاً أن يقلل من اهتزاز جسمه مع ترنح العربة ..

وانقضت فترة طويلة خيل للطيف بعدها أن ضباباً رطباً قد بدأ يزحف على قدميه ؛ فأدرك أن العربة قد اقتربت من شاطئ البحر ؛ وتأكد هذا الظن عندما ميزت أذنه وسط صرير العجلات المزعج خريراً هادئاً ينبئ عن احتكاك الماء بالأرض ..

وتوقفت العربة فأدرك أنه وصل ؛ ولكنه عندما أطل من نافذة العربة لم يجد إلا البحر عن يمينه وكوماً مرتفعاً عن شماله ؛ وطبقة من الضباب تحته ذكرته بليل الآستانة ؛ وقال العجوز :

– هل قلت القباري يا جندي ؟

– نعم ..

– هذه هي القباري فانزل ..

فغادر لطيف العربة وأخذ يتلفت حواليه باحثاً عن قصر البرنس ؛ وكان قد رآه وهو على ظهر السفينة ؛ ولكنه لم ير أمامه إلا الكوم العالي ؛ فقال لشبيه العم كجك :

– ولكنني لا أرى السراي ..

– سراي البرنس ؟

– نعم ؛ أليس في القباري ؟

– اركب ..

– ماذا ؟

– اركب ؛ ومرة أخرى قل للسائق إنك تريد سراي البرنس لا القباري ..

ولم يتردد لطيف في أن يركب ثانية ؛ فيبدو أن قصر البرنس ؛ وإن كان ينسب للقباري ؛ إلا أنه ليس في القباري نفسها ؛ ولم يشأ أن يجادل السائق الذي فقد القدرة على السمع وفقد الرغبة في الكلام معاً ؛ فترك نفسه إليه يرنحه مع عجلتيه الصدئتين .. وعادت العربة تئن على الطريق مرة أخرى ؛ ولكن السائق هذه المرة أحس فيما يبدو برغبة في الكلام ؛ فقد عاد يقول وسط صرير العجلات :

– القباري يعني البيوت حول الجمرك ؛ ولكن سراي البرنس شئ آخر ..

فقال لطيف معتذراً عن جهله :

– أنا غريب ؛ وقد قالوا لي إن سراي البرنس في القباري ..

– نعم نعم .. هي في القباري ولكنها ليست في القباري ؛ القباري شئ وسراي البرنس شئ ؛ وعندما تقول لي اذهب إلى القباري فإنني أذهب إلى القباري ؛ ولكن سراي البرنس شئ والقباري شئ .. إذا أردت سراي البرنس فقل لي اذهب يا رضا إلى سراي البرنس ؛ فأذهب بك إلى سراي البرنس .. أما أن تقول لي اذهب يا رضا إلى القباري فإنني أذهب بك إلى القباري .. نعم .. فالقباري شئ وسراي البرنس شئ .. !

وفجأةً انطلق هذا العجوز العزوف عن الكلام يلغو ويقول ويعيد ؛ ويؤكد للطيف بين كل جملة وأخرى أن القباري شئ وقصر البرنس شئ آخر .. ويكرر عرض اسمه الذي تغافل عن أن يذكره له عندما سأله عنه .. وبعد أن أكد له عشر مرات على الأقل أن القباري لا يعني سراي البرنس سأله :

– ماذا تريد عند سراي البرنس يا جندي ؟

– أريد السراي نفسها ..

– آه .. يعني أنت ذاهب إلى السراي .. ستدخل السراي يعني .. ؟

– نعم ..

– وستقابل البرنس ؟

– طبعاً ..

– البرنس رجل طيب ..

– طيب ؟

– إلا أن الخواجات ملتفون حوله كالذئاب .. !

– الخواجات ؟

– نعم .. ينام معهم ويأكل معهم ويسهر معهم .. تصور يا جندي .. حتى في رمضان الذي فات كان يصلي التراويح مع الخواجات .. !

– ولكن الخواجات لا يصلون يا شيخ رضا ..

– أقصد أنه كان لا يصلي مع المشايخ والعلماء ..

– ربما كان لا يصلي على الإطلاق يا شيخ ..

– ربما .. علمي علمك .. ! هذا شئ بينه وبين الله .. ولكنه رجل طيب .. !

وهز رأسه بضع مرات في عكس اتجاه ترنح العربة ثم قال :

– تعرف يا جندي .. الحق ليس على البرنس .. الحق على المشايخ والعلماء .. لم يذهب إليه واحد منهم في رمضان .. وبهذا تركوه يصلي التراويح مع الخواجات .. ولكن .....

وهز رأسه مرة أخرى :

– تعرف يا جندي .. المشايخ والعلماء معذورون .. فمن يسهر مع البرنس يغضب منه أفندينا عباس .. نعم .. المشايخ والعلماء معذورون .. أفندينا عندما يغضب يضرب أو ينفي .. الشيخ الطهطاوي يا جندي واحد من المشايخ الكبار .. نفاه في السودان "بعيد عنك" ورماه هناك في مدرسة صغيرة .. المشايخ والعلماء معذورون .. أفندينا مخه جامد يا جندي .. أرناؤطي يا جندي .. لا تؤاخذني ؛ هل أنت أرناؤطي ؟

فابستم لطيف وقال للعجوز مطمئناً :

– لا .. أنا تركي ..

– ربنا يحمي السلطان يا جندي .. السلطان رجل طيب .. !

وكاد لطيف أن ينفجر ضحكاً ؛ فقد كان من الواضح أن العجوز يقول ذلك ليسترضيه ؛ بعد أن ظن أنه أغضبه عندما شتم الأرناؤط ..

وقال يسأله :

– وهل تعرف أنت السلطان حتى تقول عنه إنه رجل طيب ؟

– السلطان خليفة المسلمين يا جندي .. ربنا يحمي السلطان .. !

فابتسم لطيف وقال :

– حسن .. كنت تقول إن أفندينا جامد المخ .. ؟

– نعم .. أفندينا مخه جامد ؛ ويضرب بالكرباج لأقل لسبب ؛ حتى ولو كان هو الغلطان ؛ كما فعل للثلاثة الذين علمهم أفندينا في بلاد الإفرنج ..

– أي ثلاثة يا شيخ ؟

– الثلاثة الذين أرسلهم أفندينا الكبير لبلاد الإفرنج ليتعلموا ويحضروا الشهادات معهم .. ولكن أفندينا مات .. فلما رجعوا كان أفندينا عباس هو الموجود ؛ فقال لهم : اعملوا لي شمعاً ؛ فقالوا له إنهم لم يتعلموا ذلك .. فغضب أفندينا عليهم وقال لهم : ماذا تعلمتم في بلاد الإفرنج إذن ؟ .. إنني أنفقت أموالي عليكم دون فائدة .. ثم ضرب كل واحد منهم خمسين كرباجاً .. مخه جامد يا جندي .. يعني كل من يتعلم في بلاد الإفرنج لابد أن يعرف كيف يعمل له الشمع .. !

وضحك العجوز ضحكة خشنة شاركه فيها لطيف ؛ ولكنه قطعها فجأة ليهز رأسه مؤكداً في عكس اتجاه ترنح العربة :

– أفندينا رجل طيب .. !

وانفجر لطيف ضاحكاً وقال :

– حتى أفندينا أيضاً رجل طيب عندك .. !

– نعم .. الناس كلهم طيبون .. حتى أفندينا .. ها هي السراي يا جندي ..

وتوقفت العربة فغادرها لطيف ووقف يتطلع إلى ذلك السور المرتفع القائم بعيداً عنه ؛ كان ضوء القمر يكشف لعينيه المنطقة الواسعة الخالية التي تفصل بينه وبين السور .. كانت مستوية كأنها ملعب للخيل ؛ ولم يكن هناك سور بينها وبين الطريق الذي وقفت فيه العربه فسأل السائق العجوز :

– لماذا وقفت بي بعيداً عن السراي يا شيخ رضا ؟

– غير مسوح للعربات بأن تذهب إلى أقرب من ذلك ..

فقال لطيف بعد أن امتد ببصره إلى السور البعيد :

– وأين البوابة ؟ إنني لا أراها ..

– تقدم إلى السور في خط مستقيم تصل إلى الباب ؛ هو باب صغير يستعمل في الليل ؛ فالبرنس لا يفتح البوابة الكبيرة في الليل ..

فنقد لطيف السائق أجره ؛ وهم بأن يتقدم نحو القصر ؛ ولكن العجوز ناداه قائلاً :

– يا جندي ؛ هل أنتظرك ؟

– لا يا شيخ رضا ..

– من الأفضل أن أنتظرك على أية حال ؛ فأنت رجل طيب ولا أحب أن أتركك تبحث عن عربة في هذا الفضاء الموحش ..

– لا داعي للانتظار يا شيخ رضا ؛ فلن أرجع قبل وقت طويل ؛ وربما قضيت الليلة في القصر ..

– هذا إذا سمحوا لك بالدخول .. أنت رجل طيب .. وإذا لم تكن معروفاً من رجال القصر فلن يسمحوا لك بالدخول ؛ البرنس لا يقابل في الليل سوى الخواجات .. وأنت لست خواجه يا جندي .. بل أنت رجل طيب .. إن عيون الحراس ترقبك الآن وتحاول أن تتعرف عليك قبل أن تصل إلى الباب ؛ فإذا لم تعرفك فلن يفتح لك يا جندي ؛ من الأفضل أن أنتظرك فأنت رجل طيب

فضحك لطيف ؛ وقال :

– بل أنت الطيب يا شيخ .. فاذهب في رعايه الله ..

ولكن الشيخ قال في إصرار :

– بل سأنتظرك .. سأنتظرك عند هذه الناصية التي على اليمين ؛ فغير مسموح للعربات أن تقف هنا .. تحرك أيها الكسول وكانت العبارة الأخيرة موجهة إلى جواده الهزيل ؛ وأتبعها بضربة سوط على ظهره الأعجف ؛ فصهل في احتجاج ذليل .. ثم جر العربه تصر عجلاتها الصدئة وهي تبتعد مخلفه صدىً ؛ كان هو آخر ما سمعه لطيف قبل أن ينطلق في الفناء الموحش الصامت يطوح عصاه في ثقه ؛ وقلبه ينتفض فرحاً ؛ فها هي اللحظة المرتقبة قد اقتربت ؛ سيقابل البرنس ؛ ومن ثم يصبح قبل أن ينقضي الليل أخطر شخصية في القصر بعد أن يعرف سعيد أنه يحمل له العرش والأمن معاً .. ولن ينقضي وقت طويل قبل أن يصبح

أخطر شخصية في الدولة العلية ؛ بعد أن يكشف ستراتفورد ؛ ويفضح جرائمه ؛ ويقضي عليه كسلطان مقنع للدولة .. ستكون الأيام القادمة حافلة بالمجد والثروة بغير شك ..

وعندما وصل إلى السور وجد باباً صغيراً مغلقاً لا يقف عليه حارس .. أين إذن أولئك الحراس الذين قال السائق العجوز إنهم يرقبونه منذ غادر العربة .. ؟ وتقدم إلى الباب ورفع عصاه ليطرقه بها ؛ ولكن الباب فتح فجأة وبرز منه رجل نظر إليه في ارتياب ؛ فقال لطيف في تعال :

– أريد أن أقابل سمو البرنس في أمر عاجل .. فقال الرجل :

– هل أنت الرسول القادم من الآستانة .. ؟

وعجب لطيف من أن يكون نبأ قدومه قد سبقه إليهم ؛ ولكن هذا كان أدعى لارتياحه ؛ وحمد في تلك اللحظة للبرنسيسة زهرة باشا هذه الحيطة التي اتخذتها بإخطار البرنس بأمره فقال :

– نعم أنا ؛ فخذوني في الحال إلى سمو البرنس ..

– ما اسمك ؟

– لطيف بك فوزي ..

– ومتى وصلت ؟

– في السفينة التي دخلت الميناء هذا الصباح ..

فبدا على الرجل الاطمئنان وقال :

– معذرة يا بك ؛ ولكنها الاحتياطات ..

فابتسم لطيف وقال في لهجة الواثق :

– أنا مقدر لظروفك .. !

– القائد في انتظارك يا سيدي ..

وتقدمه عبر حديقة واسعة علت أشجارها وكثفت حتى حجبت ما خلفها ؛ ووجد لطيف نفسه وسط دروب متشابكة معقدة ؛ لابد أن يضل بينها أي غريب يتسلل من السور .. ولكن الرجل الذي يقوده كان يعرف طريقه جيداً ؛ فلم تمضي دقائق حتى وجد نفسه أمام مبنى كبير تنبعث الأضواء من نوافذه المتعددة .. وقاده الرجل إلى حجرة القائد .. فوجد لطيف نفسه أمام رجل تركي ضخم كثيف اللحية ؛ يبعث بريق عينيه على الرهبة ؛ وأخذ الرجل يتأمل لطيف صامتاً ؛ ثم قال فجأة في خشونة :

– ما الذي أخرك ؟

– لم يكن هناك موعد محدد حتى لا أتأخر عنه ..

– ولكننا عرفنا أنك وصلت ؛ فأخطرنا البرنس ؛ وحدد موعداً للقائك في الساعه الثامنة عشرة (1) ؛ فكيف تحضر في الواحدة والعشرين (2) .. ؟

(1) تقابل الساعة السادسة مساءً .. .. (2) تقابل الساعة التاسعة مساءً .. ..

– لم يخطرني أحد بموعد البرنس ..

فهب الرجل واقفاً وقال :

– اتبعني .. وأرجو أن يرضى البرنس باستقبالك الليلة ..

فاسرع لطيف في خطواته حتى لا يسمح للرجل الغليظ بأن يتقدمه وقال في ثقة :

– لن يتردد سموه في استقبالي عندما يعلم بوصولي ..

فقال الرجل في سخرية خفيفة :

– هذا صحيح إذا كان في حالة تسمح له بأن يعي ما يدور حوله ..

ولم يفهم لطيف بوضوح ماذا قصد بعبارته الأخيرة ؛ ولكن حيرته لم تطل ؛ فقد قدمت إليه التفسير أصوات ضحك وصخب ترتفع من خلف باب ضخم مزين بالنقوش البارزة ؛ يقف عليه حارسان .. ودلته هذه الضحكات على أن البرنس وهو الرجل المرح خفيف الظل مشغول في جلسة مرح مع أصحابه الخواجات كما قال السائق العجوز ..

وتقدم قائد الحرس نحو الباب وطرقه طرقه خفيفه ارتفع على أثرها صوت ضاحك آذناً بالدخول .. فدخل القائد ولم يتردد لطيف أن يتغاضى عن تقاليد مقابلة الأمراء ؛ فدلف من الباب خلفه قبل أن يغلقه الحارسان اللذان لم يعترضا على دخوله ظناً منهما أنه في صحبة القائد ..

كان المنظر الذي وقعت عين لطيف عليه يبعث على الضحك ؛ بل على الإغراق في الضحك .. عملاق ضخم الجثة – هو سمو البرنس – في منامة إفرنجية فاقعة الألوان ؛ يجلس على الأرض في صورة تحمل على الظن بأنه سقط أو إلقي إلقاءً ؛ وفي يمينه كأس فارغة ؛ وفي يساره زجاجة كونياك مترعة ؛ ووجهه مبتل ؛ ربما بخمر تناثرت على وجهه في أثناء سقوطه ؛ أو بدموع سالت من عينيه من فرط الضحك الذي كان يحاول أن يوقفه صائحاً :

– كفي يا برافاي قاتلك الله .. ! كفي .. ! كدت تقتلني ضحكاً ..

أما هذا البرافاي الذي كاد يقتل البرنس ضحكاً ؛ فقد كان رجلاً – وإن كانت ثيابه تقول عكس ذلك – في منتصف العمر ؛ نحيلاً ؛ طويلاً ؛ أصلع الراس ؛ ضيق العينين .. وكان في تلك اللحظة واقفاً في وسط الحجرة مرتدياً ثوباً نسائياً أرجوانياً يرتفع إلى ما فوق الركبتين ؛ وكان سرواله ملقى تحت قدميه ؛ ويبدو أنه خلعه في تلك اللحظة بعد أن ارتدى الفستان .. وكان في الحجرة ثلاثة رجال آخرين من الأوروبيين ؛ قال أحدهم للأمير :

– دعه يا سمو البرنس يكمل المشهد ؛ ففيه مفاجأة لا تخطر لسموكم على بال ..

– فلينتظر على الأقل حتى نرى ماذا يريد شكيب بك ..

والتفت نحو شكيب بك – الذي لم يكن غير قائد الحرس – ؛ وصاح به :

– إياك وإزعاجي لأمر غير هام ؛ ماذا تريد ؟

ثم وقعت عيناه على لطيف بك الذي تقدم وأزاح شكيب بك ؛ فاتسعت عيناه واهتز جسده لخوف مفاجئ وغريب ؛ وصاح وهو يشير إليه :

– من هذا ؟ .. من هذا يا شكيب بك .. ؟ و كيف أذنت له بالدخول معك ؟ ..

وألجمت المفاجأة شكيب بك الذي لم يتوقع أن يكون لطيف في أعقابه ؛ فأسرع لطيف يقول ليطمئن الأمير :

– أنا يا سمو البرنس لطيف بك فوزي ؛ رسول أختكم سمو البرنسيسة زهرة باشا ..

فبدا على سعيد شئ من الارتياح ؛ وإن كان غضبه لم يتبدد تماماً ؛ وقال :

– وكيف اذنت لنفسك باقتحام الغرفة عليَّ بهذه الجرأة ؟

– مولاي .. كان لابد أن أقابل سموكم ..

فالتفت سعيد إلى شكيب بك وقال :

– ألم تخبرني أنه سيحضر في الساعة الثامنة عشرة ؟

فقال شكيب وهو لا يستطيع أن يخفي حنقه على لطيف :

لقد حضر الآن يا مولاي ؛ وجئت أنبئك بحضوره ؛ ولكنه تسلل خلفي دون أن أراه ..

فقال لطيف قبل أن ينفجر غضب سعيد :

– اغفر لي يا مولاي هذه الجرأة ؛ فإن الأمر هام وخطير ..

– تستطيع أن تنتظر حتى الصباح ..

– أقول يا مولاي إن الأمر أخطر من أن ينتظر حتى الصباح ..

– ماذا ؟

لم يقلها غاضباً كما توقع لطيف ؛ بل قالها ساخراً ؛ ثم أتبعها بغمزة ضاحكة لأصحابه ومضى قائلاً :

– اسمع يا .. قلت لي ما اسمك ؟

– لطيف بك فوزي ..

– اسمع يا لطيف بك فوزي .. لا يوجد في العالم شئ لا يستطيع أن ينتظر إلى الصباح .. فهمت ؟ .. أنا رجل شعاري في الحياة : الصباح للمشاكل والليل للمسرات .. ! فهمت ؟ .. لن أفسد ليلي بسماع مشاكل أختي ؛ وأنصحك أيضاً بألا تفسد ليلتك بمحاولة عرضها عليَّ .. فهمت ؟ اذهب الآن وكل ؛ واشرب ؛ وامرح ؛ حتى الصباح .. ثم تعال إليَّ بالمشاكل .. فهمت .. ؟

كانت كل كلمة ينطقها وكل إشارة يبديها تؤكد ما تنبأ به قدري بك .. ولم يشأ لطيف أن يستسلم لنزوة هذا الرجل الذي يفضل إرجاء المشاكل التي لا تحتمل الإرجاء على أن يتخلى لحظات عن مسراته .. وهناك رجل آخر سيحضر في الصباح مدعياً أنه لطيف بك فوزي ؛ وسوف يفسد كل شئ إذا لم يكن البرنس عالماً بحقيقته قبل حضوره .. ومن يدريه أن البرنس لن يرجئ استقباله في الصباح حتى يحضر المدعي فيستقبلهما معاً ؛ أو لعله يأمر بطردهما معاً تخلصاً من المشكلة كلها .. إنها كارثة ينبغي ألا يسمح بوقوعها .. فأدار مقبض العصا وأخرج رسالة نازلي وتقدم بها نحو سعيد الذي كان ينظر إليه في تأفف وملل ؛ وقال :

– مولاي .. هذه رسالة سمو البرنسيسة وقد وعدتها ....

فقاطعه سعيد دون أن يمد يده لتناول الرسالة :

– في الصباح .. في الصباح .. احتفظ بها معك لتعرضها علي في الصباح ..

– مولاي .. !

– قلت لك في الصباح .. فهمت ؟

ولا يدري لطيف أأشار سعيد إلى شكيب بك ؛ أم أن هذا أقدم على ما أقدم عليه دون أمره ؛ فقد أمسك به من ذراعه في قوة وقال له في خشونة :

– لقد سمعت أمر سمو البرنس .. فتعال معي ..

ولم يترك له فرصة للمقاومة ؛ فقد جذبه في عنف نحو الباب .. وقبل أن يغادر الحجرة سمع الأمير يقول لأصحابه بالفرنسية :

– زهرة باشا هذه لا تريد أن تتركني في حالي .. مالي أنا ومال وما لمؤامراتها .. ؟!

تماماً كما تنبأ قدري بك .. وبدأ لطيف يشعر بأنه أخطأ عندما لم يستمع إلى نصيحته .. وخطرت له فكرة غاضبة ؛ هي أن يأخذ الرسالة في الصباح إلى قصر عباس في بنها ؛ ولكنه نبذ هذه الفكرة سريعاً ؛ فمعناها أن يتخلى عن كل ما أمل في المستقبل ؛ مما

لن يحققه سوى التحاقه بخدمة سعيد .. وإن كان قد عجز عن إقناعه الليلة فذلك لأنه سكران .. نعم .. ربما كان السكر هو المسؤل عن هذا الفشل ؛ وربما استطاع أن ينجح في الصباح .. ولكن رسول ستراتفورد سيصل في الصباح ؛ ولابد أن يستقبله الأمير قبل وصوله .. وسأل شكيب بك :

– متى يستقبلني البرنس في الصباح ؟

– بعد أن يصحو من نومه ..

– أعرف هذا .. ولكن متى يصحو من نومه ؟

– ربما في العاشرة ؛ وربما في الحادية عشرة .. إنه يصحو قبل الظهر ..

ففكر في سرعة ؛ لماذا لا يكتب تقريراً بكل شيء يعرض على الأمير بمجرد يقظته في الصباح .. إنه بذلك يضمن على الأقل أن يطلعه على حقيقة عصمت كمال قبل أن يفاجأ بأن إثنين يطلبان مقابلته ؛ وكل منهما اسمه لطيف فوزي ؛ وكل منهما يزعم أنه يحمل رسالة من أخته .. أجل ؛ إن كتابة التقرير هي الحل الوحيد لهذه المشكلة التي خلقها سكر سعيد وإغراقه في المرح ؛ والصعوبة الوحيدة هي في أن يضمن أن يعرض التقرير عليه بمجرد يقظته .. والتفت إلى شكيب بك .. إنه الوحيد الذي يستطيع أن يضمن له هذا ؛ ولكن بشرط أن يضمه إلى جانبه ؛ وبدا له هذا شيئاً مستحيلاً ؛ فهو لازال يقبض على ذراعه بقوة ؛ ويجره جراً في ردهات القصر نحو الباب .. إنه – فضلاً عن شراسته الفطرية – لم ينس له أنه اقتحم على البرنس خلوته ؛ وكاد يجلب عليه سخطه ؛ ولكن لطيف بك لا يعرف المستحيل .. وإثارة مخاوف شكيب على سلامة البرنس – الذي يبدو أنه شديد الإخلاص له – كفيلة بأن تدفعه إلى تقدير موقفه ؛ والتماس العذر لجرأته ؛ ثم لتضامنه معه .. ألا يسعى كلاهما لخير الأمير ؛ هو لطمعه في هذا الخير ؛ وشكيب بدافع من إخلاصه لسيده ؛ وبدأ يثير خوف شكيب بك :

– أتعلم يا بك أن إرجاء سمو البرنس مقابلتي حتى الصباح قد يعرضه لخطر شديد ؟

ولم يبد على شكيب بك أنه تأثر بهذا التحذير ؛ فمضى يجذبه نحو الباب دون أن يتكلم ..

– قد يفقد سموه عرش مصر نتيجة لهذا الإرجاء ..

ولكن شكيب بك ظل يجره نحو الباب في صمت .. إذن ؛ فليقل جزءاً من الحقيقة ؛ بل الحقيقة كلها إذا احتاج الأمر :

– في الإسكندرية الآن رجل ينتحل اسمي ؛ ويحمل رسالة مزيفة باسم البرنسيسة زهرة باشا ..

وهنا فقط توقف شكيب بك عن جره نحو الباب .. لقد بدأت محاولته تثمر ..

– هذا الرجل أرسله لورد ستراتفورد كجزء من مؤامرة لنزع ولاية العهد عن سمو البرنس ..

واشتدت قبضة شكيب بك على ذراعه ؛ وإن كان قد كف عن جره ؛ وصاح :

– ماذا تقول يا هذا ؟

وكان في صوته نبرة دهشة تشبث بها لطيف فمضى يقول :

– إن لورد ستراتفورد حاول اغتيالي في الآستانة ؛ وظن أنه قتلني فعلاً ؛ فأرسل هذا الرجل منتحلاً اسمي ؛ بينما اسمه الحقيقي عصمت كمال ..

فنظر إليه شكيب بك طويلاً ؛ ثم تخلى عن ذراعه وبدأ يبتسم في وجهه – للمرة الأولى منذ قابله – بالتدريج .. حسن .. لقد نجح في إثارة اهتمامه ؛ وعندما يطلعه على الحقيقة سينحاز إلى صفه ؛ ويقبل أن يعرض التقرير الذي ينوي أن يكتبه على البرنس بمجرد يقظته ؛ بل ربما بلغ من اهتمامه بالأمر أن يعود إلى البرنس الآن فيخبره بالحقيقة .. لقد نجح ما في ذلك شك ..

– إن إخلاصك لسمو البرنس الذي لمسته يوجب عليَّ أن أطلعك على كل الحقائق ..

فازدادت بسمة شكيب بك اتساعاً ؛ وقال وهو يربت كتف لطيف :

– كل الحقائق بأدق تفاصيلها .. تفضل معي إلى حجرتي لتقص عليَّ كل شئ .. كل شئ ..

وهكذا أخذ لطيف يسرد على شكيب بك في حجرته كل ما مر به منذ استدعته الأميرة حتى ركب السفينة .. ولكنه أخفى عنه نبأين ؛ أولهما : تلك الأوراق التي اغتصبها من بيت عزيز والتي تدين ستراتفورد وكثيراً من عظماء الآستانة إذا أذاع ما فيها .. .. .. وثانيهما : لقاؤه بعلي بك .. أخفى هذين النبأين لأنه لم يكن بالأحمق حتى يكشف كل أوراقه أمام ضابط حرس القصر الذي لا يعرف حتى الآن إلى أي حد تصل مطامعه .. ولقد استمع شكيب إلى قصة محاولات اغتياله ونجاته منها في إعجاب شديد ؛ وكان لا يفتأ يصيح به بين لحظة وأخرى :

– أنت عبقري يا لطيف بك .. أنت خطير يا لطيف بك .. إن سمو البرنس محتاج إلى خدمات رجل مثلك يا لطيف بك ..

وعندما انتهى لطيف من قصته هب شكيب بك واقفاً في انفعال وهو يقول :

– الأمر خطير حقاً ؛ وينبغي اتخاذ خطوات سريعة ..

فقال لطيف مشيراً عليه بما يتوقع أن يفعله :

– لماذا لا تذهب الآن إلى سمو البرنس وتطلعه على كل هذه التفاصيل .. وأنا هنا مستعد .....

ولكن شكيب بك قاطعه :

– لا .. لا يا لطيف بك .. سمو البرنس لن يقبل أن يسمع مني حرفاً الآن .. إنه سيقول لي كما قال لك .. في الصباح .. الليل للمسرات والصباح للمشاكل ..!

– إذن ؛ فلم يبق إلا أن أكتب له تقريراً على أن تعرضه عليه في الصباح ..

فنظر شكيب إليه نظرة طويلة ؛ وبدا عليه أنه يفكر في الأمر تفكيراً عميقاً ؛ ثم قال :

– لا .. التقرير لا يكفي .. ينبغي أن تقابله أنت شخصياً .. أنت بنفسك .. سموه لن يقرأ التقرير .. أؤكد لك أنه لن يهتم حتى بالنظر إليه ؛ أنت تخشى أن يحضر هذا الدعيُّ قبل مقابلتك لسمو البرنس .. فعلاً .. لو حضر قبلك فسوف تعجز عن إقناع سموه بأنك الرسول الحقيقي .. نعم .. لن يسهل عليك إقناعه حتى لو أيدت أنا قولك أمامه .. إنه حتى لن يصغي إلى بقية كلامك .. وسوف يقاطعك في ملل كما فعل الليلة : ☚ لا أريد مشاكل .. غر من وجهي .. ! أنت لاحظت كيف يهرب دائماً من المشكلات التي تحتاج إلى تفكير وإلى حسم .. فما العمل إذن ؟

وصمت مفكراً مرة أخرى قبل أن يقول :

– ما رأيك لو قضيت الليلة هنا .. معي .. في القصر .. ؟ إننا بذلك نضمن أن تقابل سموه قبل هذا الدعيّ الذي ينتحل اسمك .. هه ؟ ما رأيك ؟

فقال لطيف مرحباً :

– ليس عندي ما يمنع من ذلك ..

– أنت ضيفي إذن الليلة .. !

ونهض واقفاً وأشار له أن يتبعه إلى حديقة القصر ؛ وقال له وهما يمضيان بين أشجارها الملتفة :

– الحق إنها مغامرة مخيفة تلك التي عشتها هذه الأيام .. تنجو من محاولتين لاغتيالك ؟ إنك لذكي خطير يا لطيف بك ..!

وابتسم لطيف في الظلام مسروراً بهذا الثناء الذي يدل على انبهار الرجل الشرس بشخصيته .. وعاد شكيب يقول :

– ترى أين اللعين الآن ؟

– من تقصد سعادتك ؟

– هذا الذي انتحل شخصيتك ؟

– عصمت كمال ؟

– نعم .. ترى ماذا يفعل الآن ؟

فضحك لطيف قائلاً :

– إنه بغير شك يعب الخمر في خان عبد الغفار ..

– خان عبد الغفار الذي في المنشية ؟

– أجل .. لقد احتلت عليه بحيلة لطيفة فأرسلته إلى هناك ليشرب الخمر حتى الصباح ..

– وما هي تلك الحيلة يا لطيف بك ؟ أنت ملك الحيل فيما يبدو ..

فقال لطيف ضاحكاً :

– سأقص عليك نبأها فيما بعد ؛ أما الآن فأريد أن أنام ..

فشاركه شكيب بك في الضحك ؛ وقال :

– ستنام يا بك ؛ ها نحن قد وصلنا ..

ووجد لطيف نفسه أمام بناء صغير برز له فجأة من بين الأشجار .. وتقدم شكيب بك إلى الباب يفتحه بمفتاح معه ؛ ثم أشار للطيف قائلاً :

– تفضل .. هذا هو الكشك الصيفي لسمو البرنس ؛ ستجد راحتك كاملة ..

ودخل لطيف فلم ير شيئاً سوى الظلام ؛ وقال شكيب :

– لحظة واحدة لأحضر لك قنديلاً ..

وخرج ؛ وأغلق الباب خلفه ؛ تاركاً لطيف يتحسس بيديه الظلام ..

(21) القبض على عصمت كمال

قدر علي بك في نفسه أنه سيجتاز محنة عاصفة قد تنتهي بمشاجرة مع عصمت كمال ؛ فهو كان واثقاً من أنه بمجرد أن يستيقظ من نومه سوف يجيئه في غرفته ويطالبه بالسهرة الحمراء التي أوهمه أنه يدبر أمرها مع صاحب الخان .. ولما لم يكن قد دبر شيئاً فقد توقع أن يشتد سخط عصمت ؛ فيعاوده ازدراؤه لمصريته ؛ ومن ثم يكون شيئاً لا مفر منه أن يلقنه درساً قاسياً .. وكان في أعماق نفسه يتمنى أن تتاح له هذه الفرصة لتأديبه ؛ لا لازدرائه المصريين فحسب ؛ بل لأنه وضعه – بتدخله في طريق لطيف بك وفي طريقه – في موقف لا يرضاه لنفسه ؛ فجعله يتظاهر باستعداده للقيام بدور القواد ؛ وكان الشئ الوحيد الذي يجعله مشفقاً من الاصطدام بعصمت ؛ هو خوفه من أن يقع هذا قبل ذهاب لطيف فوزي لقصر محمد سعيد باشا في الساعة العشرين ؛ فقد يؤدي اكتشاف عصمت خدعته إلى أن يتذكر مهمته التي جاء من أجلها ؛ فيذهب بدوره إلى القصر قبل ذهاب لطيف ؛ أو قبل أن يتمكن لطيف من مقابلة البرنس .. ولكن الساعة العشرين تقترب ؛ وعصمت كمال لايزال نائماً ؛ ثم تنقضي ساعة ؛ وتنقضي وراءها ساعة وساعة وهو لا يزال نائماً .. فيطمئن علي بك إلى أن شيئاً لا يمكن أن يحدث الآن فيفسد على لطيف خطته ؛ ولم يبق ثمة ما يحول دون أن يُلْقِيَ علي عصمت – بعد أن يصحو – أقسى درس يسعفه به قاموسه الواسع في اللغة التركية .. ولكن الليل ينتصف ولا يستيقظ عصمت ؛ فإن الخمر الفرنسية المعتقة كانت أقوى من أن يحتملها رجل مثله لم يعتد إلا على أحط الخمور المقطرة سراً في أزقة الآستانة .. ولا يجد علي بك بداً من أن يستجيب للتعب الذي يتناوشه منذ غادر السفينة ؛ فيدلف إلى فراشه ؛ ويستغرق في نوم عميق ..

ولكنه استيقظ في الثانية بعد منتصف الليل على طرق عنيف بباب الحجرة المجاورة لحجرته ؛ والتي ينزل فيها عصمت كمال .. وسمع أصواتاً خشنة تتحدث بالتركية عن المجرم الملعون الغبي ؛ الذي لم يشك في أنه عصمت كمال نفسه .. فغادر فراشه مسرعاً وفتح باب حجرته يستطلع الأمر ؛ فشاهد ثلاثة رجال في ثياب رسمية تنبئ عن أنهم من حرس البرنس محمد سعيد .. وكانوا يطرقون باب عصمت كمال بأيديهم وبأرجلهم في عنف ؛ وقد وقف خلفهم صاحب الخان ممسكاً بقنديل ؛ يرتجف ضوء فتيله مع ارتجاف اليد التي تمسك به ؛ وسمع أعلى الضباط رتبة يصيح بصاحب الخان :

– إن لم يفتح هذا الحمار الباب فسوف نحطمه على رأسه وعلى رأسك معه ..

فقال صاحب الخان في صوت باكٍ :

– يا أغا .. ما ذنب بابي إذا كان نزيلي ثقيل النوم ؟

فصفعه الضابط صفعة ألقت به واقفاً على الجدار المقابل ؛ وكادت تسقط القنديل من يده ؛ ثم عاد يطرق الباب مع رجاله بيده ويدفعه بقدمه ..

ولم يكن علي بك بالأحمق الذي يخرج إليهم بعد أن أدرك معنى ما يفعلون ؛ فهم قد جاءوا لا محالة للقبض على عصمت كمال ؛ ولو كشفوا أنه صديق له – حتى ولو كانت صداقة ليوم واحد – فإنهم سيقبضون عليه أيضاً .. وقد يستطيع لطيف أن ينقذه وقد لا يستطيع .. فالأسلم إذن أن يغلق بابه عليه ؛ و يعود للنوم كأنما لم يسمع طرقهم ولم يفزعه صياحهم .. وقد آثر السلامة فأغلق بابه وعاد إلى فراشه ؛ إلا أن النوم جفاه فظل جالساً في السرير يتسمع إلى صوت عصمت كمال ؛ الذي استيقظ مذعوراً بعد أن أطار الطرق العنيف أثر الخمر الفرنسية المعتقة ؛ فسمعه يشهق عندما فوجئ بالضباط الثلاثة ؛ ثم سمعه يعتذر إليهم دون جدوى وهم يسبونه ويتهددونه ويأمرونه بأن يصطحبهم إلى سراي البرنس .. ثم سمعه وهو يستعطف قائدهم ليسمح له بارتداء ثيابه ؛ ثم سمع وقع خطوات الجميع ثقيلةً على سلم الخان الخشبي وهم يهبطون ..

لقد تم القبض على عصمت كمال .. فاللعبة انتهت إذن .. ولينم قريراً سعيداً .. وليستعد للصباح وما يحمل من أحداث هامة بالنسبة إليه ..وأولها استدعاء لطيف بك إياه ليقابل سمو البرنس لتبدأ عجلة الانتقام في الدوران ..

(22) قتل لطيف

ظل لطيف بك واقفاً في الظلام لحظات لم يقدر طولها ؛ إلا عندما تساءل في نفسه عن السر في أن شكيب بك لم يأمر أحد الخدم بإحضار قنديل حين طلب منه أن يتبعه لهذا الكشك الصيفي ؛ ولم يخطر له هذا السؤال له حينئذٍ ؛ فقد افترض أنه سيقوده إلى حجرة مجهزة للضيوف فعلاً ؛ وعندما طلب منه أن ينتظر لحظة واحدة ليحضر له القنديل ؛ كان هذا تصرفاً طبيعياً تتقبله نفس رجل يقف في الظلام ؛ فلم يخطر له هذا السؤال أيضاً .. ولكن ما إن وجد نفسه واقفاً وحده في ظلام دامس لا يرى فيه غير السواد ؛ حتى تيقظت فيه طبيعة الجاسوس الذي لا يقبل أمراً بظاهره دون أن يقلبه حذراً على وجوهه المحتملة ..

وكانت مسألة القنديل الذي ذهب شكيب بك لإحضاره بنفسه تثير الشك في كل وجه يقلبها عليه ؛ فهو أولاً لم يأمر خادماً باصطحابهما بقنديل ؛ في حين أنه يعرف أن الكشك الصيفي للبرنس ليس مزوداً بالقنديل ؛ بدليل أنه لم يحاول أن يبحث عن قنديل حين دخلا ؛ بل انطلق من فوره لإحضار قنديل من السراي .. وهو ثانياً قد أغلق الباب خلفه ؛ مع أن الباب هو المصدر الوحيد الذي كان سيضئ له الكشك حين يعود بالقنديل .. وليس هناك تفسير يقبله العقل لهذين التصرفين ؛ سوى أنه يحرص على أن يكون وجوده سراً على كل من في السراي ؛ فما معنى هذه السرية .. ؟ وماذا يمكن أن يبررها .. ؟ أما ثالث ما أثار شكه فهو أنه قد غاب طويلاً عليه ؛ فالوقت الذي انقضى منذ خروجه لا يقل عن ثلاثة أضعاف الوقت الذي استغرقاه معاً في الوصول من السراي إلى الكشك .. وعند ذلك لم يملك لطيف إلا أن يتجه نحو الباب المغلق ؛ وقد دفعته غريزته إلى أن يسير باحتراس حتى لا يصطدم بقطع الأثاث التي ينبغي أن تشغل ردهة كشك صيفي لأحد الأمراء .. ولكنه لم يصطدم بشئ ؛ بل إنه لاحظ أن الأرض غير مغطاة بالسجاد ؛ وليس هذا مما يتفق وكشكاً صيفياً للبرنس .. وعندما وصل إلى الباب تحول الشك يقيناً ؛ فقد كان الباب مغلقاً بالمفتاح .. ! لقد سجنه شكيب بك في هذا الكشك .. استدرجه حتى دخله بقدميه .. فما أغباه ..!

ومضى يتحسس الباب بأصابعه ليتعرف على مدى مقاومته للاغتصاب أو للتحطيم ؛ ولكن أصابعه تصلبت عندما لمست قضباناً من الحديد ليست مما يمكن أن يستعمل في كشك صغير للبرنس .. إنها قضبان سجن ما في ذلك ريب ! .. أيكون شكيب بك قد قاده إلى سجن القصر الخاص مستغلاً ظلام الليل وظلال الأشجار التي تخفيه .. ومستغلاً قبل هذا كله ذلك الخدر الذي دب في أوصاله من عذوبة التملق والثناء اللذين ظل يسكبهما في أذنيه طول الطريق .. ؟

ودار دورات متأنية يحاول أن يعثر على قطعة أثاث تنفي أن شكيباً تغفله ؛ ولكن أصابعه لم تلمس في نهاية كل دورة سوى أحجار الجدران الباردة .. حتى النوافذ لم يجد لها أثراً .. هو السجن إذن ما في ذلك شك !

وسقط على الأرض إعياءً ويأساً ..

** ** **

وانقضت ساعات لا يدري عددها قبل أن تلتقط أذناه صوت مفتاح يولج في القفل ؛ فهب واقفاً في ذعرٍ .. أحانت ساعته أخيراً ..؟ هل جاء من الآستانة إلى مصر ليلقى مصرعه في هذا السجن المظلم الرطب .. ؟ أكل ما فعله وكل ما تغلب عليه من أخطار ومصاعب كان تمهيداً لهذا النهاية الكئيبة .. ؟

ودفع الذعر من الموت بدماء الغضب تغلي في عروقه .. كلا .. لن يموت كَفَأْرٍ أجربٍ استدرجه شكيب إلى الفخ بكسرة من خبز الملق والخداع .. ! .. إذا كان لابد من الموت فليمت وهو يقاتل دفاعاً عن حياته .. فرفع عصاه واندفع نحو الباب الذي فتح ببطء شديد ؛ ثم أهوى بكل ما في ذراعيه من قوة على اليد التي امتدت من فرجة الباب تحمل قنديلاً .. وسقط القنديل على الأرض وانطفأت جذوته ؛ ولكن الظلام لم يغمر السجن كما توقع ؛ فقد ظهرت في الباب ثلاثة قناديل أخرى أضاءت المكان ؛ وأبرزت لعيني لطيف الجزعتين وجه شكيب بك يحيط به ستة من جنود الحرس مسلحين بالسيوف .. !؟

وكان الرجل الذي أصاب يده بالعصا ينظر إليه في حقد قاتل دون أن تصدر عنه أنة ألم واحدة ؛ وإنما أفسح الطريق ليدخل شكيب بك وخلفه رجاله .. وعندئذٍ شاهد لطيف بينهم رجلاً يرتعد من الذعر ؛ فانفرجت شفتاه لتهمسا في ذهولٍ :

– عصمت كمال .. !

وأشار شكيب إلى واحد من حاملي القناديل ؛ فقرب الضوء من وجه لطيف ثم قال لعصمت كمال في هدوءٍ :

– تقدم أيها الحمار وانظر إليه .. أهو لطيف فوزي الحقيقي ؟

وعندما وقعت عينا عصمت كمال على وجه لطيف أغنت نظراته الفزعة عن أي جواب .. كان ينظر إليه كما ينظر طفل إلى ميت يقوم من قبره جارًّا أكفانه خلفه .. وكان لطيف فعلاً بالنسبة إليه ميتاً يَجُرُّ أكفانه .. ألم يقولوا له في الآستانة إن جثته قد ألقيت في قاع البسفور ؟

واكتفى شكيب بهذه النظرة في عيني عصمت كمال ؛ فمد يده في هدوءٍ وثقةٍ ؛ وأخذ العصا من بين أصابع لطيف بك دون أن يصادف أية مقاومة ؛ فقد كان الذهول واليأس قد أفقداه القدرة على أي شئ ؛ وأدار شكيب مقبض العصا وأخرج الرسالة من مكمنها ؛ ونظر إلى أختامها متفحصاً ؛ ثم قال لعصمت :

– وهذه هي الرسالة التي دوختكم في إستانبول .. ؟

ودس الرسالة في جيبه باسماً ؛ ثم قال للطيف :

– أنت ذكي يا لطيف بك ما في ذلك شك .. ولقد استطعت أن تخدع لورد ستراتفورد وكل رجاله في الآستانة .. ولكن ذكاءك وبراعتك لم تنفعا معي .. يشهد الله أنني آسف على مصيرك الذي انتهيت إليه ..

– هل أنت من رجال ستراتفورد ؟

قالها لطيف في همسٍ مرتعدٍ لم يكد أحد يميز حروفه ؛ ولكن شكيب بك فهم ما أراد أن يسأل عنه فقال :

– أنا يا عزيزي رجل من يحسن الدفع .. وسمو الوالي يدفع لي بسخاءٍ .. يدفع لي أكثر مما يدفع لي سعيد باشا بكثير .. !

– وإذا وعدتك بأن أدفع لك كل ما تطلب ..

فقاطعه شكيب باسماً :

– لا .. لا يا عزيزي .. إما أنت و إما أنا .. الحياة الآن أصبحت لا تتسع لكلينا .. أنا آسف .. و لكن لابد من أن أقتلك ..

وأشار إلى رجاله فانقضوا على لطيف ؛ وقبل أن يتمكن من المقاومة كان إثنان منهم قد أمسكا بذراعيه ؛ وقبل أن يصرخ كان ثالث يضغط على رقبته بأصابعه ؛ وقبل أن يطغى دوار الموت على حواسه سمع شكيباً يقول :

– بعد أن تنتهوا منه ألقوا بجثته خلف أحد الأكوام في القباري ؛ حتى يظنَّ الناسُ أن قطاعَ الطرقِ هم ...

وزحف دوار الموت على أذني لطيف فلم يسمع بعد ذلك حرفاً ..

(23) عودة علي لقريته بالصعيد

استيقظ علي بك من نومه نشيطاً خفيفاً ؛ فقد كانت ليلته تلك أول ليلة يقضيها تحت سماء الوطن منذ سنوات .. لم يكن يتخيل أن عودته إلى مصر تفعل فيه كل هذا السحر .. فبالرغم من أنه قضى يوماً مجهداً مع عصمت كمال ؛ وبالرغم من أنه أوقظ في منتصف الليل على أصوات الجنود الذين قبضوا علي عصمت كمال ؛ وبالرغم من أنه لم يبرأ تماماً من دوار البحر الذي أصابه على ظهر السفينة ؛ ومن الضرب الذي كاد يفضي به إلى الموت في الآستانة .. بالرغم من ذلك كله ؛ فإن ليلة واحدة قضاها تحت سماء مصر قد أعادت إليه حيويته ونشاطه ؛ بل وبعثت في قلبه نشوة جعلته يقفز من فراشه ؛ ويدور في غرفته كأنه يرقص .. كان يتعجل الفراغ من مهمته مع لطيف بك حتى يسرع طائراً إلى قريته في أعماق الصعيد .. إلى أحضان أمه ؛ وإلى بر أبيه ؛ وإلى حنان إخوته ؛ وإلى تلك الشمس الحارة التي تدفع الدماء إلى العروق نابضة صاخبة .. تلك الشمس التي حرم منها سنوات

تحت سماء الآستانة الملبدة ؛ والتي لا يكاد يتعرف إليها في سماء الإسكندرية نصف الملبدة .. لم يكن يمسكه تحت هذه السماء – نصف الأوروبية – إلا ارتباطه بلطيف بك وبمقابلة البرنس محمد سعيد .. لقد وعده لطيف بأن يرسل في استدعائه في الصباح ؛ وها هو ذا الصباح يغمر كل شيء حوله بصخبه وحيويته ؛ ومع هذا فلم يصل رسول لطيف بك بعد ؛ وانقضت الساعات حتى أوشك النهار أن ينتصف دون أن يصل رسول لطيف بك .. أتراه نسيه ؟ .. مستحيل .. أتراه إذن غدر به ؟ .. وضحك من أعماقه ؛ فالغدر من صفات الجواسيس المميزة بغير شك ؛ ولكن ما بينه وبين لطيف بك أكبر من الغدر ؛ إنه في حاجة إليه ليقدم لسعيد باشا تقريراً مفصلاً عن حياه إلهامي الخاصة ؛ تلك الحياة التي لا يعرف خزيها وعارها غيره ؛ فلا أحد سواه يستطيع أن يلطخ سمعة إلهامي ويقضي على أي أمل له في ولايه عهد البلاد .. وإذا كانت حاجة لطيف إليه ماسة إلى هذه الدرجة فمن المستبعد أن يكون قد نسيه أو غدر به ؛ ومن المستبعد أيضاً أن يكون قد فشل في مقابلة البرنس محمد سعيد ؛ وقد رأى بعينيه الحرس الخاص بالبرنس يعتقل عصمت كمال في منتصف الليل ؛ فلابد إذن أن لطيفاً لم يجد رسولاً يبعث به إليه ؛ أو لعل الرسول قد ضل الطريق ؛ فخان عبد الغفار ليس منارة الإسكندرية .. وسواء كان هذا أم ذاك فليس ثمة ما يمنع من أن يذهب من نفسه إلى سرايا القباري ويطلب مقابلة لطيف بك .. وحتى لو كانت أصول الجاسوسية – التي لا يفهم فيها كثيراً – تقضي عليه بأن ينتظر حتى يرسل هو إليه فإنه عاجز عن أن ينتظر أكثر مما انتظر ؛ وحسبه نصف يوم أضاعه في الإسكندرية قبل أن يعود الى قريته وشمسها ؛ وإلى أهله ودفء صدورهم ..

وهكذا غادر الخان في طريقه إلى سراي محمد سعيد باشا في القباري .. وعندما وجد نفسه في الطريق بين ذوي الوجوه السمراء والجلابيب البيضاء والسراويل السوداء أحس بأن صدره قد زاد اتساعاً ؛ وأن قلبه قد ارتد صبياً غضاً ؛ فمضى يرتشف السمرة في الوجوه ؛ والضحكات المرحة في العيون ؛ والكلمات الطيبة بين الشفاه .. ودفعه هذا الجو المصري الخالص الذي طال شوقه إليه إلى أن لا يركب عربة ؛ فمضى يضرب في الحواري والطرقات يطوح بعصاه في الهواء .. ويلقي بالتحية إلى كل من تلتقي عيناه بعينيه حتى وصل إلى القباري ؛ فرأى تجمهراً عند أحد الأكوام ؛ لم يكن تجمهر المصريين غريباً عليه ؛ فهو يعرف أنهم يتجمهرون حتى حول حمار نافق ؛ ولكن رغبته في ارتشاف كل شيء في مصر دفعته إلى أن ينضم إلى المتجمهرين ؛ وأن يسأل الواقف بجواره :

– خيراً إن شاء الله ؟

– مسكين يا أفندي .. رجل مخنوق .. !

– رجل مخنوق .. ؟

– نعم ؛ ويظهر أنه رجل محترم ؛ فثيابه ثياب بكوات ..

– سبحان الله .. ألم يتعرف عليه أحد ؟

– كلا .. أرسلنا إلى الجندي ونحن في انتظار وصوله .. فربما يعرفه ..

وزاحم علي بك المتجمهرين بكتفيه حتى يصل إلى الرجل المخنوق ؛ ووقف يتطلع إليه .. كان المارة قد غطوه بملاءة بيضاء ؛ ووقف بعض كبار الحي حوله يحرسونه من أعين المتطفلين .. ورأى أحدهم ثياب علي بك الأنيقة فتوسم فيه رفعة المكانة فقال له

– واحد من البكوات يا بك ؛ تحب أن تراه ..

ولكن علي بك لم يشعر بالرغبة في أن تصافح عيناه وجه رجل مخنوق ؛ لقد ترك وراءه في الآستانة جو المخنوقين والمذبوحين في البسفور ؛ وهو يحب من مصر وجهها المشرق النابض بالحياة ؛ فهز رأسه وقال :

– لا داعي .. فليرحمه الله .. !

– سأكشف لك وجهه ؛ فربما تتعرف عليه ؛ إنه من علية الناس ..

– أنا لا أعرف أحداً هنا .. انتظروا حتى يصل الجندي .. سلام عليكم ..

واستدار مبتعداً في سرعة وهو يطوح بعصاه في انفعال ساعياً إلى قصر القباري ليقابل لطيف بك ؛ دون أن يدري أنه هو الذي تركه خلفه مسجى على الأرض تحت الملاءة البيضاء .. وعندما وصل إلى القصر وسأل عن لطيف بك فوزي ؛ قيل له إنه في حضرة سمو البرنس ؛ ولكنه يستطيع أن ينتظره .. ثم قادوه إلى إحدى قاعات الانتظار حيث جلس يرشف القهوة التي قدمت إليه .. غير أن الفنجان كاد يسقط من يدي عندما فتح الباب ودخل عصمت كمال بوجهه الهضيم وعينيه المذعورتين :

– من .. ؟ علي بك .. ؟ يا لها من مفاجأة ..!

حقاً يا لها من مفاجاه ؛ فهذا عصمت كمال يتقدم إليه بكف مبسوطة وبسمة كريمة ؛ فأين لطيف بك فوزي إذن .. ؟

– ماذا حدث .. ؟

– كل خير يا علي بك .. كان سمو البرنس ينتظرني أمس فلما تأخرت عليه أرسل يستدعيني ..

– يستدعيك .. ؟

رددها علي بك ؛ ولما يفق من ذهوله .. إذا كان البرنس استدعى عصمت كمال فماذا فعل بلطيف بك فوزي .. ؟

– نعم .. استدعاني في منتصف الليل .. لعلك لم تسمع ضجة الحرس وهم يطرقون بابي .. !

لابد أن الأمور تطورت بصورة لا يستطيع أن يتنبأ بها ؛ ومهما حاول الآن أن يسأل ويستفسر فلن يصل إلى كشف الحقيقة ؛ إلا إذا كشف لعصمت كمال عن حقيقته هو ؛ فليجاريه في ترحيبه وليتظاهر بأنه أحس بالقلق عليه فجاء ليطمئن إلى أنه بخير :

– كلا .. لم أشعر بهم .. ولكن خادم الخان أخبرني في الصباح أن جنوداً من حرس سمو البرنس قد أخذوك في منتصف الليل فـــ

– خفت أن يكون مكروه أصابني .. ؟

وضحك ..

– أنا شاكر لك هذا الاهتمام يا علي بك .. شاكر لك من أعماق قلبي ..

وقبل أن يفيق علي بك من أثر هذه المفأجاة تلقتهم مفأجاة أخرى ؛ فقد اقتحم الحجرة ضابط ضخم الجثه شرس الملامح وهو يصيح بعصمت كمال ..

– ماذا تفعل عندك أيها الحمار الغبي .. ؟ أتظن نفسك في بيت أبيك تتجول حيث تشاء وتستقبل ضيوفك الأراذل ..؟!

وهب علي بك واقفاً في غضب ؛ بينما اصفر وجه عصمت جمال وارتجفت ركبتاه ذعراً وقال في صوت راعش وهو يشير إلى علي بك :

– معذرة يا شكيب بك ؛ ولكن .. هذا صديقي علي بك .. من الأعيان ..

لا شك في أن عصمت كمال يعامل في القصر معاملة الكلاب الضالة ؛ ولكن ما ذنبه هو حتى يهان ويسمع إهانته بأذنيه دون أن يستطيع ردها ؛ هل ذنبه أنه زج بنفسه في دنيا الجواسيس والعملاء .. ؟ ولكنه فعل ذلك خدمة لصاحب هذا القصر ؛ وولي نعمه هذا الضابط الوقح الذي أخذ يتقدم إليه محدقاً في وجهه بوقاحة وشراسة وهو يقول في سخرية :

– أعيان .. ؟!

وتشبثت أصابع علي بك بعصاه .. كان يعلم أن ضربة من هذه العصا فوق هذا الوجه القبيح سوف تشفي غليله ؛ ولكنه كان يعلم أيضاً أن هذه الضربة ستضع نهاية مؤسفة لحياته .. فالضربة ستؤدي إلى القبض عليه والتحقيق معه ؛ والتحقيق سيقود لا محالة إلى كشف شخصيته الحقيقية .. علي بك وهبة .. الرجل الذي أمر إلهامي بجلده حتى الموت ؛ وإلقاء جثته في البسفور .. فهل يتوقع من حكومة يرأسها أبو إلهامي عقاباً أقل من القتل .. ؟ وكان شكيب بك يتفرس في وجهه مزدرياً مستخفاً ؛ ولعله كان يبحث في قاموس شتائمه عن أقذعها ليوجهها إلى هذا الرجل المنتصب أمامه في كبرياء وغضب ؛ بينما كان عصمت كمال يتمتم في صوت مرتجف :

– نعم .. علي بك .. من الأعيان .. من أعيان مصر .. علي بك وهبة ..

– علي بك وهبة السكرتير الخاص لسمو إلهامي باشا ..

قالها شكيب في دهشة .. ثم اختفت من عينيه نظرات الازدراء والاستخفاف ؛ وحل محلها احترام مفاجئ ؛ وصاح في عصمت كمال مستنكراً دون أن يتخلى عن وقاحته :

– لماذا لم تقل لي من أول الأمر أيها الحمار الغبي .. ؟

– أنا أقسم أنني لم أكن أعرف أنه هو ..

– طبعاً .. حمار غبي مثلك لابد أن يكون جاهلاً بما يدور حوله ..

ثم انحنى في أدب شديد أمام علي بك قائلاً :

– هل تتفضل يا سيدي وتشرفني في مكتبي حتى نستطيع أن نتحدث ؟

** ** **

وما كاد باب القاعة يغلق خلفهم حتى قال شكيب دون تمهيد :

– اعذرني يا سيدي لغبائي .. ولكن كان من الواجب أن أعرف أن سمو إلهامي باشا لابد أن يرسل سعادتك لتشرف على تنفيذ الخطه وتطمئنه ؛ فإذا كان لورد ستراتفورد قد اضطر إلى إرسال هذا الحمار بالرسالة فلابد أن يحس سمو إلهامي باشا بالقلق ؛ فيرسلك خلفه ..

– يرسله خلفي .. ؟!

قالها عصمت كمال مستنكراً ..

– اسكت أنت .. !

قالها شكيب وهو ينظر إليه نظرة غاضبة جعلته يجمد في مقعده ؛ ثم التفت إلى علي بك ومضى يقول :

– ولكنني أؤكد لسعادتك أن كل شيء قد صار على ما يرام .. صحيح أن هذا الحمار الغبي كاد يفسد كل شيء أمس ؛ ولكنني تدخلت في اللحظة المناسبة وأنقذت الموقف .. وتستطيع سعادتك الآن أن تعود إلى سمو إلهامي باشا وتطمئنه .. فجاسوس زهرة باشا هانم ملقى فوق أحد الأكوام ؛ ولابد أن روحه في جهنم تنتظر أن تلحق بها روح سموها .. أما رساله لورد ستراتفورد فقد قرأها سعيد باشا والتقط الطعم الذي وضع له فيها ..

ولم يكن علي بك في حاجه إلى ذكاء حاد ليدرك أن شكيب بك قد خدع فيه ؛ فحسبه موفداً من إلهامي باشا ليشرف على تنفيذ المؤامرة ضد سعيد باشا .. كذلك لم يكن في حاجة إلى ذكاء حاد ليدرك أن هذه المؤامرة هي تلك التي أنبأه بها لطيف بك ؛ وإذا كان قد اكتشف في هذه اللحظة أن شكيب بك طرف في هذه المؤامرة ؛ فقد كان يريد أن يعرف ماذا جرى للطيف بك ؛ ولم يكلفه الأمر إلا أن يضطجع في كرسيه ويضع ساقاً على ساق ويقول في كبرياء :

– أريد التفصيلات يا شكيب بيك .. لا يكفيني هذا الكلام العام ؛ فأنا لا أستطيع أن أنقل إلى سموه كلاماً عاماً ..

– الحق معك يا علي بيك .. إليك كل ما حدث إذن ..

ومضى يقص عليه أحداث الليلة الماضية بالتفصيل .. وعندما انتهى كان جسد علي بك ينتفض من الغضب والخوف .. فقد اكتشف أنه أصبح فجأة وسط مجموعة من الذئاب الكاسرة ؛ وأنه أصبح أعزل من كل سلاح بعد أن صار لطيف بك جثة ملقاة فوق أحد الأكوام .. وهل يستطيع أن يصل إلى سعيد باشا ليطلعه على كل شيء ويطلب حمايته ؟ وإذا استطاع أن يصل إليه فهل هو مستطيع أن يجعله يصدق روايته ؟ .. وخصوصاً إذا أنكرها شكيب وعصمت كمال ؟ ثم إذا استطاع أن يجعله

يصدقه ؛ فهل سعيد باشا قادر على حمايته حقاً من نقمة إلهامي وأبيه ؛ بينما قائد حرسه جاسوس لهما ؟ .. كلا ؛ إن أفضل ما يستطيع أن يفعله أن يمضي في تظاهره بأنه موفد من قبل إلهامي حتى يخرج من هذا القصر ورأسه فوق عنقه ؛ ثم ينطلق بعد ذلك إلى أعماق الصعيد ليعيش هناك مختفياً عن الأنظار حتى تنجاب هذه الغمة ؛ إذا كان مقدراً لها أن تنجاب ..

وهكذا مضى في تمثيل دوره إلى نهايته فأخذ يستفسر من شكيب عن بعض التفاصيل ؛ وأخذ ينبهه إلى بعض الأخطاء التي تظاهر بأنه اكتشفها في خططه ؛ حتى أيقن أنه حقق غايته .. فقال في كبرياء :

– حسن .. سأبلغ كل هذا لسمو إلهامي باشا ؛ وأرجو أن يصلك عن قريب ما يدل على عطفه السامي عليك وتقديره لجهودك

فقال شكيب وهو ينحني في أدب جم :

– أنا اعتمد على كرم سعادتك في نيل عطفه السامي .. وأرجو أن تذكرني عندما تصبح سكرتيراً خاصاً لولي العهد ؛ ثم لسمو الوالي فيما بعد ..

فقال علي بك وهو يغتصب ضحكة :

– هذه خيانه لسمو عباس باشا يا شكيب بيك ؛ قل بعد عمر طويل .. !

– طبعا يا علي بك .. مد الله لنا في عمر سمو عباس باشا وأدام عزه ..

الخَاتِـمَةُ

بعد هذه الأحداث بأسابيع ؛ رست سفينة شراعية عند جسر قرية على النيل ؛ ومن بين زكائب البصل المكدسة فوقها قفز شاب في جلباب قديم قذر ؛ ينتعل مركوباً مرقعاً ؛ وانطلق نحو بيوت القرية يطوح في يده صرة صغيرة تضم كسرات خبز وقطعة من الجبن الجاف .. كان الوقت ليلاً .. وضوء القمر يغمر كل شئ حوله ويحيله أشباحاً وهمية تتوارى في ظلال الأشجار وجدران البيوت ؛ ونباح الكلاب المنتشرة في كل مكان يتجاوب صداه معلناً أن : ☜ هنا حياة .. هي حقاً حياة نائمة .. ولكنها حياة .. وعندما وصل الشاب إلى أحد البيوت التي تطرفت عن غيرها ؛ وتميزت بأنها من الحجر لا من اللبن ؛ طرق الباب في رفق ؛ وكرر الطرق عدة مرات ؛ حتى فتح الباب وظهر فيه وجه صبي صغير يحدق في الطارق لحظات قبل أن يصرخ في انفعال :

– أخي .. البك .. !

وبددت الصرخة كل أثر للنوم في عيون أهل الدار ؛ وفتحت حجرات خرجت منها أم وأب وأخوة وأخوات ؛ وأحاط الجميع بالشاب يعانقونه ويقبلونه مرددين :

– علي .. وحشتنا يا علي .. ! حمد الله على السلامة يا علي ..!

ثم تنبهت الأم إلى رثاثة الجلباب وقدمه ؛ فقالت وهي تدني المصباح من وجهه :

– مالك يا علي .. وما هذه الثياب التي تلبسها ؟

– في الصباح سأقول لك كل شئ يا أمي .. أما الآن فأنا متعب .. متعب جداً ..

أما الأب فلم تبد عليه أية آثار للدهشة ؛ وإنما ابتسم في هدوء ؛ وقال :

– كنت أتوقع هذا .. ! .. المهم .. الحمد لله على سلامتك يا بني .. !

وفي الصباح .. اختلى الأب بابنه فسمع منه كل شئ .. وكان علي بك يحكي في انفعال وتوتر ؛ أما الأب فكان هادئاً لم تفارق البسمة شفتيه .. وعندما انتهى عليٌّ من حكايته ظل الأب محتفظاً ببسمته وصمته ؛ فقال علي :

– والآن يا أبي .. بعد أن عرفت كل شئ .. فماذا ترى أن نفعل ؟

– فيم ؟

– في المستقبل ..

– المستقبل بيد الله يا علي .. !

– هذا حق .. ولكن لابد من أن نتخذ شيئاً من الاحتياطات .. فعباس باشا لن يتركني حياً إذا علم أنني هنا ..

– عباس باشا .. ؟ أنت لم تعرف إذن ؟

– ماذا ؟

– عباس باشا قتل .. !

– قتل ..!

قالها علي وهو يهب واقفاً في فزع :

– نعم .. في الليلة التي غادرت أنت فيها الإسكندرية حسب حكايتك ..

– هل أنت واثق يا أبي ؟

– كل الثقة يا بني .. جاءت إشارة إلى العمدة تعلن قتل عباس وتولية سعيد ..

– سعيد أم إلهامي ؟

– سعيد يا بني .. إنه ولي العهد الشرعي ..

– وخطة ستراتفورد لعزله وتولية إلهامي .. ؟

– يا علي .. يا علي يا ابني .. من يكون ستراتفورد أو بوليفار أو السلطان نفسه حتى يغير شيئاً كتبه الله وقضى به .. ؟

– إذن فالمؤامرة لم تنجح .. ؟!

– يا بني .. لقد عشت عشرات السنين أسمع عن مؤامرات وعن ذئاب وعن غيلان .. ولكن كل هذا راح .. تبدد كالندى على ورق الشجر عند مطلع الشمس .. لم تبق من كل هذا إلا حقيقة واحدة .. هي نحن .. !

– ولكن مؤامرة نازلي لقتل عباس نجحت .. !

– ومن تكون نازلي ومن يكون عباس .. ؟ .. يا ابني .. لا يصح إلا الصحيح .. كله فان وزائل ..

– ولكن هذه القناة لو شُقت فسوف تجعل مصر مستعمرةً أوروبيةً .. !

- ♞ يا ابني .. ياما جاءنا مستعمرون ؛ وياما جاءنا ذئاب .. فهل غيروا مشرق الشمس إلى الغرب ؟ .. هل منعوا القمر من أن ينور في الليل المظلم ؟ .. هكذا نحن يا ابني ؛ هذه الأرض الخضراء ؛ وهذا الليل الأسمر .. ونحن الفلاحين باقون بقاء الشمس والقمر .. نحن الشئ الوحيد الصحيح في كل هذا ؛ ولا يصح إلا الصحيح .. ألم أقل لك .. ؟ ♠